

موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

رحلة حياة

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

١٤٨٣ هـ

تأليف

الدكتور أحمد رشاد

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبريدج
استاذ القانون الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة ١٩٨٢ مع تذييلات مهمة وإضافات واسعة



الناشر
طبعة النفوس المصرية
٩ شارع النيل
القاهرة

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٩ — ٢٢
مقدمة الطبعة الثالثة	٢٣

القرية المصرية

قرية « عليم »	٢٧
كلمة عن الأسرة والنسب	٢٨
القرية المصرية وضرورة إعادة تخطيطها	٣٤

الأزهر

مكانة الأزهر ومكانة علومه	٣٩
حساسية الأزهرين	٤١
في معهد الزقازيق	٤٢
الأزهر والامتحان في المقروء	٤٧
أحداث وطرف بالمعهد	٤٨
الزقازيق : الناس والمدينة	٥٣
تطوير الأزهر	٥٦
اللقانون ١٠٣ (سنة ١٩٦١) يعمر ولا يطور	٦٠
قضايا ازهرية أخرى	٦٥
الأزهر بالخارج	٦٥

في كلية دار العلوم

مكانة دار العلوم بين مراكز الفكر الاسلامي	٦٩
دار العلوم في عهدنا	٦٩
دار العلوم بين الأزهر والجامعة	٧٠
دستور الكلية عبر نصف قرن	٧٢
أساتذة الكلية في المحيط العالي	٧٣
طلاب الكلية من عهد الى عهد	٧٤
مشكلة النحو والصرف وتهديد الطالب	٧٨

الموضوع الصفحة

- ٨٠ . . . « المودات » والمساحيق للطلاب والطالبات
٨٣ . . . مع الكلية بين الماضي والحاضر

مع الشعر

- ٨٧ . . . الادب والشعر
٨٨ . . . طريف حول الشعر
٩١ . . . لمحات من شعر ضاع

فمساذج من الشعر :

- ٩٦ . . . اليةها ٩٤ الزجرة النبوية الشريفة
١٠٠ . . . حب صامت ٩٨ . . . وقفة وداع
١٠٢ . . . هند ١٠١ . . . وسدر الالبام
١٠٦ . . . لقاء ١٠٤ . . . بالحب
١١٠ . . . صراع ١٠٨ . . . ايلة
١١٥ . . . لخواطر ١١١ . . . حبة
١١٨ . . . نشيد الجلاء ١١٧ الشرق بين الماضي والحاضر
١١٩ . . . السلافة

البحث العلمية لأوربا

والعمل بالجامعة بعد العودة من البعثة

- ١٢٣ وقفة
١٢٣ التدر وبسنة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
١٢٤ طية الاداب وبعثة التاريخ الاسلامى
١٢٦ مسوبات بأوربا وتذليلها
١٢٦ بين لندن ونكردج
١٢٧ خولة عمل دلوية المدى
١٣٠ تنكالات ما بعد العودة لمصر

مع ثورة ٢٣ يوليو

- ١٣٥ وقفة
١٣٥ الحكم بمصر قبل الثورة
١٣٧ ثورة او تسلط

الموضوع ————— الصفحة

١٣٩	• • • • •	صرخة ضد حكم الجيش
١٤٠	• • • • •	كلمة عن الاخوان المسلمين
١٤١	• • • • •	قرار مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة
١٤٣	• • • • •	جهاد من اجل لقمة العيش
١٤٤	• • • • •	الشيوعية تحاول اجتذابى
١٤٥	• • • • •	معروف لاينسى
١٤٨	• • • • •	العمل بالصحافة
١٤٨	• • • • •	العمل بالمؤتمر الاسلامى وظروفه وتجاربه

في اندونيسيا

١٥٥	• • • • •	مطلع العلاقة باندونيسيا
١٥٥	• • • • •	السجان يطلق السجين خطأ
١٥٧	• • • • •	مسقط الرأس
١٥٩	• • • • •	الاعارة لاندونيسيا والرحلة لها
١٥٩	• • • • •	الايام الاولى بالعاصمة السياسية (جاكرتا)
١٦٠	• • • • •	لمحة عن جمال اندونيسيا
١٦٤	• • • • •	في العاصمة الفكرية (جوكرتا)
١٦٧	• • • • •	اللغة الاندونيسية
١٧٠	• • • • •	٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥ : دراسة مقارنة
١٧١	• • • • •	في محيط الجامعات
١٧٤	• • • • •	في محيط الجماهير
١٧٧	• • • • •	العرب في اندونيسيا
١٧٩	• • • • •	الاعتداء الثلاثى على مصر
١٨٠	• • • • •	العودة للعمل فى الحكومة
١٨١	• • • • •	الديبلوماسية والسلوك السياسى المصرى
١٨٧	• • • • •	سوكارنو وحتى
١٨٧	• • • • •	الى اندونيسيا مرة اخرى
١٨٨	• • • • •	نحن والشرق الاقصى
١٨٩	• • • • •	الفرق بين الداعية والمدرس
١٩٣	• • • • •	خطبة جمعة فى تايلاند
١٩٥	• • • • •	كوريا وانتشار الاسلام

الموضوع ————— الصفحة

١٩٦ الفيلبيين والخطر على الاقليات الاسلامية بالشرق الاقصى

٢٠٠ تقارير من اندونيسيا عنى

فى ادارة الوافدين والمبعوثين

٢٠٧ مصر والروتين

٢٠٩ ضرورة اختيار الوافدين

العودة للجامعة

٢١٣ العودة او اللاعودة

٢١٧ الجامعة والمجتمع

٢٢٢ الرشوة .. وفى الجامعة

٢٢٨ مشكلة الكتب الجامعية من زوايا لا يعرفها الناس

٢٣٣ اللجان الدائمة للترقية

٢٣٧ اقتراحات لحل مشكلة الكتب الجامعى

٢٤٠ استاذ الجامعة وشكواه المالية

٢٤٧ الدراسات العليا بالجامعة

فى السودان

٢٥٣ الروابط بين مصر والسودان

٢٥٧ الاستعمار والتبشير

٢٥٩ الدول العربية ونكسة ١٩٦٧

٢٦١ قضية الاعارة للخارج

٢٦٥ موقف مصر من الدول العربية

لمسات عامة

٢٧٠ زوجة الكاتب

٢٧٧ اولادى

٢٧٨ صورة شبابى

٢٧٩ وغرة الانتاج العلمى وتفسيره

٢٨٣ الترشيح لمجلس الشعب

٢٨٤	• • • • •	ذكاء الناخب بالريف وتكريم العلم
٢٨٦	• • • • •	كيف نتعرف على المرشحين بالمدن ؟
٢٨٨	• • • • •	طلاب الجامعات من ريفنا وحياتهم في بيتنا
٢٩٠	• • • • •	الديمقراطية والشواطيء
٢٩٣	• • • • •	نحن واسرائيل
٢٩٦	• • • • •	مصر والاستيراد
٢٩٧	• • • • •	استيراد الأشخاص ولغير ضرورة
٢٩٨	• • • • •	العرب الآن وعرب الأندلس
٢٩٩	• • • • •	قدر العرب واحد ومن الجهل ان نتناسى ذلك
٣٠٢	• • • • •	اقتراح عملي لمشاركة العرب في المعركة
٣٠٢	• • • • •	اسلحة اقوى من الفانتوم
٣٠٣	• • • • •	اعداء احمر يتظاهرون بالود لها

٣٠٥	• • • • •	مراكز الفكر الاسلامي بهمس ينبغى ان تعيد النظر في جهودها
٣٠٦	• • • • •	الازهر وما يرجى منه
٣٠٧	• • • • •	كلية دار العلوم بين اللغويات والعلوم الاسلامية
٣٠٧	• • • • •	معهد الدراسات الاسلامية
٣٠٨	• • • • •	معهد الامامة محاولة طيبة
٣١٠	• • • • •	المجلس الاعلى للتشئون الاسلامية
٣١٤	• • • • •	المجلس وموسوعة جمال عبد الناصر للفقهاء الاسلامى
٣٢٣	• • • • •	جمعية « الشبان المسلمين »
٣٢٤	• • • • •	الجمعية الشرعية

٣٢٩ — ٣٣٣	• • • • •	ثلاثون عاما مع ثورة يوليو
-----------	-----------	---------------------------

٣٣٤	• • • • •	وماذا بعد ؟
-----	-----------	-------------

مقدمة

أدركت منذ كنت طالبا بجامعة كمبردج وحين كنت أستاذا بجامعة
اندونيسيا فراغا ضخما في بعض أركان المكتبة العربية والاسلامية :

فلم يكن بالمكتبة العربية على الاطلاق دراسة في مقارنة الأديان ، وكأن
الأقلام بعد الشهرستانى وابن حزم ... قد توقفت عن الخوض في هذا
الميدان •

وكان هناك تعبير « الحضارة الاسلامية » ولكن دون مدلول واضح ،
وكان هذا التعبير يتجه لتصوير حضارة المسلمين بالأندلس من عمارة ونهضة
علمية ويقنع تقريبا عند هذا الحد •

ولم يكن التاريخ الاسلامى متكاملا في المكتبة العربية ، فقد اتجه
المؤرخون المحدثون الى التعمق في نقاط معينة وتركوا الكثير دون ايضاح
وتدوين •

ولظروف خاصة ، شرحتُها في مكانها في هذا الكتاب وفي سواه ،
الترمتُ بكتابة هذا المنهاج الطويل المصنى ، وكان ضمن ما كتبت كتابى
« المجتمع الاسلامى : أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته »
وفي أحد فصول هذا الكتاب تحدثتُ عن « دراستى في الأزهر » واستلزم
هذا الحديثُ أن أسرد فكرة عن بعض ظروف حياتى ، ولم يكن الحديث
عن حياتى مقصودا لذاته ، وإنما جاء عرضا وأنا أدرس فترة عاصرتها
في الأزهر •

وصدر بعد ذلك كتاب « مفكرون وأدباء من خلال آثارهم » للباحث
الفاضل الأستاذ أنور الجندى ، وقد تفضل فكتب عنيَّ ضمن من كتب عنهم ،
واعتمد في جلِّ ما كتب على ما سجلته عن نفسى بكتابى السابق ، وهناك
مقالات اتخذتني موضوع حديثها ، واذاعاتُ أَلَمْتُ بخطواتٍ من تاريخ
حياتى ، واتخذتُ هذه كلُّها حديثى السابق أساسا لما ذكَّرتُه عني •

وقد أدركت لذلك ضرورة أن أدوّن مزيدا من التفصيل عن حياتى ،
فمن يدري ؟ قد يحتاجها باحثون آخرون فى مستقبل الأيام كما احتاج
الباحثون المعاصرون الى ما دونته فى كتابى « المجتمع الاسلامى » •

وكان ذلك أساسا للتفكير فى وضع هذا الكتاب •

ثم تطورت الفكرة ونمت فاذا بالموضوع يصبح أكثر خطورة وأكثر
استقلالا ، فلم يعد الهدف منه أن أقدم شذرات يستفيد بها من قد يحاول
الكتابة عنى ، وإنما أصبح الهدف تقديم زاد علمى فى موضوعات مختلفة ،
ووصفا لتجارب ومشاهد ذات أهداف مهمة تحمل فى أعطافها اتجاهات
حضارية ، وبحوثا متناثرة ذات بال • ثم ان كثير من المفكرين عنوا بتدوين
سيرتهم الذاتية ، وتصوير حياتهم ونجد فيما دونوه متعة واسعة وغائدة
جمة ، فالحياة الخاصة تنعكس على الانتاج وعلى الحياة العامة •

ومما قوى عزمى على السير فى هذا العمل أن هناك اتجاها يميل
للدراسات الخفيفة المتنوعة ، ويراه كالبستان اذا كثرت زهوره وتعددت
أنواع الثمار فيه ، لأن هذا يتيح للانسان أن ينتقل من لون الى لون ومن طعم
الى طعم ، وهذا الكتاب من هذا النوع •

وساعدنى على تنفيذ هذا الاتجاه أن حياتى لم تسر كما تسير حياة
معظم الناس رتيبة سهلة ، وإنما كانت حياتى حافلة بالنجاح والمزالق ،
عرّفت القمم والأغوار ، وذاقت الرخاء وعانت الجوع أو التهديد به ،
فقدمت بذلك مادة وغيرة يجد فيها القارئ سلوى وعزاء لما يصادف من
أحداث ، وكيف بحياة يصبح الانسان فيها أستاذا قبل أن يصبح أستاذا
مساعدا ، ويخطو برغبته وهو فى قمة النجاح من أستاذ الى مدرس ، وكيف
برجل يدخل وظيفة مدرس بالجامعة وهو فى الدرجة السادسة ، ثم يعود

فيدخلها نفسها وهو في الدرجة الثانية وعلى وشك أن ينال الأولى . وهكذا مفارقات مختلفة الأنواع تحكى كل منها قصة ذات معنى .

وكيف برجل عاش في الأزهر وأخلص للحياة فيه ، وللطلاب في الأزهر وبخاصة في جيلنا حياة أهم ما تمتاز به التثقف والخشونة والانغلاق ، ثم بعد فترة ليست بالطويلة رأى نفسه طالبا بجامعة من أعرق جامعات الدنيا سمى جامعة كمبردج ، وحاول ان يعيش مع الأمراء وأحفاد المجد بها كواحد منهم او ليس بعيدا عنهم ، وعقب حصوله على الدكتوراه بفترة ليست طويـله رأى نفسه بين الدبلوماسيين بالخارج يشغل منصبا مرموقا له كثير من المزايا المادية والأدبية ، ولحن الأهم من ذلك هو أن هذا المنصب وضعه بين الدبلوماسيين العرب والأجانب ، وللدبلوماسيين العرب قصة حافلة بالعجائب لست اعتقد أن الظروف ستسمح لى برواية كل ما أعرفه عنها ، وانثنى على دل حال استطيع أن أشير الى الأحداث ولون الحياة التى يحيها هؤلاء ، لعل في هذا بعض العظة والتذكير .

ولمحات في السياسة الداخلية والخارجية ، ونظرات الى الدواوين والروتين والأخلاق ، بعضها رأيته أنا ورأيت فيه جوانب تدعو للعجب فرويته في هذا الكتاب ، وبعضها يراه الناس معى وكل دورى فيه أن أدوّننه وأعلق عليه مما يجعل هذا الكتاب في كثير من الأحوال تعبيراً عما يجول بنفوس الناس .

* * *

ولهذا العمل ملامح ينبغى أن أوضحها ونحن على عتبة الدخول فيه :

أولا : في رحلة حياتى لن أذكر الأشياء الشخصية التى لا تهم القارىء ، فقد أخذتُ نفسى أن أقدم للقارىء أحداثا لها أهداف ، أقدم تجاربى ومشاهداتى مع التعليق أحيانا ، وبدونه اذا كان الحدث لا يحتاج الى تعليق ، وكل ما أطمع فيه أن يدرك كل انسان أن عيوننا ترقبه وتدوّن تصرفاته من حيث لا يدري ، فيرى الله ويخشى أسنة الأقلام .

ثانيا : لن أكتب أسماء الذين باشروا الأحداث الا قليلا ، وسادعهم يقرعون عن أنفسهم ، ويقرأ عنهم الناس ، ويخفى أن يرى الانسان نفسه فيخجل ان كان في تصرفه ما يدعو للخجل ، على أن المربين يرون ان الكتابة عن ظالم دون ذكر اسمه تخيف كل الظالمين ، وكذلك الكتابة عن المرتسبين والمنافقين ... ولهذا فقد تركت الأسماء غالبا حتى لا يكون في هذا الكتاب أى محاولة للتشهير ، وحتى يكون أوسع دائرة وأعظم اثرا •

ثالثا : ترتبط هذه الأحداث مع « رحلة الحياة » التى هى أساس العمل . فكل مرحلة من مراحل هذه الحياة مشاهدتها وتجاربها ولكن مع ملاحظة أننى عندما أمسك الخيط وأطرق قضية من القضايا أدخل معها حتى أستكمل دراستها ، وذلك مثل حديثى عن الأزهر الذى ارتبطت به فى مطلع حياتى . فقد ظلت أدرس مشكلات الأزهر كما أراها حتى الآن ، فتخطيت بها حدود الزمن وقدّمته كاملة •

رابعا : ليس كل ما يعرف يقال ، ولو تعرض انسان فى مثل ظروفنا ليقول كل ما يعرف لكان صعبا أن تبرى كلماته النور ، ومع هذا ففيما نذكر بعض الغناء ان لم يكن كل الغناء •

خامسا : اننى أدرك أن الحديث عن النفس غير مستطاب ، ولكن طبيعة العمل الذى نقوم به هنا يستلزم الحديث عن النفس من حين لآخر ، وبعض ما يبدو على أنه مفاخر هو فى الواقع حقائق لا يمكن تجاهلها لتأثيرها فى مجرى رحلة الحياة ، فأرجو ألا ينسى القارئ ذلك حتى يغفر لى ما يخلنه حديثا عن النفس •

وفى ختام هذه المقدمة أدعو الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وهو نعم المجيب •

دكتور أحمد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الثالثة

كان اقبال القراء على هذا الكتاب عظيما ومشجعا ، ولم يكتف كثير من القراء بالقراءة ، بل كتبوا الى " يعلقون على أحداثه ، أو يطلبون مزيدا من التفصيل عن بعضها ، وبعض الجمعيات الاسلامية التى لم يرد ذكرها فى الطبعة الأولى كتبت لى عاتبة لأنى لم أضعها بين مراكز الفكر الاسلامى التى كتبت عنها ...

وقد نفذت الطبعة الأولى والثانية منه منذ مدة ولم أقدمه للطبعة الثالثة عقب نفاذ الثانية مباشرة ، بل انتظرت فرصة لأعيد النظر فيه رجاء أن أحقق بعض ما طلبه القراء أو كله .

ويسرنى اليوم أن أقدم هذه الطبعة بعد أن أضفت لها الكثير وأرجو أن تكون أوفى وأشمل ... وبالله التوفيق ،،،

المؤلف

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٢

مطلع الحياة

قرية عليم :

برزت للحياة في قرية صغيرة اسمها « عليم » بين مدينتي (أبو حماد) والزقازيق بمحافظة الشرقية ، وهي أقرب الى (أبو حماد) ، ولعل أحداً لم يحاول أن يتعرف على أساس هذه التسمية ، وهل هي اشتقاق من العلم أو لها به صلة ؟ لست أدري •

والذي يرى هذا الاسم « عليم » سيقروء بفتح العين ، ولكن النطق الشائع هو بكسر العين ولعله تحريف للاسم الصحيح ، وعلى كل حال فإن ربط اسم هذه البلدة بالعلم شيء لا يعززه التاريخ ، فقد كنت أول الأفواج التي خرجت من هذه القرية تطلب العلم وتسعى لتحصيله •

وكان طلب العلم في مطلع هذا القرن قليل الانتشار ، ومع هذا فإن المنطقة المحيطة بنا عرفت العلم وأقبلت عليه ، ففى القرى المجاورة لنا تسكن أسر عرفت المدن والغنى والعلم منذ أنشئت المدارس ، ولكن هذا الاتجاه لم يدق باب قريتنا الفقيرة ، وقنعت بأن ترسل قلة قليلة من أبنائها « ليجاوروا » فى الأزهر أو مساجد القاهرة مدة عام أو عامين للتعرف على شيء من الفقه الاسلامى ، ثم يعودون للقرية بعد أن يحمل كل منهم لقب « شيخ » كفاء طلبه العلم هذه الفترة بالأزهر أو ملحقاته •

وقريتنا مع فقرها طيبة هادئة مسالمة تتوزع الثروات فيها بشكل أقرب الى المساواة فلا يوجد غنى متخم ولا فقير مدقع ، فالثروات الواسعة والنفوذ العريق الذى تتمتع به بعض الأسر المجاورة لا وجود له فى قريتنا ، ومع اختفاء هذا الغنى اختفى الصراع والتنافس والحقد ، وحل بقريتنا خلق التعاون والود غالباً ، والقرية تمثل أسرة كبيرة ، فالقراية والمصاهرة تربط الجميع ، ولا يكاد يوجد فرد لا يمت للآخرين بصلة من صلات النسب أو القربى •

كلمة عن الأسرة والنسب :

في هذه القرية وُلِدَتْ في العقد الثاني من هذا القرن (العشرين) ، ولكن صلة أجدادي بها غير معروفة التاريخ . فمتى انحدرنا الى هذه المنطقة ؟ لا ندري ، وهناك أقوال أشبه عندى بالأساطير سمعتها من السابقين ، بعضها يرى أن الأسرة تنسب الى حاكم تركي أرسلته الخلافة العثمانية لحكم تونس ، فلما انتهت مدة حكمه تراجع الى مصر واتخذها وطناً له ، وانساب أولاده في عدة نواح بها ^(١) ، وكان أحد أعمامى المعمرين يؤكد أن الأسرة عربية تنحدر من ذرية سيدنا أبى بكر ، وفدت الى مصر في عهد الامام على الذى جعل ولاية مصر لمحمد بن أبى بكر . وعندما واجهت عمى بالرأى الأول قال أن فروعا من الأسرة انتقلوا الى تركيا من مصر عقب دخول الأتراك مصر ، وأوفد منهم بعد ذلك هذا الحاكم الى تونس ، ولا يزال بعض فروع الأسرة في تركيا حتى الان ، وهو بهذا يوفق بين الرأيين .

هل هذه أساطير ؟ هل هذه حقائق ؟ لا أستطيع أن أجزم برأى .

واذا كانت هذه الأخبار قد غطى عليها ضباب التاريخ فأوشك أن يحجب عنها الحقيقة فانه ليس من المهم أن نكتثر بها ، فخير للانسان أن يتطلع لحاضره ومستقبله من أن يتسلق نحو الماضى .

على أن هناك أخباراً عن أجدادنا هي سليمة أو الى السلامة أقرب ، فيروى أنه كان للأسرة نوع من الثراء ومساحات واسعة من الأرض ، فجاءت

(١) يذكر زامباور في كتابه « معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى » ان من دايات تونس حاكما اسمه أحمد جلبى (١٠٩٣ — ١٠٩٧ هـ) ولقد سمعت عن محاولات لربط اسرتنا به ، ولكن ليس لدى ما يؤكد ذلك ، وان كان لا يوجد ما ينفيه .

« السلطة » إبان حفر قناة السويس وفي مطلع الاحتلال المبريطاني ، وكان على أصحاب الأتبان أن يقدموا أفراداً منهم ليرخدموا دون أجر فيما يسمى « السخرة » لحراسة الطرق والجسور ، وتخلصا من ذلك استأجر أجدادنا بعض الناس وأطلقوا عليهم اسم الأسرة « شلبي أو جلبى » ليكونوا ممثلين لها أو نائبين عنها فى القيام بهذه السخرة ، ومر الزمن وأصبح هؤلاء معدودين من الأسرة فعلا ، وضاق أجدادنا بمطالب « السلطة » فتركوا أرضهم وتشعبت اتجاهاتهم ، وكان ذلك سبب وجود فروع من الأسرة فى عدة نواح .

وانتهت الأسرة بعد ذلك الى التجارة ، وقد أحرزت الأسرة عن طريق التجارة مالا وغيروا جداً رآه أجدادنا الأقربون وذكروا لنا أن هذه الأموال كانت لكثرتها تقسم لا بالعد بل بالكيل ، وكان الطربوش التركى يستعمل فى كيل الذهب عند قسمته .

واذا كنا قد سمعنا عن هذا الذهب فاننا لم نر آثاره اللهم الا بعض مظاهر البذخ التى شهدناها والتى يمكن أن تكون كفيلا بضياى ثروات يؤخذ منها ولا يضاف لها ، فان التجارة كسدت رويدا رويدا ففتلاشى ما كان أو كاد .

أبى :

وكان أبى أرشد أبناء أبية ، وقد عمل فى تجارة مستقلة عن تجارة الأسرة ، وحقق نجاحاً وغيروا ، واستطاع أن يشتري أرضا زراعية مساحتها ١٨ فداناً مع تجارته التى كانت تتسع وتتوسع ، فتشمل القطن والقماش والحبوب وأنواع البقالة ، وبأشر أبى الاشراف على زراعة أطيانه واستلزم هذا شراء مجموعة من المواشى وأدوات الزراعة ، ونجحت تجارته وزراعته الى حد كبير .

ثم مات أبى فى فترة شبابه وأنا طفل فى الرابعة من عمرى ، فحُصفت^١ التجارة وانكسرت ولم يبق منها الا بصيحص كان ينتظرنى لأواصل العمل الذى بدأه أبى ، ولكن الظروف اتجهت بى اتجاهات أخرى كما سنرى فيما بعد

لقد ترك أبى لى ثروة عشت فى رحابها بشىء من الكفاية ، ولكنه ترك لى شيئاً أهم وأعظم من الثروة ، هو الذكر الطيب ، فقد اتسع صدر أبى الى كثيرين من معاصريه فدفعهم للعمل تحت اشرافه ، وساعدهم بماله ومكانته ، وكسب هؤلاء عن هذا الطريق وسائل حياتهم ، وقد رأيت كثيرين من هؤلاء وسمعتهم يتغنّون بالثناء والشكران له ولأيديه ، وقبيل وفاة أبى راح يوزع ثروته بشكل يدعو للاعجاب حقاً ، فقد منح أباه وأخاه وأخته حوالى ثلث أطيانه أو ربعها وترك لى ولأخواتى الباقي ، والحق أنه من النادر أن يُعنىَ انسان بإخوته مع وجود أبناء له ، ولكنى أرى ذلك نوعاً من البر أحاول دائماً أن أحذو حذوه *

التجارة وهل تورث ؟ :

ولنعد لتجارة أبى وللتجارة على العموم لنحدث عنها قليلاً ، وننتسأل : هل تورث البراعة فى التجارة ؟ اعتقادى أن التجارة صنعة ككل الصناعات وخبرة ككل الخبرات ، فلا أستطيع أن أكون حداداً أو نجاراً أو معلماً اذا لم أَعِدْ لهذا العمل ، وبعض الناس يجهلون هذه الحقيقة ، ويرون التجارة بيعاً وشراء ويتناسون ما بها من حس وذوق وفن وصناعة ، فتفشل تجارتهم دون ابطاء ، وأمامى صور كثيرة لتجار ماتوا وتركوا تجارات واسعة ولكنهم لم يتركوا أهراً مؤهلين للاستمرار فى ادارة هذه التجارة ، وكانت النتيجة أن ضاعت هذه التجارة دون أن يَعْرِفَ مصيرها ، وخير لورثة التاجر الذى يموت دون أن يكون له وريث يجيد التجارة أن تصفى تجارتها فى الحال ، وأن تصبح مالا أو أرضاً زراعية ، الا ضاعت هذه التجارة يوماً بعد يوم حتى تفنى دون أن يَعْرِفَ مصيرها *

ولقد كانت تجارة أبى من هذا النوع ، كانت واسعة جدا ، رأيت من آثارها الخزائن الحديدية والحوانيت الواسعة ووسائل الكيل والوزن والقياس ، أما التجارة نفسها فقد أخذت تنكمش ، واتجهت الأسرة للحفاظ على هذه التجارة حتى أشب فأتسلمها ، ولكنى عندما نفضت الطوق تطلعت الى ميدان آخر غير التجارة ونفذت تطلعاتى ، وكان ذلك ايذانا بتوقف المحاولة ، وكانت التجارة نفسها قد انكمشت وضمّرت ، ثم زالت نهائيا دون أن نعرف لرأس المال أى مصير . ولولا أن أبى كان قد اقتطع من ثروته بعض المال القليل نسبيا ، واشترى به تلك الأرض الزراعية لكان مصيرنا مؤلما مريرا .

وبعد هذه الالمامة عن الأسرة ، تلك الالمامة التى امتدت من الأساطير الى الواقع الملموس ، بعد هذا نصل الى كاتب هذه السطور وهو يصارع الحياة فى العقد الأول والثانى من حياته :

طفولة الكاتب :

لقد سرتُ فى العقد الأول فى المجال الذى سار فيه أطفال القرية ، التحقتُ بالكتاب ، وحفظت القرآن الكريم ، وعرفت تجويده ، وعرفت شيئا من الكتابة وشيئا من الحساب ، وكانت الميول تتجه بى كما أشرت آنفا لاعدادى لأبشر التجارة التى خلفها أبى ، ولم تكن لى رغبة أعبر عنها قبولا أو رفضا ، فلما بدأ العقد الثانى من عمرى رأيت بعض « الأفندية » فى القرى المجاورة الذين كانوا قد التحقوا بمدارس الزقازيق وعادوا بعد ثلاث سنوات مدرسين بالمدارس الأولية ، وكان هؤلاء أملا لى ومثلا أعلى ، فبدأتُ أتطلع لمثل هذه المكانة ، وقررت أن أنصرف تماما عن الاتجاهات التى كانت تدفعنى لأزاول التجارة ، وساعدنى على ذلك أن الأيدى التى أسندَ لها أن تسيّر زورق التجارة لم تنجح فى تسيير هذا الزورق ، فأخذ يهبط نحو القاع ، واتجهتُ بكل جهدى نحو التعليم .

ولكنّ مشكلات جمة اعترضت طريقى نحو العلم ، فأنا الابن الوحيد لأبى ، وقد وجدت أمى وأخواتى أن من المستحيل أن أغترب إلى الزقازيق ، فإن ذلك يعرّضنى لأخطار الغربة كما كانوا يتصورونها ، ولم يكن فى قريتى من يستطيع أن يأخذ بيدى لأخطو نحو معاهد التعليم ، ومن هنا حملتُ العبء كله ، وكان يبدو لى ثقيلًا ولكن لذيذاً ، فقد ذهبت أتحسس الطريق لمعاهد العلم وأتساءل عن الأوراق اللازمة ، وأقدم طلباً لشهادة ميلاد ، وأحصل على استمارة التحاق ، وأبحث عن يملأ لى هذه الاستمارة ، وأضل الطريق فى الزقازيق وأنا متجه نحو هذا المكان أو ذاك .

وكان الله معى فى هذه المرحلة القاسية التى تحدّد فيها خطّ حياتى ، فقد كانت مدارس المعلمين هى كل أمنيّتى أو هى الهدف الوحيد أمامى ، فطرقت بابها ، ودخلت امتحان القبول ، ولكن بضاعتى لهذا الامتحان كانت قليلة ، واستعدادى له كان معدوماً ، وأنسى لى أن أعرف المواد التى سيؤدّى فيها الامتحان ، أو الكتب التى ينبغى أن أقرأها لذلك ؟ ومن أجل هذا لم يكن من الممكن أن أنجح فى هذا الامتحان ، ولم يبق أمامى الا باب واحد سمعت الطلاب الذين دخلوا الامتحان معى يتهامون به ، هو معهد الزقازيق ، فاتجهت له على مضض ، لأنه طريق طويل ، ولأن المتخرجين منه آنذاك كانوا — بعد دراسة خمسة عشر عاماً — يتقاضون نفس المرتب الذى يتقاضاه خريج المعلمين الأولية الذى يمضى فى دراسته ثلاث سنوات فقط ، ولم يكن الا المسال مقياساً للتفكير ، أما العلم والفكر فكانا أبعد ما يكون عن مستوى تفكيرنا ، ولندع الأزهر الآن فلنا معه حديث طويل فيما بعد ، ولنواصل التعرف على أحداث قريتنا وما سجلته الذاكرة من هذه الأحداث :

من نفوذ الأغنياء بالريف :

قلت فيما سبق ان حياتنا الاقتصادية ارتبطت بالأطيان التى خلّفها لنا أبى ، ولكن هذا المورد هددته القوة الغاشمة ، وأنا فى مطلع الصبا ،

س ط ف

فهذه الأرض الزراعية ومساحتها بالضبط ١٧ ٥ ١٢ كانت تحيط بها من كل جانب أطيان واسعة يملكها اقطاعى اسمه حنا ميرهم ، وهو شقيق رجل سياسى شهير اسمه الاستاذ عزيز ميرهم ، وكان حنا بك هو الذى يدير هذه الأطيان ، ولم يكن متزوجاً وبالتالى ليس له أولاد ، ومع هذا فقد وهب المالَ جهده ، واستحوذ المَالُ على نشاطه وعقله ، ورأى حنا بك أن أرضنا عقبة فى وسط عزبته الفسيحة ، وتتوءأ ينبغي أن يزول ، وقد أوسعنا الرجلُ ايذاء وعدوانا ، ولم يكن لنا أن نشكو ، فان نفوذ الرجل كان ممتدا الى أقسام البوليس والى كل باب يمكن أن نطرقه ، ولم نجد وسيلة للتخلص منه الا بالخضوع لرغبته واجراء بدل معه ، نترك له أرضنا ونأخذ أرضاً بدلا منها فى مكان آخر ، وتمَّ للرجل ما أراد ، فأزيلت معالم أرضنا ، وابتلعتها مساحته ، وقَبَعْنَا فى الأرض التى أُعْطِينَاها ، ولم تكن هذه الأرض جيدة بل كانت رديئة التربة ، لا تُقاس من قريب أو من بعيد بأرضنا التى تركناها . وانخفض مستوى معيشتنا الى حد كبير ، ولكن نفقاتنا كانت محدودة فاستطعنا أن نعيش على أى حال . ولم يسمع الرجل لتوسلاتنا ولا لوساطة الآخرين ليعيد لنا أرضنا ، وأذكر أن أحد أعيان البلاد المجاورة هددته بالمستقبل ، وذكر له مكانة أبى وكيف كان مهيب الجانب ، وأن الابن الصبى سيصبح رجلا مكان أبيه ، ومن الأجدر ألا ننتظر هذا المستقبل ، لأن هذا المستقبل سيحمل فى طياته صراعاً لن يكون حنا بك منتصراً فيه لظلمه . ولكن حنا بك ابتسم ساخراً لهذا التهديد .

ومر الزمن ، وجاء دور شبابى وأخذت أطوى العقد الثانى من العمر ، والتحقّت بكلية دار العلوم وكنت أستمع بشخصية قوية وصحة جيدة ، وأخذت من العلم قدرا لا بأس به ، كما كان لى نشاط فى المجال السياسى ، وكنت وفدىّ النزعة والنشاط ، وعرفت فى هذا المجال السياسى مكانة الاستاذ عزيز ميرهم فى صفوف الوفد ، وتقدمت بكل هذه الطاقات اليه والى حنا ميرهم أطلب الغاء هذا البديل الجائر ، وهددت باثارة المسألة على مستوى عال يصل لزعماء الوفد ، وهددت بوسائل أخرى قانونية ، وكان (م ٣ — رحلة حياة)

عزيز ميرهم مهذباً يخاف على سمعته ، وكان حنا ميرهم ذكياً فوجد من الأوغق ألا ينزل هذا الصراع فوافق سنة ١٩٤٠ على الغاء هذا البذل ، وعدنا من جديد الى أرضنا الطيبة .

وفي مجموعة القرى التي نعيش بها ظهر نوع آخر من الطغيان كان مرير النتائج ، فلقد كان للأسر الكبيرة المحيطة بنا « محاسيب » بالقرى الصغيرة ، وكانت الأسر الكبيرة تؤيد هؤلاء المحاسيب ان عدلوا أو جاروا ، وقد ترتب على ذلك أن ظلّم أناس ، فهبوا يدافعون عن أنفسهم ، فقتلوا وموا بقسوة فقتلوا حاقدين يضربون باليمين وبالشمال ، وتعاضمت الأحداث ، ولست أحب أن أسجل في هذا المجال شيئاً ، فقط أرجو أن يتذرع الناس بالعدل ، فكل ظلم مآله الزوال والدمار ، ولا يحق للقوى أن يخلق لنفسه عداوات ، ولا للعظماء أن يدفعوا الناس الى الاجرام والخطايا .

القرية المصرية وضرورة اعادة تخطيطها :

وقبل أن ندع قريتنا الصغيرة الى الزقازيق نقرر آسفين أن الزمن مر ، وأوشكنا أن نطوى القرن العشرين ، ولكن قريتنا ككل القرى المصرية ترداد تخلفاً وسوءاً ، لقد دخلت المياه النقية قريتنا كأكثر القرى استمراراً لمشروعات بدأت قبيل نهاية النصف الأول لهذا القرن ، وأوشك النور أن يدخل قريتنا وبعض القرى المجاورة ، ولكن هذا وذاك طلاء ضئيل ، أما القرية نفسها بشوارعها الضيقة القذرة ، كثيرة الالتواء ، وأما المنازل الخائفة قليلة النظام ، وأما المصاطب التي تعترض السيارات والمشاة ، وأما أكوام السباح والقاذورات التي تملأ الشوارع وتقف عملاقة في مداخل كل قرية تستقبل الوافدين والخارجين بروائحها الكريهة ومناظرها الاليمة ، وأما البرك والمستنقعات التي يربى فيها الناموس والديدان والذباب فقد زادت اتساعاً وعمقاً ، وكل هذا وسواه يطالعك في القرية

المصرية لا على النحو الذى شاهده في العشرينات بل على أسوأ وأسوأ مما كان .

ولو عمل تخطيط لاعادة بناء القرية المصرية ، وكان هذا التخطيط بطيئا طويل المدى ، ولو خمسين قرية في العام لأصبح أكثر قرى مصر جيدة التخطيط جيدة البناء ، ولكن المشكلة أن القرية مهمة تماما ولا يفكر فيها أحد ، تركت نائمة مع مر العصور وتقدم الفكر ، ويحس الانسان بحسرة وأسف عندما يقارن قرانا بقرى اسرائيل التي تصفها الشعارات بأنها « اسرائيل المزعومة » ولم تفعل ثورة الجيش شيئا على الاطلاق للقرية المصرية للأسف ، وتركتها كما تركت المدن تعيش في ظلام العصور الوسطى .

وانتشر التعليم في قريتنا كما انتشر في أكثر القرى ، وقامت على أثر ذلك بالقرى منازل نظيفة بل « غيلات » فخمة أحيانا ، ولكن هذا قليل تراه متناثرا هنا وهناك ، أما المجموع فلا يزال يرزح تحت أعباء السنين ، وقد يبنى المتعلم بيتا فخما ، ولكن سرعان ما يحس أنه غريب في القرية لأن طريقه الى هذا البيت صعب مدمر ، ولأن المناظر الكريهة تحيط بمنزله من كل جانب ، فلا يلبث أن يدع البيت والقرية الى غير رجعة .

لقد أهملت الدولة القرية تماما ، وأهملت المحافظات القرية كذلك ، ونحن نعتب على المسؤولين هنا وهناك ونذكرهم بذلك ، ولكن أهل القرية أيضا يتجه لهم بغض العتب ، فطالما تعاونوا لبناء مسجد واعداد أضرحة ، فهل يظنون أن هذا هو الاسلام فحسب ؟ لا . ان عمارة الدنيا من أهم ما دعا اليه الفكر الاسلامي واقتضته الحياة الكريمة التي يجب أن يستمتع بها المسلمون ، ولهذا يتحتم على أهل القرية أن يتعاونوا لتنظيمها وتحسينها وتذليل الطريق اليها .

وقد زرت قريتنا مرة وكنت أنوى أن أقضى بين أهلى ورفاق صباى أسبوعا أو أسبوعين ، ولكن الليلة الأولى كانت مريرة فانتظرت الصباح

بصبر أو شك أن ينفذ ، وفي مطلع الصباح شددت الرحال عائدا الى القاهرة ، لماذا ؟ لقد كان الناموس يمثل جيشا من الأعداء هاجمنا بقسوة ، فلم نستطع أن نجلس أو أن ننام ، ولم يجد معه أى دواء ولم تنتج الكله « الناموسية » فى حمايتنا ، فودعنا البلدة آسفين ، وبعد أسبوعين اتصل بى أهلى بالقرية ودعونى لزيارتها وأكدوا أن الناموس قد اختفى تماما ، وأسرت هكبيت الرغبة ، ووجد الناموس قد اختفى فعلا ، فتساءلت عن السبب فقل لى : ان وزارة الزراعة قامت بعملية رش للقطن فأهلك الدواء الناموس ، وهكذا كانت عناية الدولة بسلامة القطن أكثر ألف مرة من عنايتها بسلامة البشر والمواطنين الذين ينتجون هذا القطن وسواه .

دعوة حارة فيها كثير من الطموح ولكنه طموح ضرورى ، هو أن نعيد بناء القرية المصرية ونعيد تنظيمها ، وأن تشترك الجهود الحكومية وجهود المحافظات وجهود الأفراد فى ذلك ، كل بقدر طاقته العلمية والمالية والجسدية .

وكلمة ختامية أرجو أن تبعث الغيرة فى نفوس المصريين ، هى أن القرية فى السودان أجمل جداً من القرية المصرية وأدق تنظيماً ، وهى كذلك شديدة النظافة ، أما إسرائيل عدوتنا اللدود فقد أعادت بناء القرى والمدن فى أكثر فلسطين ، فلنتجه لهذا الهدف ، وليس شئ بصعب على من يحاول العمل بجِد وإصرار .

* * *

والآن هيا بنا نشد الرحال الى الزقازيق لنبدأ جولة مع الأزهر الشريف ، ولنتابع رحلة الحياة فى هذا المعهد العريق منذ دققت بابه حتى نظرتنا نحوه عند كتابة هذه السطور .

الأزهر

مكانة الأزهر ومكانة علومه :

الأزهر هو ذلك المنار العملاق الذى ترغرف رايته على الكون منذ أكثر من ألف عام ، حرس الفكر الاسلامى فى كل الظروف وأمام كل القوى ، وأرسل أتسعته عبر البلاد وعبر البحار دون أن يعوقه عائق ، فكان طيلة عدة أجيال المخزن الوحيد فى العالم الاسلامى الذى سطع فيه نور العلم يوم خبا ذلك النور فى كل مكان ، ثم كان الملاذ الذى اختير منه المبعوثون لدراسة الطب والهندسة وغيرهما من العلوم المدنية يوم بدأت النهضة فى مصر لأحياء هذه العلوم .

فلنعش مع الأزهر ردحا من الزمن لنراه وهو يكبو ويفيق من كبوته ، ولنراه وهو يصارع الزمن ليظل يخدم الاسلام فى مختلف الأرجاء .

وقد كانت خطوتى الأولى نحو التعليم هى دخول معهد الزقازيق ، أحد فروع الأزهر الشريف ، وكان ذلك فى مطلع الثلاثينات ، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع صلتى العلمية بالأزهر ، عشت فيه طالبا لفترة طويلة وتلقيت فيه علوما لم أكن أحس يومها أنها علوم تخدم الاسلام ، وإنما كانت مزيجا من الفكر ، النحو والصرف والعروض والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والحساب ... وكانت فى مجموعها تسلم الطالب من فرقة الى فرقة ، ويرجى أن تسلمه فى النهاية الى وظيفة يتعيش منها .

وإذا كان الطابع الروحى قد اختفى من دراستنا ، غمائه قد وجد فى زينا ، زى الشيوخ الذين كان عليهم ، بحكم هذا الزى ، وبحكم الانتماء الى الأزهر بشكل عام أن يكونوا من المتحمسين للاسلام وللثقافة فيه .

وكان علوم الأزهر كانت بذورا عاشت فى نفسى مدة طويلة ، فلما هطل عليها وابل الفكر هيماء بعد بدأت تزدهر وتنمو ، وكانت خير عون لى عندما هياتنى الظروف للتعرف الحقيقى على ديننا الحنيف من خلال دراسة « الحضارة الاسلامية » و « مقارنة الأديان » فقد وجدت أن رصيذا ضخما

من دراساتي بالأزهر يمكن أن يُنتَفَع به ، وأخذ هذا الرصيد يتحرك فأمدهني بكثير من الوسائل التي حملتني الى الغايات التي بدأت أتطلع لها لخدمة الدين ، وخدمة الانسانية عن طريق هذا الدين •

لقد درست في الفقه موضوع تعدد الزوجات وموضوع الطلاق ونظام الميراث والرق ، وحفظت رأى الاسلام في هذه الموضوعات وما ماثلها ، ولكنى لم أعرف شيئاً قط عن فلسفة الاسلام تجاه هذه الدراسات ، ولم يذكر الشيوخ ولا المراجع القديمة كلمة واحدة عن أسباب اتجاه الاسلام نحو تعدد الزوجات أو اباحة الطلاق ، أو الأخذ بهذا النظام في الميراث أو الرق ، ولم يكن في طوقى بناء على ما تعلمته في الأزهر أن أدافع عن الاسلام اذا هاجمه من يرى أن تعدد الزوجات بلاء ، وأن الطلاق تدمير للبيوت ، وأن من الظلم ألا نساوى المرأة بالرجل في الميراث ، وأن نجيز الرق ، فلما بدأت فيما بعد أدرس تشريعات الأديان الأخرى ، وأقارن بينها وبين الاسلام ، ولما بدأت أدرس فلسفة التشريع الاسلامى انتصح لى ما لم أعرفه في الأزهر ، ولكن علوم الأزهر كانت على كل حال أساسا لكل ما عرفت فيما بعد •

من أجل هذا تجدنى شديد الوفاء للأزهر ، شديد الحرص على خدمته ، سعيدا بالارتباط به ، وأنا أعرف أن كثيرين من الناس الذين لهم جذور أزهريّة يخفون هذه الجذور ، ويضيعون بذكرها ، ولست من هؤلاء ، فإن أول جملة تقرؤها في التعريف بى على ظهر غلاف هذا الكتاب وسواء من كتبى أننى تلقيت علومى فى الأزهر •

ولكن الصورة الحقيقية لانتفاعى بالأزهر يمكن أن تتضح اذا تصورت أنك زرت يوما صديقا لك فأعطاك قطعة من حجر ، لم يوضح لك قيمتها ربما لأنه هو نفسه لا يعرف قيمتها ، وبالتالي لم تعرف أنت لها قيمة ، وألقيتها فى متاعك غير حريص عليها ، ومرت الأيام فقابلت رجلا صناعاً علمك القدرة على التعرف على الأحجار الثمينة وعلى أن تصوغ منها أجمل حلى وأنفعه ، وتحسست الحجر الذى أخذته يوما من صديقك فوجدته ثمينا

جدا ، ورحلت تخرج منه حلياً تخلب الأنظار ، وكان من الوفاء أن تترداد حبا لصديقك الذى منحك هذا الحجر ، وأن يعيش ذكره الطيب فى خلدك •

فالذين اعترفوا بصلتهم القديمة بالأزهر واغترفوا بها هم الذين تعرفوا على قيمة الأحجار الثمينة التى أخذوها منه ، أما الذين لم يتعرفوا على قيمتها فقد تنكروا للأزهر وربما ألقوا بهذه الأحجار بعيدا عنهم لأنهم لم يروا فيها الا ثقلا ترزح به حقائبهم •

حساسية الأزهرين :

ووغاؤنا للأزهر الذى يدفعنا لتخصيص مساحة كبيرة للحديث عنه فى هذا الكتاب ، يجعلنا حريصين على الصراحة معه وعلى الرغبة فى أن نجعله كما ينبغى أن يكون ، ولكن شيئا مهما يعيش فى الأزهر ونتعمق جذوره فيه ذلك هو « الحساسية الشديدة » غاى نقد للأزهر يثير ثائرة الكثيرين من الأزهرين ويغضبهم ، ولست أدري هل يرى هؤلاء فى الأزهر أنه وصل الى درجة الكمال فليس فيه موضع نقد ؟ لا أظن أن أحدا فى الأزهر يرى هذا رأى ، فالكمال لله وحده •

هل يجب الأزهريون أن يبقى الأزهر بعيوبه دون اصلاح ؟ •

لا أظن ، فمن الوفاء للدين وللأزهر أن نعرض عيوبه ونحاول اصلاحها •

الذى أعتقد أنه الأزهرين رأوا أزهرهم هدها لنقد غير موضوعى أحيانا ، ولنقد غير بناء أحيانا ، ورأوا كذلك محاولات للنيل من الأزهر على أن ذلك وسيلة للنيل من الاسلام باعتبار الأزهر أقوى حصن يخدم الاسلام ، ومن هنا أساء الأزهريون الظن بأى نقد يتجه للأزهر وتحمسوا للرد على ذلك النقد •

وفى حديث نشر لى بجريدة الأهرام فى مطلع عام (١٩٧٢) ذكرت

أن علم « مقارنة الأديان » لم يأخذ مكانة في الأزهر وكذلك دراسة « الحضارة الإسلامية » على النسق الجديد ، وقد قابلني عقب ذلك صديق ازهرى ، ووجدته غاضبا لذلك ، وذكر لى أن زملاءه ساءهم هجومى على الأزهر ...

وانا لم اهجم على الأزهر وانما أشيد بذكره في كل مجال ، ولخنى أريد له الخير والتطور ، ونقدى للدراسة فيه موضوعى بنىء رجاء أن يلعب الأزهر دوره في كل العالم ، وأن يسترد مكانته في البقاع التى اهترت بها هذه المكانة .

واللهم أشهد أننى لا أريد الا الخير ، ولا يدفعنى الا الصالح العام ، وسيكون حديثى عن الأزهر حديث عارف به ، طالبا فيه وأستاذاه به ، حديث رجل ارتبط به من مطلع الثلاثينات ولا يزال على صلة به ، وتنمو هذه الصلة من يوم الى يوم ، وأدعو الاخوة الأزهريين الى دراسة ما أكتبه دون حساسية فليس فيهم من انتفع بالأزهر أكثر مما انتفعت ولا من يحبه أكثر منى .

والآن هيا بنا لدراسات عن الأزهر الشريف ، فيها حقائق وذكريات ونقد وأمل .

في معهد الزقاريق :

من الناس من يؤمنون بالقدرية ومنهم من ينتكرون لها ، ولكنهم جميعا لو تدبروا أمرهم برفق وأناة لرأوا القدر يلعب في حياتهم دورا كبيرا ، وأنا آخذ بالوسائل والوسائط قدر الطاقة ، ولكنى أومن أن القدر يتصرف ، وأرضى بتصرفه عندما لا توصلنى وسائلى الى الغاية التى أرجوها ، وعندما ينحرف بى القدر الى غاية أخرى ، وكثيرا ما كانت الغاية التى أرادها لى القدر أنفع وأمثل .

لم يكن الأزهر فى حسابى — كما قلت من قبل — يوم تطلعت الى العلم ،

وكانت أطماعى تقف بى عند مدارس التعليم الأولى ، وتصور الفرق الشاهق بين ما أردته لنفسى وما أراده لى القدر ، لقد كنت أقنع بتعليم يوصلنى الى مدرس بالتعليم الأولى ، ولكن الله تعالى فى سماه سدّ فى وجهى هذا الطريق ، وفتح لى طريقا آخر أفسح وأبعد مدى ، وكنت أرانى حزينا يوم لم أكل منأى ، ولم أكن أعرف أن ما ادخرته السماء لى كان أعظم وأعظم .

شكراً لله على ما منح عبده ولا يملك العبد الا شكر سيده .

على أن باب الأزهر لم يفتح لى ببسر يوم طرقتة ، حين لم يبق سواه أمامى وسيلة للعلم ، فقد ذهبت الى معهد الزقازيق صبيحة يوم سبت ومعى كل أوراقى ، ووقفت أمام الكاتب الذى يتلقى طلبات الراغبين فى الالتحاق ، ولكن الكاتب ردنى قائلاً : ان موعد قبول الأوراق انتهى يوم الخميس الماضى .

يا لله .. لقد انتهى آخر خيط من الأمل فى العلم .

واتخذت ركنا وقفت فيه هنيهة ، وهناك قفرت دمة من عينى ، والحق أننى لم أدع الله أن يجعل لى مخرجاً ، فلم أكن أعرف آنذاك أن دعاء الله قد يفتح الأبواب المقفلة ويجعل المستحيل ممكناً .

ورأيت فى موقفى هذا شيخاً بدين الجسم ، يرغل فى ثياب فاخرة . يتجه نحوى ويسألنى برفق عن سبب كآبتى .

ولنقف عند ذلك الشيخ وقفة ، انه الاستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد ، عرفته فيما بعد ، وتوثقت صلتى به ، كان شاعراً ممتازاً ، مرهف الحس ، طيب النفس ، والشاعر المرهف الحس يشارك الناس آلامهم أكثر مما يفعل الآخرون ، ولذلك اندفع نحوى وسألنى عما يحزننى ويكبنى ، فلما قصصت عليه قصتى ، قال : تعال معى الى شيخ المعهد لعله يجد حلاً لمشكلتك . وتصادف أن شيخ المعهد كان يخطر بمشية زينة نحونا

فاندفعنا اليه ، وعرض عليه فضيلة الشيخ شفيع قضيتى فأصدر أمرا للكاتب المختص أن يقبل أوراقى قائلا : خذ أوراق هذا الطالب فقد يكون انسانا نافعا • وتناول الكاتب الأوراق منى •

من الحق على أن أعطر هذا الكتاب باسم شيخ المعهد ، انه فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحكيم عطا ، وكان رجلا مهيب الطلعة ، تقرأ الصفاء فى وجهه وتحس الاخلاص فى كيانه ، انه من الهبات الخلقية والعلمية التى لا تتكرر كثيرا جزاه الله عنى أحسن الجزاء •

ولنمش مع فضيلة الشيخ شفيع سطورا أخرى ، لقد نسى الرجل معروفه الذى قدمه لوجه الله ، وتغير شكلى بعد ذلك من صبى يلبس الجلابب الى طالب يلبس الكاكولة والعمامة ، فلم يكن من اليسير على الشيخ أن يميزنى بين مئات الطلاب ، وما كان هذا يعنيه ، ولكنى كنت أعرفه تماما لأن شكله لم يتغير طبعاً ، ولما تقدمت بى السن ، وبدأت أقرض الشعر وأجيده ، توثقت صلتى به ، فقد كان رائد الشعراء من الطلاب ، وكنت أعامله باجلال لا كمعلم فقط بل باسم العون الكبير الذى قدمه لى ففتح لى بابا كان مقفلا ، ولم أخبره قط بتاريخه معى ، ولذلك كان يدهش من شدة اجلالى له ومحاولتى تقبيل يده رغم كبرياء الشباب تجاه هذه العادة •

الخبر لا يضيع :

ومر الزمن ... ودخلت دار العلوم وسافرت الى بعثة وعدت دكتورا مدرسا بكلية دار العلوم وأسرعت الى بيته أحياه وأسأل عنه ، وكان يهش لذلك لأنه لا يعلم سبب كل هذا التقدير الذى لا عهد له بمثله من كل تلاميذه ، وفى يوم تلقيت بطاقة منه يحملها طالب يريد الالتحاق بكلية دار العلوم وكان مجموعه أقل قليلا من المجموع الذى حددته الكلية لمن يقبلون بها ، ويقول شيخى فى البطاقة : ان هذا الطالب قرييى وأنا أئوئل بك أن تساعد ما أمكن •

يا لله ... لقد هزتنى هذه البطاقة هذا غنيفا ، وقلت لنفسى : اليوم
آن الأوان أن أوفى الدين ، وأسرت لأستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة
رحمه الله وقصصت عليه القصة بكل دقة وكان يقوم بعمل العميد فضحك
وصفق وقال : ان الدين لا بد أن يقضى ، واتخذت الكلية قرارا بتخفيض
المجموع الذى اشترطته درجة أو درجتين لتفتح الباب لهذا الطالب ولكل
من يحمل مجموعه ، وسددت بذلك دينا كان قد مضى عليه أكثر من
عشرين عاما .

ودعاء من الأعماق أن يرحم الله أولئك الذين يسروا سبيل العلم لى ،
وأن يجعل لهم ثوابا عن كل عمل أقوم به لخدمة الدين والوطن ، فما كنت
لولاهم بمستطيع أن أفعل شيئا .

وهمسة الى القارىء أن يعمل الخير حبا فى الخير غير مترقب له أى
جزاء ، وليتأكد أن الجزاء لن يضيع ، وصدق الله القائل « ان الله لا يضيع
أجر المحسنين » ورحم الله الشاعر العربى الذى قال :

لا يضيع العرف بين الله والناس

ولنعد الى أحداث الحياة بمعهد الزقازيق لأقرر أننى اتجهت الى
العلوم التى كانت تلقى لى بينهم ، كالظمان يصادف الرى ، وكالجائع
الضارى يحصل على الطعام ، ولقد أخلصت للعلوم كل الاخلاص ، وعנית
بالدروس كل العناية ، فلم يحصل أننى تخلفت مرة واحدة عن درس ،
أو انصرفت لحظة واحدة عن معلم ، وكنت الى جانب ذلك حسن الصلة
بزملائى وشيوخى . وسرعان ما جنيت ثمار ذلك الجهد وهذا الاقبال ،
فقد دخلت امتحان النقل للفرقة الثانية الابتدائية ، وأعلنت النتيجة فكنت
الثالث بين مئات الناجحين ، ويعلم الله أننى الى أن تلقيت الشهادة بذلك لم
أكن أعلم أن هناك ترتيبا بين الناجحين ، وكانت حياتى الساذجة البسيطة

تخيّل لى أن المسألة نجاح أو رسوب فقط ، فلما تلقيت الشهادة بهذا الترتيب أحسست بعاملين متناقضين يعتوراننى ، العامل الأول السرور بهذا التقدم ، والعامل الثانى القلق والتساؤل : لماذا لم أكن الأول ؟ وبماذا يفضلنى الأول والثانى اللذان سبقانى ؟ وخطر ببالى أن الأول والثانى ربما كانا من الذين رسبوا فى العام الماضى ، فهم — بسبب بقائهم سنتين فى الفرقة الأولى — أقدر على العلوم من الذين أمضوا سنة واحدة ، وتساءلت عن امكان ذلك ، ففيل لى : ان الراسبين لا يطمعون الا فى النجاح ، والغالب أن مواهبهم لا تؤهلهم للمسبق • وعدت للتساؤل عن سبب تأخرى عن سواى ، وأزمنت أمرا •

وفى الأعوام التالية بالقسم الابتدائى والثانوى حققت أمنيتى ، وأصبحت الأول دون منازع فى كل امتحان دخلت فيه بما فى ذلك الشهادة الابتدائية والشهادة الثانوية على كل معاهد القطر •

طرفة عن المنافسات :

ولم تخل منافساتنا البريئة من طُرف ، تحضرنى طرفة منها ، فقد كان لنا زميل لا يهتم بالترتيب أو قل لم يكن له نصيب فيه ، وحدث فى احدى الفرق أن قفز الى الخمسة الأوائل فأصبح الرابع وكان هذا فوق آماله ، فلم يتمالك نفسه وراح يلوح بشهادته وأنه الرابع ، ولا بد أن يكون الأول فى العام القادم •

لقد غفرنا له سروره بتقدمه لأن ذلك كان طرفة كبيرة بالنسبة له ، ولكن أطماعه فى أن يكون الأول فى العام القادم كانت — فى عالمنا — تحمل تهديدا لى ، بابعادى عن مركز أصبح بالنسبة لى حقا تاريخيا ، وأمام هذا التحدى أعلنت موقفى وهو أننى ملتزم بأن أبعد هذا المتواعد عن العشرة الأوائل جميعا ، واثارت بذلك عاصفة من الضحك بين الزملاء فاذا كنت أستطيع أن أحافظ على مكانتى كأول الناجحين فكيف لى بابعاده عن

التسعة التاليين للأول ؟ وأجبت بأننى سأتعاون مع مجموعة من الزملاء لأضمن لهم السبق عليه •

وتعاونت فعلا ، ولكن الزميل كفانا مئونة المشقة فانحدر الى حيث كان بعيدا بعيدا عن الصفوف الأولى •

أزهرنا لم يعرف الامتحان فى المقروء :

ولم يكن فى أزهرنا الآفة التى ظهرت فيما بعد وعششت فى الأزهر واستقرت فيه ، وهى ما يسمى « الامتحان فى المقروء » أنها آفة مريرة عرّفت طريقها للأزهر فحرمت الطلاب من الفكر والثقافة ، وأصبحوا يحضرون الدروس فترات قصيرة يضربون بعدها عن الحضور للمذاكرة ، وينادون بأن الامتحان فى المقروء ، والمقروء قليل ، ويضيع العلم من عام الى عام حتى يتخرج الطالب بحصيلة ضئيلة من الفكر والعلم •

وقد كان أزهرنا مثال النظام والدقة ، وكانت الدراسة لا تتوقف الا قبل الامتحان بأسبوع أو أسبوعين حين تعلن الادارة ذلك لاعداد الامكنة للامتحان ، وكانت المواد موزعة على الفرق ، يسلم بعضها الى بعض بحيث لا يبقى باب بدون دراسة • فقد درسنا الفقه مثلا فى القسم الابتدائى مرتين ، وفى القسم الثانوى مرتين من أول باب الطهارة الى آخر باب الرق والوقف ، درسناه مجملا فى الفرقة الأولى الابتدائية اعتمادا على كتاب أبى شجاع الذى حفظناه وفهمناه مستعينين بشرح ابن قاسم عليه ، ودرسنا الفقه كله بكثير من التفصيل فى الفرق الثلاث التالية : الفرقة الثانية والثالثة والرابعة فاستوعبنا خلال هذه السنوات شرح كفاية الأخيار على أبى شجاع •

وفى القسم الثانوى درسنا الفقه كله بمزيد من التفصيل فى الفرق الثلاثة الأولى ، ثم شرحنا أهم قضاياها فى الفرقتين الرابعة والخامسة •

والذى حدث فى الفقه حدث فى النحو والصرف والتفسير
والحديث ، شمول " لأبواب المادة كلها ، والتطور بدراستها من مرحلة
الى مرحلة •

وعرفنا قسطا كبيرا من العلوم المدنية : الحساب والجبر والكيمياء
والطبيعة والجغرافيا وغيرها •

ويمكن القول اننا خرجنا من معهد الزقازيق بثروة وفيرة فى كل
العلوم الاسلامية واللغوية ، ثروة لم نحتاج بعدها لمزيد ، وكل ما احتجنا
له بعد ذلك هو حسن استعمالها والانتفاع بها وبعث الروح فيها ، وهو
ما حاولته بعد ذلك فى دار العلوم وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج وحتى
الآن •

أحداث بالمعهد :

وفى معهد الزقازيق حدثت لى أحداث يتحتم تدوينها ، وكان الحدث
الأول قبيل امتحان الفرقة الرابعة الابتدائية أى قبيل امتحان الشهادة
الابتدائية ، وكان لهذه الشهادة آنذاك مكانة ملحوظة ، فهى أول لقاء بين
طلاب المعاهد الأزهرية فى كل مكان ، وبهذا تبرز المنافسة بين المعاهد ،
ويحاول كل معهد أن يدفع من طلابه مجموعة لتكون بين الأوائل فى
الترتيب العام •

وتطلعت للسبق وأعددت نفسى له ، ولكن قبل الامتحان ببضعة
أسابيع حدث حادث عكر الصفو ، وكاد يغير مجرى الحياة : فلتسر مع هذا
المادث خطوة خطوة •

كان من وسائل اهتمامى بالاستعداد للشهادة الابتدائية أن التحقت
بالقسم الداخلى بالمعهد ، وكان للقسم الداخلى مشرف من انعلماء ، وكان
هذا المشرف سمحا وصديقا للطلاب . وفى أمسية من الأمسيات كنت أجلس

مع بعض الرفاق نأكل بعض خيرات الريف البسيطة من البلح والفلو السوداني ... فدخل علينا الشيخ المشرف وتبسط معنا كعادته ، ودعواناه ليشاركنا ، فاستجاب بكرم نفس وتناول بلحة أو بلحتين ، ودخلنا معه في حديث حول خيرات الريف المصرى ، وقلنا له ان من الشرف لنا أن يقبل بعض هدايا من هذا النوع لأسرته موضحين أن ثمنها المادى لا قيمة له ، وأن قبولها سيجعلنا نحس بإلف وود بيننا وبينه ، وأصر الرجل على أن نصرف النظر عن هذا الموضوع ، ولكننا تمسكنا به ، ولعلنا فى الأسبوع التالى — وكنت أسافر للبلدة كل أسبوع — أحضرت له هذه الهدية المتواضعة ، وفعل زميل آخر مثل ذلك ، وكانت القيمة المادية لكل هدية لا تتجاوز قروشاً تعد على الأصابع ، ولم يكن لنا عند الرجل حاجة على الإطلاق ، فالهدية هدية بكل معنى الكلمة وبسيطة بكل معنى الكلمة كذلك .

وبعد فترة برز خلاف بين شيخ المعهد « الشيخ أحمد مـحـى » وبين هذا المشرف ، وحاول شيخ المعهد غفر الله له أن يجمع هنات للمشرف ليوقع به ، وذكر له أحد الفراشين قصة البلح والفلو السودانى ، فاستدعانى شيخ المعهد وسألنى عن ذلك فأنكرت ، وأنكر زميلى الآخر كذلك ولكنى ، تحملت أكثر الضغوط ، وقابلته بانكار رزين ، ففقد قدرت أن من الظلم أن أتسبب فى عقوبة انسان برىء ، وأن تكون هذه البلحات سبباً فى تهديد مستقبل شيخ فاضل وتهديد مستقبل أسرته ، ولم يكن لنا مستقبل نحرم عليه .

وهددنى شيخ المعهد بالفصل من المعهد اذا لم أعترف ، فقلت « وليكن » وطردنى من المعهد ، فحملت متاعى على كتفى وعدت للقريه ، وشجعنى أهلى جزاهم الله خيراً وفضلوا الفصل من المعهد على كلمة الشر ، وخيل الى اننى عدت من جديد لأبشر التجارة بالريف كما كان أبى يفعل أو لأبشر الزراعة .

ومر أسبوع وأسبوعان ثم ذهبت متسللاً الى المعهد لأتأكد من أن قرار الفصل قد صدر ، أو لألتمس عفواً ، وهناك عرفت أن هناك مراقبة عامة من خارج المعهد تشرف على امتحان الشهادة الابتدائية (م ٤ — رحلة حياة)

(كونترول) وأن رئيس لجنة المراقبة اسمه الشيخ « جاب الله » فاندفعت له وسألته : هل أنا ممنوع من دخول الشهادة الابتدائية ؟ فأجاب دون تفكير : ليس بين طلاب الشهادة الابتدائية مَنْ هو ممنوع من الامتحان . وسألني عن اسمي ، وطلب الكشف ، وطمأنني بأن اسمي مدرج بالكشف وليس هناك شيء ضدي . ولما عرف سبب سؤاله وعرف تفوقى ، هدأ من روعى وطمأننى وأكد لى أنه المسئول الوحيد عن الامتحان وليس لسواه سلطة على الاطلاق فى هذا الامتحان وعاد يسألنى عما اذا كنت مستعدا للامتحان كما ينبغى ، فذكرت له ان استعدادى هو استعداد من يطمع فى أن يكون أول الشهادة فى القطر . غابتسم ودعا لى .

ودخلت الامتحان التحريرى ولم يكن بالنسبة لى الا اغنية جميلة رحت فيها أنمق الاجابة وأجمّلها حتى استحققت النهايات الكبرى ربما فى كل المواد ، وفى أحد الامتحانات جاءنى شيخ المعهد مكفها ، وطلب منى أن أقف ليفتشنى فقد تكون معى بعض المذكرات ، وسخرت منه لأنى أستطيع أن أكتب من الذاكرة أروع مما يوجد فى المذكرات ، وبعد لحظات رأيت الشيخ جاب الله يهرول نحوى ودفع شيخ المعهد أمامه وهو يقول : اتركه يا سيدنا الشيخ ، اتركه يا سيدنا الشيخ .

وجاء الامتحان الشفوى ، وكان يحسب له كل حساب ، فحضر الشيخ جاب الله بنفسه ، وعرضت على اللجنة جهدى ، ففى النحو مثلا كانت ألفية ابن مالك هى المقررة ، وكنت أحفظها عن ظهر قلب ، وأعرف شرحها تماما ، بل ذهبت الى مدى أبعد ، فان ابن عقيل فى شرحه على الألفية كان أحيانا يختلف مع ابن مالك ، ويذكر شروطا غابت الألفية ، وكنت — وقد بدأت أنظم الشعر — أكمل ألفية ابن مالك باضافة بعض أبيات أنظمها على نسق الألفية تحتوى الشروط التى غابت ابن مالك ، وفى المحفوظات — كما كنا نسميها — قرأت لهم من شعري بالاضافة الى شعر الشعراء ، وكانت جلسة جميلة رائعة استحققت فيها تقدير الأساتذة واعجابهم ومنحونى

أرقى الدرجات ، وكنت أول الناجحين في الشهادة الابتدائية وبينى وبين
الثانى أكثر من أربعين درجة .

أغلب الخلق أن الذين أساءوا والذين أحسنوا غارقوا هذه الحياة الى
رحمة الله ، ولكن الذكريات لا تموت .

في القسم الثانوى :

ودخلنا القسم الثانوى بالمعهد ، واعترانا شىء غير قليل من الزهو
والغرور ، ونحن ننظر لطلاب القسم الابتدائى على أنهم صغار ونحن
عماقة ، وكان هؤلاء ينظرون لنا باعجاب وتقدير ، يحتذون خذونا ويرونا
قادة وزعماء . وهناك طرفة توضح مكانة القسم الثانوى بالنسبة
للإبتدائى آنذاك . هى أنه كان بالقسم الثانوى فراش سودانى اسمه
نور وكانت له بطلاقة نكتب عليها :

محمد نور

فراش ثانوى بمعهد الزقازيق

وفى القسم الثانوى بدأنا نتطلع للحياة ، وثابرننا على قراءة مجلة
الرسالة والاسلام وتربى عندى ذوق أدبى كان قد بدأ ظهوره فى أواخر
القسم الابتدائى ، وتعرفت على دواوين الشعراء ، ورحت أقرأها وألتهم
ما بها من صور وغن وبخاصة شعر المتنبى وأحمد شوقى ، ولم يمض وقت
طويل حتى كنت أحفظ أكثر الشوقيات وأكثر مسرحيات شوقى ، ورحت
أقرأ للعقاد والمازنى وطه حسين وأحمد أمين . ونما ما عندى من ذوق أدبى
من عام الى عام . وأصبحت بين خطباء المعهد وشعرائه ، وكانت الحركة
الوطنية تنمو واستطاع الشباب المتعلم أن يُلْزِمَ الزعماء بأن يتحدوا لقتم
المفاوضة مع المستعمر الانجليزى تمهيدا للمعاهدة التى جاءت على أثر
ذلك وهى معاهدة سنة ١٩٣٦ . والمهم أن هذا الاتجاه دفع بى الى جو
الخطابة والى المجتمعات والسياسة . وقد تعلمت كثيرا من هذا الاتجاه .
وكان من أهم ما تدربت عليه وقفات الخطابة بين الجماهير . والشعر الحماسى

الذى طالما أطلق الأكف بالتصفيق ، والشعر العاطفى الذى عبّر عن أحاسيس الشباب وخفقات القلوب •

وسنعود للحديث عن الشعر بعد قليل ، ولكن الذى يلزم أن أذكره هنا أن هذا الاتجاه الأدبى الجماهيرى لم يقلل اهتمامى بالتفوق العلمى فحافظت تماما على أن أكون الأول بين الطلاب طيلة القسم الثانوى •

وفى نهاية القسم الثانوى حدث لى حادث أثّر فى مستقبلى ، فقد كنت ابتداء من الفرقة الرابعة الثانوية أعدّ من أهم زعماء طلاب المعهد أو طلاب الزقازيق جميعا ان لم أكن قد أصبحت أهمهم ، وكنت أترجم الحركات الوطنية للطلاب بهذه المنطقة ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقى المعاهد الأزهرية ، وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفى تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية قبيل الحرب العالمية الثانية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التى تتبع ، أو تسأل رأى عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد الشيخ سليمان نوار لنفسه ، سامحه الله ، أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلننا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، وكان يعتقد أن الانتظام فى الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد ينيله حظوة عند بعض ولاية الأمور ، حظوة تقدير لحزمه على الأقل ، فأنزل بزعماء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول ، أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمى ورضاء جميع الشيوخ عنى ، فكانت عقوبتى الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه وأعد نفسى للامتحان ، فى حين كان كثير من رفاقى قد نجح فى الدور الأول •

وقد قوت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية

دار العلوم بعد نجاحى الفائق فى ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجموع للدرجات فى هذا الامتحان .

الزقازيق : الناس والمدينة :

قبل أن أغادر الزقازيق الى كلية دار العلوم بالقاهرة لأبدأ مرحلة التعليم العالى ينبغى أن نقف وقفة مع الزقازيق ، فقد عشت فى هذه المدينة تسع سنوات من أهم سننى العمر ، دخلتها صبيا قليل التجربة قليل المعارف ، وعشت بها حتى عهد الشباب ونلت فيها قسطا من العلم عرفت فيما بعد أنه مادة طيبة جدا لما زاولته من دراسة وبحث .

وبالإضافة الى المادة العلمية التى حصلت عليها فى الزقازيق أجدنى تعلمت كثيرا من مجتمع هذه المدينة ، فالناس بالزقازيق أميل الى الخير ، فيهم شهامة وكرم ، وفهم ببساطة لا تعرف الانحراف أو التعقيد ، فهم بذلك جديرون بلقب « الشراقة » الذى يقوله بعض الناس عنهم ويغمزونهم به باعتبار هذا اللقب يعنى شيئا من « العبط » والشراقة يرحبون بهذا اللقب ويؤثرونه مع ما فيه من الغمزات على اتجاهات المكر والغموض .

وانى لأذكر صباى فى الزقازيق ، وأذكر صور العون التى نعمت بها من كل من تعرفت عليهم من سكان هذه المدينة ، فأصحاب المنازل التى كنا ننزل بها كانوا كرماء ولم يكونوا قط مستغلين ، وأصحاب المتاجر التى كنا نتردد عليها كانوا يمتازون بالقناعة والسماحة ، وكذلك كان العمال الذين كنا نحتاج الى عملهم فى كل شئ مثل حياكة الملابس أو كيها ، أما غسيل الملابس فقد كنا نقوم به بأنفسنا ، وكان أساتذتنا وزملاؤنا وأكثرهم من الشراقة نماذج طيبة فى الصحبة مما جعلنى اخرج برصيد طيب من الأصدقاء خلال هذه الفترة .

من أجل هذا تجدنى أحتفظ بأجمل الذكريات لهذا العهد الطيب بمدينة

الزقازيق ، وأحاول أن أرد الجميل لأبناء الذين أكرمونا وساعدونا ، ولست أملك أن أفعل لهم شيئاً الا القليل الذى يرمز الى الاعتراف بالجميل ، فاذا دعيت الى أن ألقى محاضرة بالزقازيق استجبت بسرعة مهما كانت الشواغل كثيرة ، وقد حدث مرة أن التقيت فى حفل أقيم بمناسبة مولد الرسول بالمركز العام للشبان المسلمين بزميل كريم (أستاذ بجامعة القاهرة) ، وطلب منى هذا الزميل أن ألقى محاضرة فى كليته ، فرجوته تأجيل الموعد اذ كان وقتى مزدحماً بالعمل فى ذلك الحين . وفى نفس اللحظة اندفع نحونا الدكتور محمد مصطفى ميكييس رئيس جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق وقال لى ان الجمعية تدعونى لالقاء محاضرة هذا الأسبوع بالزقازيق فقبلت على الفور . قال زميلى : ما تعليل هذا التصرف ؟ تؤجل المحاضرة التى طلبتها منك وتستجيب دون تردد لدعوة أخرى دون تأجيل فأجبت : انها الزقازيق وهى فرصة أغتنمها لأسدد بعض الدين للذين أكرمونا فى أولى مراحل الحياة . ووافق زميلى الفاضل اذ رأى أن فى الاستجابة لونا من العرفان بالجميل .

وهناك محاضرات تنظمها وزارة الشؤون الاجتماعية وتصرف مكافآت لمن يلقونها ، ومن الطبيعى أننى لم أقبل قط أية مكافأة عن محاضراتى بالزقازيق وكنت أطلب دائماً أن توجه هذه المكافأة الى مكاتب تحفي القرآن الكريم أو أمكنة البر بالمدينة ، ثم أصبح هذا دستور حياتى كد دعيت لالقاء محاضرات بأمكنة أخرى .

ومحاضراتى بالزقازيق كثيرة وجمهورى بها كبير ، ولكن للأسف هنا مكان تمنيت أن أقف محاضرا به ، ولكننى لم أنل أمنيتى ، وقد ذهبت الى مدى لم أذهب اليه قط لأحقق هذه الأمنية ، فقد عرضت استعدادى ، ولكن لم أجد من يدعونى أو من يقبل أن أدعو نفسى لألقى هذه المحاضرة ، ما ه هذا المكان ؟ . انه معهد الزقازيق الدينى . . .

اننى أتذكر صباى بالمعهد ، وأتذكر أحلام الصبا ، وانفعال الطلاب بأى زائر أكبر منهم سناً أو أوسع تجربة ، واعتقادى أن وقوفى بين

محاضرا سيكون دفعة قوية لهم ، وسيبعث طاقات من الأدل في نفوسهم ، وسيجيب لهم الجد ، ولكنى لم أستطع أن أنال هذا الأمل لأخطو نحو هذا البناء العملاق منحني الرأس اجلالا واكبارا لما نلت فيه من علم ومعرفة .

وبعد هذه العجالة بالنسبة للناس تعال بنا الى المدينة نفسها لنحدث عنها قليلا ، لقد غارقت الزقازيق سنة ١٩٣٩ الى القاهرة أى منذ مدة طويلة ، ولازلت أذهب للزقازيق من حين لآخر ، أجتازها في الطريق الى قريتي ، وازور بها بعض الأهل والأصدقاء وألقى بها بعض المحاضرات ولكن الشيء الذى يدهشنى بل قد يزعجنى أن المدينة تتخلف يوما بعد يوم في نظافتها وتجميلها ومظهرها . لقد رأيت ميدان المنتزه وهو روضة جميلة ولكنه الآن مباءة أو أقرب الى المباءة ، ورأيت شارع « البوسطة » شارعا واسعا نظيفا وهو الآن مدمر كريحه ، ورأيت ما كنا نسميه « وابور النور » منطقة انطلاق جميلة كنا نهرع اليها للاستذكار والمتعة وقرض الشعر فأصبحت لا شيء ، ورأيت مداخل الزقازيق من ناحية (أبو حماد) وهيا والمدرسة الصناعية ، وكانت مداخل معقولة ولكنها أصبحت الآن أسوأ اعلان عن المدينة ، وكلما دخلت الزقازيق من مدخلنا الذى يقود اليها وهو مدخل (أبو حماد) والتل الكبير أحسست أنى أجتاز منطقة خطيرة استعيز بالله ألف مرة كلما طرقتها ، ورأيت الحسينية وكفر النحال والحريرى وغيرها من الأحياء حيث كنا نعيش أنظف ألف مرة من حالها الآن . واكتفى هواة الخداع بمدخل جديد للمدينة من جهة منيا القمح ، وبعض ابنية شيدوها لاقامتهم ومتعتهم على رأس هذا المدخل ووجهوا الزائرين الى هذه المنطقة ليخدعوه عن الحقيقة . وعن المدينة الحقيقية التى تعيش في الظلام والآلام .

ولم يحدث مرة أن فكر المحافظون في التعرف على أبناء الاقليم الذين يعملون بعيدا عنه والانتفاع بأفكارهم أو حتى بجهودهم فكأننا وقد قضى

الله علينا أن نعمل بالقاهرة مبعدون عن الزقازيق وليس لنا حق
في التفكير فيها .*

ان الحكومة لا تستطيع أن تعمل كل شيء ، وينبغي أن يتعاون أهل
كل قرية وكل مدينة للرقى بقراهم ومدنهم ، وليت هذا النداء يصل الى
الآذان والقلوب .*

ان في الزقازيق قصورا ضخمة وغيلات فخمة ، ولكن الطريق اليها قاتم
مملوء بالقاذورات ، ولو خصص كل غنى جزءا ضئيلا من نفقات قصره ليسهم
به في تحسين الطريق الى هذا القصر لاستفاد الغنى واستفاد الفقير ، ولكن
هذا لا يتم الا بتنسيق تشترك فيه كل الأطراف ، ونأمل أن يبرز هذا
التنسيق للوجود ، انها دعوة نطلقها بالنسبة للقرية وبالنسبة للمدينة ونرجو
ألا تكون صيحة في واد .*

تطوير الأزهر :

كل شيء في الحياة يحتاج الى تجديد وتطوير ، ويبلى أى شيء
بسرعة اذا لم تتجه له العناية بالتجديد والتطوير ، ولعل هذه القاعدة تصدق
على كل شيء ، على الملابس والفراش ، وعلى المنزل والأثاث ، وعلى الأرض
التي تزرع ، والنهر الذى يجدد حفره وتحرس جسوره ولكن صدق
هذه القاعدة على العلم أبرز وأوضح ، فالكشف العلمى في الطب والهندسة
والجغرافيا يتجدد من يوم الى يوم ، والطبيب الذى لا يتابع الدراسات
الحديثة يتخلف وينهار بسرعة عجيبة ، والعلوم النظرية ومنها العلوم
التي يمثلها الأزهر كالدراسات الدينية والعربية متطورة بطبيعتها من يوم
الى يوم كذلك ، وقد رأيت في جامعة كمبردج كلية اللاهوت وهي في تطورها
تسرع الخطا أو تقفز فلا تلاحقها في حركة التجديد أية كلية أخرى .*

وتجديد الدراسات الأزهرية يمكن أن يكون من عدة نواح بأن تضاف
علوم جديدة للمنهاج كمقارنة الأديان والحضارة الاسلامية في مفهومها

الجديد وكالفقه المقارن الذى يعرفنا مكانة التشريع الاسلامى بالنسبة للتشريعات الأخرى ، وكملاحظة الصورة الشعرية فى الأدب ، ودراسة قضية الالتزام فى الأدب والتاريخ ... ويمكن ان يكون التجديد من ناحية اضافة فلسفة الفكر فلا يدرس الفقه الاسلامى وحده وانما تدرس أهدافه ، ويمكن أن يكون التطوير بحذف بعض الفروع التى لم يعد الفكر الحديث يتطلبها كالفروض المبالغ فيها التى أوردتها كتب الفقه فى باب الطلاق أو الطهارة أو حذف ما ازدحمت به كتب التفسير من اسرائيليات ، ويمكن أن يكون من ناحية الأسلوب بأن تعاد كتابة هذه الدراسات بأسلوب العصر وصفائه •

ولست هنا على كل حال أحاول أن أرسم للتجديد فى الدراسات الأزهرية ، ولكنى أذكر امكان ذلك وضرورته ، فقد تعلمت الفقه الاسلامى بالأزهر فلم أحس أنه يدافع عن الاسلام أو يبرز جماله كما قلت من قبل ، وتلقيت محاضرات عن الفقه الاسلامى بأوروبا غرايتها بطبيعتها تدافع عن الاسلام لا عن قصد ، ولكن لأن طبيعة الدراسة اقتضت ذلك ، والأمثلة عن ذلك قد أشرت اليها من قبل ، وحسبك أن تقرأ باب الرق فى كتب الفقه وتقرؤه فى كتابى « الاسلام » الذى تأثر منهجه بالدراسات الغربية •

ما أهم دعائم التطوير ؟ :

فى تقديرى أن أهم دعائم التطوير هى التطعيم الخارجى ، فالجزر النائية التى لا يطرقها الناس والتى يعيش بها أهلها دون اختلاط بغيرهم يصبح أهلها أقزاما ضعاف العقول والأجسام بمرور الزمن ، وهذا نفسه ينطبق على أية مؤسسة أو مصنع أو معهد لا يمسه التطعيم ولا تدخله دماء جديدة أو فكر جديد من حين لآخر •

والدماء الفكرية الجديدة معناها الاتصال بالتفكير العالمى والتأثير فيه والتأثير به ، فطبيعة الاجتماع بالآخرين تولد جديدا ، وقد يتحدد مصدر هذا الجديد ، بأن يكون من ابتكار فرد معين ، وقد لا يتحدد بأن يكون من

ابتكار المجموعة ، بأن أسهم كل فرد بإشارة أو خطوة بقصد أو بدون قصد ، فينتج عن ذلك جديد مفيد ، والأزهر الشريف قد أخذ بهذا الاتجاه فأرسل مبعوثيه للتعرف على ثقافة الغرب والاستفادة من مناهجها ، ولكن للأسف هناك حقيقة مهمة ومخجلة هي أن السادة الذين زاملونا في الخارج وحققوا انشواطا من النجاح لم يعودوا لكليات الأزهر كي ينقلوا ما عرفوا وكى يَتَمَثَّلُوا معارفهم ، بل التقطتهم المكاتب والأعمال الادارية ولم تأخذ الدرجات منهم نصيبا يذكر ، ولست أذكر هنا أسماء هؤلاء فهم من الشهرة بحيث لا نحتاج الى ذكرهم . ومن الزملاء من اشتغل بالتدريس ولكن للأسف غلبه الققيم فراح يدور في دائرته لأنه لم يقو على الصراع بين القديم والحديث .

ولجأ الأزهر أحيانا للدماء الجديدة من خارجه ، بأن انتدب لكليات اللغة العربية والشريعة وأصول الدين أساتذة من الكليات المناظرة بالجامعات المصرية ، لكن عمر هذا الانتداب كان دائما قصيرا ، وكان الأزهر يَنْتَهِي الانتداب أو كان الأساتذة يتوقفون عن الاستمرار في العمل ويعتذرون عن عدم السير فيه ، لأن الصراع كان يدور خفية أو علنا بين القديم والحديث ، ولا يستطيع الأساتذة المنتدبون أن يتخلوا عن فكرهم ، فتكون النتيجة هي الانفصال ، وقد كان لى دور في هذا المجال يتحتم أن أرويه بدقة ، ففى سنتي ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ انتدبت لتدريس مقارنة الأديان في كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وسررت بهذا الانتداب سرورا بالغيا اذ كان فرصة لى لأردء للأزهر بعض أيادييه ولأنقل للجيل الجديد خبرات الجيل الذى سبقه ، واستقبلت عملى بغبطة واقبال بالغى الذى ، ونجح عملى بالكلية نجاحا يفوق كل وصف ، جعل الطلاب يقبلون على محاضراتى بشغف كبير ، وقد كان التراحم على هذه المحاضرات شديدا حتى كان من العسير أن أخترق صفوف الطلاب لأصل الى منصة المحاضرة ، وطالما استعنت بفضيلة الأستاذ الشيخ زهير مراقب الكلية آنذاك ليساعدنى فى شق الطريق بين مذخل المدرج والمنصة .

ومع هذه الصورة الباسمة للعمل كانت صلتى بالأساتذة الأزهرين طيبة للغاية ، فبعضهم كان أستاذا لى ، وكنت أجلتهم جميعا ، وكانت نتائج الامتحان رائعة تثبت اقبال الطلاب على المادة وحبهام لها واستفادتهم منها .

وعلى هذا كان الاستغناء عنى عسيرا ، وقطعاً ابتدأبى شيئا غير طبيعى ، ولكن الصراع الخفى ضد التجديد سرعان ما نجح ، فالتغييتُ المادة كلها لنير ما سبب ، ولم يرتفع صوت واحد ليدافع عن « مقارنة الأديان » .

لقد حزنت على ذلك كثيرا ، وأرجو ألا يتهمنى أحد بأن حرصى على هذه المحاضرات كان لأسباب مادية ، فقد كنت آنذاك مدرسا ، وكان صافى مكافأة المحاضرة لا يتجاوز السبعين قرشا ، وأنا أسكن بالمعادى وأركب سيارتى للأزهر من أجل محاضرة واحدة ولا تكفى السبعون قرشا لتكاليف هذه الرحلة .

الكتب الدراسية بالأزهر :

ثم ان الأزهر لا تزال تعيش فيه الفية ابن مالك والأشمونى والصبان والسعد فلما فكر البعض فى التأليف الحديث تمثلوا بابن مالك والسعد فى النهج ، وبمناسبة الحديث عن هذا التراث أحب أن أثبت أننى شخصا أجله وقد انتفعت به كثيرا ، وأرى أن يتعرف الطلاب الأزهريون على هذه الكتب كدراسة للتراث ولكن ينبغى أن يأخذوا الفكر عن طريقه الميسر فان أغلب ما اتجهت له عناية هؤلاء الشراح هو حل ألفاظ الكتاب المقرر ، والويل للمدرس والطلاب اذا كان المؤلف — وكثيرا ما كان المؤلفون — ركيك العبارة ، ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، وكثيرا ما كانت الفكرة واضحة لنا جليلة ، ولكن العناية بالفكرة لم تصل الى درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هى العلم كله .

والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر وعالج كتبه ،
انك تقرأ المتن فنتفهم أكثره أو كله ، فاذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن
فهم أكثره أو كله فاذا ذهبت الى الحاشية والتقرير قابلت ألغازا
ومعتميات •

ان الأمل كبير أن يتجه أبناء الأزهر الى معهدهم العظيم لتطويره
واشاعة الروح في علومه ، وحراسة الامتحانات فيه ، مع العلم ان الشائعات
تتردد حول هذه الامتحانات ، ولكنى أثرت ألا أطرق هذا الباب الشائك
وأن أتركه لأبناء الأزهر البررة ليعالجوه • ان الأزهر منار يحرس الاسلام
ويرد المعتدين على كلمة الحق ، ومن الواجب تزويد طلابه بالسلاح الذى
يساعدهم على حمل هذه المسئولية وبخاصة فى فترة أصبح فيها الالحاد
سمة العصر فى كثير من المناطق •

تطوير الأزهر بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ :

فى سنة ١٩٦١ صدر قانون بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل
فروع الثقافات ، ومن ثم أنشئت به كليات للطب والهندسة والتجارة ••••
بالاضافة الى كلياته الثلاثة الأصلية وهى كليات اللغة العربية وأصول الدين
والشريعة ، ويشمل القانون كذلك اعادة تنظيم منهاج المعاهد الأزهرية ،
ويجدر بنا أن نعيش مع هذا التطوير مدة كافية لنثبت رأينا فيه ، ونسارع
فنقرر أن الكثيرين جدا يرون أن هذا القانون أضر بالدراسات الأزهرية
أبلغ ضرر ، وأن الحكمة وخوف الله يقضيان بالاسراع فى اعادة النظر فيه ،
ولنسر مع هذا القانون خطوة خطوة •

أصبح القسم الابتدائى يسمى القسم الاعدادى وبقي القسم
الثانوى يحمل اسمه وهذه التسمية وكشعت معاهد الأزهر أمام المقارنة
بمدارس الدولة ، وسنعود بعد لحظة لنرى أثر هذه المقارنة •

وقضى التطوير أن يشمل القسم الاعدادى منهاجين كاملين تقريرا

أحدهما منهاج الأزهر العادى والآخر منهاج المدارس الاعدادية الحكومية ، أما القسم الثانوى فبه شعبتان احدهما أدبية والثانية علمية ، والشعبة الأدبية بها علوم الأزهر وعلوم القسم الأدبى بالمدارس الثانوية الحكومية ، والشعبة العلمية بها المنهاج الأزهرى ومنهاج القسم العلمى بالمدارس الثانوية .

وقد نتج عن هذا الوضع أن برزت الحقائق التالية :

أولا — أصبح العبء ثقيلًا جدًا على الطلاب ، ولم يكن من الممكن أن يجيدوا الدراسات الأزهرية وأن يجيدوا معها منهاج المدارس الحكومية ، فهذا وحده ، وذاك وحده ، عبء ينوء به كثير من الطلاب ، فما بالك بحمل المسئوليتين ، وكانت النتيجة الواقعية أن الطلاب لم يجيدوا هذا ولا ذاك . وراحوا ضحية هذا المنهاج السقيم .

ثانيا — وضع الأزهر نفسه فى وضع المنافس بالنسبة لوزارة التربية والتعليم ، فهو يدرس منهاجها ويلتزم بالتزاماتها العلمية ، مع أن الأزهر ليست عنده الامكانيات لذلك . فليس عنده المدرسون اللازمون ولا المعامل ولا التفتيش الكافى .

وظلاب الأزهر يؤدون نفس الامتحان الذى يؤديه طلاب المدارس فى الشهادات العامة ، فأسئلة وزارة التربية والتعليم كانت هى التى يستعملها الأزهر ، ولكن العجيب أن وزارة التربية لم تعترف بالشهادات التى يمنحها الأزهر بناء على هذه الامتحانات ولم تعترف الجامعات المصرية بها ولم تقبل الحاصلين عليها وهذا يعود فيما يقال الى فقدان الثقة فى دقة سير الامتحانات ، وقد استقل الأزهر أخيرا بامتحاناته ليراعى ضعف الطلاب فيه .

ثالثا — كان أزهرنا قسمين ابتدائى مدته أربع سنوات وثانوى مدته خمس سنوات ، فلما ظهر التغيير فى التسمية وظهرت المقارنة والمنافسة

بين الأزهر ومدارس وزارة التربية ظهرت صيحات تنادى بتقليل سنى الدراسة لتتفق مع سنى الدراسة المناظرة بمدارس الوزارة ، ونتيجة لهذه الصيحات أصبح القسم الاعدادى ثلاث سنوات والقسم الثانوى أربع سنوات ، ومن يدرى لعله ينقص مرة أخرى •

رابعا — كان الأزهر معهدا عملاقا للدراسات الاسلامية والعربية ، وأخذ فى الداخل والخارج مكانته من هذا الاتجاه ، وما كان أحراه أن يتابع السير فى هذه الرسالة وأن يقضى على الصعوبات التى تواجهه وهو ينهض بها بدل أن يبدأ رسالة جديدة فى القسم الاعدادى والثانوى ينافس بها وزارات التربية مع ما لها من امكانيات تفوق امكانياته فى هذا المجال بمراحل عديدة كما سبق القول •

وخروجا من هذه المآزق ، وعودا الى الحق والصالح العام نقترح أن يعود للقسم الابتدائى والثانوى بالأزهر طابعهما الدينى ، وأن تكون الدراسة بهما دراسة أزهريه ، بها — كالعهد بأزهرنا — علوم الاسلام وعلوم اللغة العربية وبعض المواد الثقافية واللغات ، ويلتحق الحاصلون على الثانوية الأزهريه بالكليات الأزهريه النظرية ، ويكونون نواة لباحثين فى العقيدة والشريعة والأخلاق ، وباحثين فى اللغة العربية وآدابها . ومعلمين لهذه الدراسات وحماة لها •

ولنعد لهذا القانون اللعين الذى أصدره عبد الناصر فى ليلة واحدة ليقضى به على الأزهر ، فنذكر أن الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الذى عاصر اصدار هذا القانون ذكر فى « ندوة العلماء » بالتليفزيون أن القانون كان يتجه لاغلاق كليات الأزهر الثلاث والاستعاضة عنها بكائن هزيل ميت هو كلية الدراسات الاسلامية التى عادت بالدراسة فى الأزهر الى عهد الأروقة والحصير ، ولكن الله سلم فلم يستطع عبد الناصر أن يكمل هذا الدور •

ولنعد لقانون التطور من ناحية أخرى ، فقد قضى هذا القانون أن

تنشأ كليات عملية بجامعة الأزهر وفي تقديري أنه ليس هناك اعتراض على الاكثار من التعليم الجامعي استجابة لطلاب الناس ، وليس هناك اعتراض أن نعيد للأزهر رعايته لمختلف العلوم ، فقد كان عبد اللطيف البغدادي يجلس بأرواقته يعلم الطب ، ولكن هناك اعتراضات أخرى ذات بال تتصل بالكليات العملية بالأزهر ، ونحن نجملها فيما يلي :

أولا — نرجو أن يستكمل الأزهر عدته لهذا اللون من الدراسات ، فليس من الممكن أن تحقق كلية للطب أى نجاح بدون المستشفى والمشرحة ، ولا كلية للعلوم أى تقدم بدون معامل ، ولا كلية للهندسة أى وجود بدون ورش ولن تستطيع كلية للزراعة أن تثبت نفسها بدون مزارع وتجارب ، وهكذا ونحن نسمع كثيرا ونقرأ كثيرا عن نقص فى هيئات التدريس بهذه الكليات الأزهرية وعن نقص فى الامكانيات ، وهذا سيجعل خريج الكليات العملية بالأزهر أقل من زميله المتخرج فى الجامعات الأخرى ، وهو شئ لا يقبله الغيورون على الأزهر .

ثانيا — ماذا يدرس من العلوم الاسلامية لطلاب الكليات العملية ؟

فى الاجابة عن هذا نصرخ بأن منهاج الدراسة لطلاب هذه الكليات يحتاج الى تعديل سريع ، فالدراسات الاسلامية ليست ألغازا ، ولا يقصد بالطبيب الأزهرى أن ينافس الأئمة والوعاظ أو مدرسى المعاهد الدينية . ولو قصدنا به ذلك لكان هذا خلطا بين التخصصات ، انما يقصد بالطبيب الأزهرى أو المهندس الأزهرى ، أن يكون طبيا يجيد فنه ويخلص له ويطوره ، ويكون له مع هذا روح اسلامى يجعله أكثر حساسية وشفاهية وسماحة ، وتربية الروح الاسلامى لا تحتاج الى منهاج الدراسى الذى يراه الطلاب عبئا ولا يستفيدون به مدى حياتهم .

واننا نتساءل :

هل استطاع المنهاج الحالى جذب الطلاب الى الفكر الاسلامى

أو فشل فى ذلك ؟

- هل ربي المنهاج الحالى روح الاسلام فى نفوس الطلاب ؟
- هل قدّم المنهاج الحالى قدرات اسلامية حقيقية للطلاب ؟
- هل ستعيش هذه الأفكار فى نفوس الطلاب وهم أطباء ومهندسون ...
- أو أنها أفكار من أجل الامتحان فحسب ؟

لنتنا نقدم هذه الأسئلة للطلاب أو الخريجين لنعرف رأيهم ؟ وعلى كل حال فان صلتى بطلاب كليات الطب بجامعة القاهرة وعين شمس تجعل من المؤكد أن أهم ما يحتاجه طلاب مثل هذه الكليات هو مادة مقارنة الأديان ومادة الحضارة الاسلامية ، وأحب أن أوضح اننا قد نضع اسم المادة دون أن يكون لها مدلول حقيقى فى المحاضرات ، ولذلك فالمطلوب أن نقرّر هاتين المادتين تقريراً حقيقياً وأن تدرساً على النمط الصحيح ، وتشمل هاتان المادتان كل ما يخطر بالبال حول تزويد الطبيب والمهندس ، بخير زاد ينفعه فى نفسه ، وينفعه فى أية بيئة يعيش بها بالداخل والخارج ، وتجعله يناظر أو يفوق الطبيب المستشرق أو المبشر .

ثالثاً — هناك خطر شديد على الدراسات الاسلامية بالأزهر ، لأن كل الطلاب الأقوياء الأذكياء الموهوبين يتجهون للشعبة العلمية وبالتالي الى الكليات العملية بالأزهر ، ولا يلتحق بالقسم الأدبى الا الطلاب الضعاف أو العاديون وعلى هذا ستختفى المواهب تماماً من بين الذين يكون فى أيديهم زمام الفكر الاسلامى ، وهم الذين يلتحقون بكليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية ، واذا كان جيلنا قد حقق بعض التفوق فى مجال الدراسات الاسلامية فذلك لأننا لم نجد طريقاً آخر غير هذا الطريق ولو كانت أمامنا فرصة للالتحاق بكلية الطب أو الهندسة لالتحقنا بهما وأخلينا مكاننا كباحثين فى الفكر الاسلامى .

واقترحى الذى اقدمه فى نهاية هذه الدراسة هو :
الغاء الشعبة العلمية من القسم الثانوى بالأزهر ، وتزويد الكليات العملية بجامعة الأزهر بطلاب من القسم العلمى بالثانوية العامة .

تطوير مناهج الأزهر باصلاحها التام باحياء العلوم الاسلامية
التي اختفت من المناهج كمقارنة الأديان والخضارة الاسلامية وتصحيح
العلوم التي انحرفت كالفقه والتفسير... وخذف العلوم التي ادعت أنها
اسلامية وهي في الحق غير اسلامية (١) .

والخير أردت وما توفيقى الا بالله ،

قضايا أزهية أخرى :

في مذكراتي التي أستعين بها علي كتابة هذه المرحلة نقاط خطيرة تتعلق
بالدراسات العليا بالأزهر من ناحية موضوعات الأبحاث وفائدتها والاشراف
عليها ، ونقاط خطيرة تتصل بمجمع البحوث الاسلامية ودوره في حراسة
الاسلام وخدمة الفكر الاسلامي ، ونقاط خطيرة ترتبط بصوت الأزهر في
مواجهة أعداء الاسلام ورد كيدهم ، وحراسة الدين والوطن ...

ولكني لا أجد أني في حل من شرح هذه القضايا ، فأكتفي بهذه
الاشارة العاجلة ليتذكر ميوخنا أيا كانت مواقعهم أن العالم يفتح عليهم
عيونه ، ويرصد تحركاتهم ، واذا كانت ظروف تقضي بأن ليس كل ما يعرف
يقال ، فقد يكون غيري في ظروف تسمح له أن يقول كل ما يعرف .

فلنتعاون معا لخير الدين والوطن ، ولنجعل الله وجهتنا في كل عمل
نقوم به .

الأزهر بالخارج :

نعود في ختام هذه الدراسة الى مطلع الحديث لنذكر وننتذكر الدور
الضخم الذي لعبه الأزهر عبر العصور وعبر الأقطار لخدمة الاسلام

(١) تراجع الدراسة المفصلة لذلك في كتابنا « تاريخ المناهج الاسلامية » .

(م ه - رحلة حياة)

والقضايا العامة ، وكم سجل التاريخ للأزهر من أعمال مجيدة في ميدان خدمة الدين وخدمة الأوطان ، وطالما كان منبر الأزهر هو منبر الشرق ومنبر الحرية ، وكان ثيوخ الأزهر هم ملاذ المظلومين وقادة المصلحين .

وقد حذت المعاهد الإسلامية بالعالم حذو الأزهر ، في أكثر خطواته ، فمنهاج الأزهر هي التي تدرس في أكثر المعاهد الدينية بالعالم ، وأسماء كلياته تسمى بها الكليات المناظرة هنا وهناك ، ففي السودان واندونيسيا وغيرهما توجد كليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة ، وتقتبس نفس المناهج التي تدرس بكل كلية من كليات الأزهر ، وهذا يجعل مسئولية الأزهر أعظم وأضخم ، لأنه يقود حركة الفكر الإسلامي لا في مصر وحدها بل في أكثر دول العالم ، وهذا يستلزم أن تسير خط الإصلاح والتحسين دون توقف ، فالتوقف هو الجمود والجمود هو الفناء .

في كلية دارالعلوم

مكانة دار العلوم بين مراكز الفكر الاسلامي :

يميل أبناء دار العلوم الى السرور بما قاله الأستاذ الامام محمد عبده عن هذه الدار وهو « تموت اللغة العربية في كل مكان ، وتحيا في دار العلوم » وهي قولة كريمة من امام كريم ، ولكن الذي شهدته عن دار العلوم وبخاصة في عهدها الجديد أفسح من نطاق اللغة العربية الذي ذكره الأستاذ الامام ، والدليل على ذلك أنني رأيت مرة احدى الدول الشرقية تحاول وتلح ليعار أحد أساتذة دار العلوم لتدريس التاريخ الاسلامي بجامعاتها ، وقال أحد المسؤولين المصريين لمدوب هذه الدولة : اذا تعذر الحصول على أستاذ من دار العلوم فمن الممكن أن نحصل عليه من كلية أخرى مناظرة ، وأجاب مندوب الدولة بأن أستاذ التاريخ الاسلامي من أبناء دار العلوم يمكن أن يشترك أو يساعد في منهاج اللغة العربية ، والأدب العربي والفقه الاسلامي وتفسير القرآن الكريم بالاضافة الى التاريخ ، وقد يساعد في مقارنة الأديان والتربية ، وأن أستاذ الشريعة الاسلامية من أبناء دار العلوم يمكن أن يعاون كذلك في علوم كثيرة بالاضافة الى الشريعة ... وهذا ما لا يتيسر لغير أبناء دار العلوم ، وكأنما دار العلم بذلك تحاول أن تحقق الفكرة الأصلية لانشائها وتسميتها ، فقد أنشئت وسميت لترعى صورا من الفكر على غرار « دار الحكمة » بمصر ، « دار الفنون » بتركيا حيث كانت هذه وتلك تمثل جامعة متعددة الدراسات .

وقد عشت في دار العلوم طالبا ، وعشت بها مدرسا وأستاذا مساعدا وأستاذا ، وأسهمت في نشاطها خلال كل هذه المراحل ، فمن حقها أن نقف معها وقفة نستعرض الماضي ونقترح للمستقبل .

دار العلوم في عهدنا :

كانت دار العلوم في عهدنا ست سنوات منها أربعة لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية تنتهي بشهادة « الليسانس » في هذه

المواد ، أما السنتان الأخيرتان فلدراسة التربية وعلم النفس لتأهيل الطالب لمهنة التدريس اذا شاء ، ويمنح « دبلوما » بذلك ، وفي سنة ١٩٤٤ خرجت أول دفعة من هذا النظام ، وجاءت فرقتنا بعدها فخرتُنا سنة ١٩٤٥ ، ثم حولت دراسة التربية وعلم النفس الى معهد التربية ، وعادت دار العلوم أربع سنوات مخصصة كما كانت لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، واكتفى بعض خريجي دار العلوم بهذه الشهادة وراحوا يعملون في الصحافة والاذاعة والوزارات والمصالح المختلفة ، وبعضهم التحق بالتدريس ونال دبلوم التربية في دراسات مسائية ...

وكانت دار العلوم في عهدنا « داخلية » فقد كان عددنا قليلا جدا اذ كانت فرقتنا حوالى ثلاثين طالبا وكذلك الفرقة التي قبلنا وهي دار هذا النظام وجاءت الفرقة التي بعدنا على هذا النحو ، وكان الدخلى كان قد أنشئ لرعايتنا فقط لأنه توقف بعد ذلك ، فقد أخذ عدد الطلبة يتزايد ولم يتسع المكان لمزيد من الطلاب بالقسم الداخلى ، وامن تبذل جهود لتدبير مكان آخر ، وبقينا نحن بالقسم الداخلى حتى تخرجنا .

لقد حمانا هذا النظام من متاعب الحياة التي كان الطلاب يعانونها بالقاهرة ، حمانا من الأزقة والحارات والأمكنة التي تبعد الى حد كبير عن النظافة وعن حسن المعاملة ، وخلق هذا النظام صداقات ، وودا بين جماعات الطلاب الذين كانوا يحسون أنهم الى حد كبير أسرة واحدة ...

وكانت دار العلوم تقف في مهب العواصف ، وتتناوبها الأعاصير . اذ كان الأزهر قد أعلن نظامه الجديد في مطلع الثلاثينات والذي يقترن بقيام كلية للغة العربية مع كليات أخرى ، وكان يشترط أن وجود كلية للغة العربية بالأزهر يعنى عدم الحاجة لدار العلوم ، ثم كان الأزهر يمر بفترة ازدهار في قياداته ، فقد تسلم مشيخة الأزهر شيخان يعتبران من قمم الإصلاح والفكر هما المرجومان الأستاذان الطواهرى والمراغى ، وكان لهما نفوذ علمى وسياسى ، وقد نجحت هذه الحركة الأزهرية بتحويل

المختلفة فأوقفت « تجهيزية دار العلوم » وهي المدرسة التي كانت تعد الطلاب للالتحاق بدار العلوم ، وكان معنى البغاء التجهيزية أن المغين الذي تستقى منه دار العلوم قد نصب ، وستنصب بالتالى الدار نفسها ، وأخذت الدار تأخذ طلابها من الحاصلين على ثانوية الأزهر مؤقتا حتى تدبر أمورها أو تزول •

ولعل قلة عدد الطلاب الذين سمح لهم بالالتحاق بدار العلوم ابتداء من النظام الجديد كان أيضا استجابة للضغط الذى تعرضت له هذه الدار ، لما ظهر أن ميزانية الدار أوسع من عدد هؤلاء الطلاب اتجه القائمون بالأمر الى انشاء القسم الداخلى ليمتص هذه الميزانية •

ولم يكن الأزهر وحده هو الذى يصارع دار العلوم بل اشتركت كلية الآداب بجامعة القاهرة فى هذا الصراع (لم تكن الجامعات الأخرى بمصر قد ظهرت بعد) وكانت كلية الآداب أيضا تعيش أزهى عصورها حيث كان بها مجموعة من أساطين الفكر آنذاك مثل طه حسين وأحمد أمين ، وكان من وسائل طه حسين للقضاء على دار العلوم والقضاء على كل صوت يدافع عنها وعن ضرورتها أنه جذب الى كلية الآداب مجموعة كبيرة من خيرة أبناء دار العلوم حتى لا يقال أن للدار طابعا خاصا يحتم وجودها ، ومن هؤلاء الأساتذة أحمد الشايب والسقا وإبراهيم حمودة وغيرهم ليغنوا كلية الآداب بما عندهم من خبرات ، وليثقلوا اليها طابع دار العلوم •

وبين هذا الصراع كان الزمن يمر ، وخرجت من المعاهد الثلاث دفعة أثر دفعة ، وتزامل الخريجون فى التعليم بوزارة التربية والتعليم وجاءت التقارير تحتم ضرورة بقاء دار العلوم • وبقيت دار العلوم •

ورأت جامعة القاهرة أن تحسم الخلاف بين دار العلوم وكلية الآداب فوضمت دار العلوم كلية بين كلياتها سنة ١٩٤٦ وحل التعاون الى حد كبير! منحل المنافسة والصراع •

واتجهت بعض محاولات الأزهر لصرف الحاصلين عن الشهادة الثانوية منه عن الالتحاق بدار العلوم وذلك للقضاء على المعين الذى تستمد منه دار العلوم طلابها فقفر عميد كلية دار العلوم قفزة خطيرة النتائج ، واستصدر قراراً سنة ١٩٥٣ بجواز أن يلتحق بالكلية الحاصلون على الثانوية العامة من الذكور والإناث ، ومنذ ذلك التاريخ انكمش عدد الطلاب الأزهرين بالكلية ، ودبت بفنائها ومدرجاتها أقدام الجنس اللطيف •

مستوى الكلية عبر نصف قرن :

ماذا نرى لو استعرضنا مستوى الكلية العلمى عبر نصف قرن (١) ؟ •

فيما يتعلق بالمناهج نرى أن المناهج الحديثة منذ ضمت الكلية للجامعة أصلح من المناهج القديمة ، وأوفى بالغرض وأشمل بالحاجات التى يتطلبها الإنسان المسئول عن الثقافة العربية والإسلامية ، وفى الكلية قسم لتاريخ الأدب والنصوص ، وقسم للبلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن ، وقسم للنحو والصرف والعروض ، وهذه الأقسام الثلاثة تشمل بالدراسة مختلف الأبواب ومختلف عصور الأدب واتجاهات النقد •

وفى الكلية قسم للشريعة الإسلامية وقسم للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وقسم للفلسفة الإسلامية ، وفى هذه الأقسام دراسات فيها شمول وعمق فى هذه الاتجاهات المختلفة ،

وفى الكلية لغات حية وبعض اللغات الشرقية وبعض المواد الثقافية •

وهناك فرق واضح رأيت وعاشرته فيها يتعلق بما عرفته طالباً من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وما أقدمه أنا وزملائى من

(١) انشئت الكلية منذ قرن كامل ، ولكن المقارنة تتصل بنصف هذا القرن فقط ، فقد شهدنا خلاله جيل أساتذتنا وجيلنا وجيل طلابنا (انظر تاريخ الكلية فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف) •

هذه المسادة في المنهج الجديد ، فالذى كان يحدّرس لبنا شذرات لا تعطى صورة ما عن أحداث التاريخ من ناحية عرضها وناحية شمولها وناحية فلسفتها ، أما الذى نقدمه فيمتاز الى حد تكبير بالشمول والعفوق والاحاطة بهيما يتعلق بالتاريخ وفلسفة التاريخ وحضارة الاسلام والمسلمين ومثل هذا يقال بالنسبة للمواد الأخرى .

وفيما يتعلق بالأساتذة نقرر أن كل جيل أدى مهمته في عصره خير أداء ، وكان الجيل الماضى يضمّ أعلاما في علوم اللغة والأدب لهم جهد عظيم في هذا المجال ، أما الجيل الحاضر فتخصصات دقيقة من مختلف جامعات العالم في كل فروع الفكر الذى يرتبط بهذه الكلية ، وأعضاء هيئة التدريس بالكلية جميعا ممن يحملون درجة الدكتوراه ولهم دراسات وبحوث يشهد الكثير منها في نطاق البحوث العالمية ، ولو عرضنا المؤلفات التى ظهرت لأعضاء هيئة التدريس بالكلية منذ انضمت للجامعة الى الآن لرأينا مكتبة عربية واسلامية تدعو للفخر والاعجاب ، فيها دراسات عن القصة والشعر الحديث وشعر المهجر والالتزام في الأدب والتاريخ ، وفيها موسيقى الشعر وموسوعة عن التاريخ الاسلامى وموسوعة عن الحضارة الاسلامية وسلسلة عن مقارنة الأديان وفيها أفنانين وأفنانين في الفلسفة والتصوف والشريعة وغيرها من العلوم .

اساتذة الكلية في المحيط العالمى :

وجهود أساتذة كلية دار العلوم لا تقف عند هذه الكلية ، فان كثيرين جدا منهم أعيروا لجامعات كثيرة في العالم ، وأثبتوا بها أرقى درجات النجاح ، وانك لتراهم في كل الجامعات العربية في مختلف الأقسام التى تدرس اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية والشريعة وتراهم كذلك في جامعات الشرق الأقصى وفي نيجيريا وانجلترا وغيرها . هذا بالاضافة الى ما يسهمون به من نشاط في الكليات الأخرى وفي كثير من معاهد الدراسات العليا ، وبالإضافة الى نشاطهم

الملموس في الاذاعة والتليفزيون والصحافة والمحاضرات العامة والخاصة .

طلاب الكلية من عهد الى عهد :

وفيما يتعلق بالطلاب نجد الامر الآن يختلف تمام الاختلاف ، صحيح أن بعض الطلاب الآن ممتازون ولكننا هنا نتكلم عن المجموع بصفة عامة ، لقد كان طلاب دار العلوم في الماضي يمرون بمراحل مهمة تهيئهم للالتحاق بالدار ، كانوا يلتحقون بمدارس المعلمين الأولية ثم بتجهيزية دار العلوم ، وهم بذلك يمضون سنوات متعددة تؤهلهم للالتحاق بالدار وعندما يصلون اليها يكونون في مستوى طيب فيما يتعلق بالعلوم العربية والاسلامية ، وعندما ألغيت تجهيزية دار العلوم استمدت الدار طلابها من حاملي ثانوية الأزهر بعد اجراء امتحان تحريري وشفوي للمتقدمين ليختار منهم أحسنهم ، والحاصل على ثانوية الأزهر أمضى تسع سنوات في دراسة العلوم العربية والاسلامية بالأزهر ، فاذا اختير من بين هؤلاء صفوتهم فمعنى هذا أن طلاب دار العلوم كانوا قوما في مجال الدراسات العربية والاسلامية .

وكان طلاب دار العلوم محدودى العدد ، فكان المدرس يعرفهم واحدا واحدا وكان تدريبهم على التطبيق والأبحاث عملا ممكنا ، ولم تكن ونحن طلاب بدار العلوم نعرف رفاهية العصر الحديث المتمثلة في صور متعددة كالكاميرا ، وحرية دخول المحاضرات أو النزهة بالفناء ، والباب المفتوح دائما لمن شاء أن يدخل أو أن يخرج وقتما يشاء ، وكانت الساعة التي ليست بها محاضرة لأنها خالية بالجدول أو لغياب الأستاذ المحاضر ، تعد ساعة دراسة بالمكتبة ، ويمكن القول دون مبالغة أننا كنا نعرف محتويات المكتبة أو أكثرها ، وكنا أصدقاء لأمنائها .

ماذا عن طلاب العصر الحديث ؟

كل شيء مختلف تماما ، فبدل صفوة الحاصلين على ثانوية الأزهر ، نستقبل الدار آخر الحاصلين على الثانوية العامة ، والفرق كبير جدا بين

الطائفتين ، فلانا مثلا وزملائى لم تكن بنا حاجة — بعد ثانوية. الأزر — الى أية دراسة أو زيادة فى مجال النحو والصرف والعروض فقد كنا نعرف مستوى رفيعا فى هذه الدراسات وكل ما كنا نحتاجه هو بعض الفلسفات حولها وبعض فروع التخصص فيها وكنا فى الفقه الاسلامى وتفسير القرآن الكريم وغيرهما من الموضوعات ، على هذا النحو كذلك .

أما الحاصل على الثانوية العامة من ذوى المجموع المتواضع فمستواه العام ضعيف ، ومعارفه بعيدة كل البعد عن التخصص فى علوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية .

وانه المجموع وحده هو الذىلقى بالطالب فى هذه الكلية ، ولاشئ آخر غير المجموع الهزيل . انه يدخل الكلية خالى الوفاض ويحتاج الى تشكيل جديد ، وبناء جديد ، وسنوات الجامعة لا تتسع لهذا التشكيل .

قد يكون ضعيفا فى اللغة العربية . وعدوها لها ، ولكن المجموع يدفعه ليتخصص فيها . يا لله ! ! .

أما الطلاب الأثرياء فيتجهون للقسم العلمى ، والطلاب الذين يحصلون على مجموع مرتفع من القسم الأدبى يتجهون الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ...

والحق أنه يتحتم ان تختار صفوة من الطلاب لكلية دار العلوم ونظيراتها من اا ايات التى تخرج المعلمين ، لأن هؤلاء هم الذين سيعلّمون اا اا الذى سيديج منه الأدباء والمهندسون والقضاة والمفكرون فيما بعد . ويوم يذسف المدرسون سيضعف كل هؤلاء ، ان طالب دار العلوم الذى يدخل دارنا سيخرج ضعيفا على كل حال ، مهما حاولنا معه . وان يتألم أن بماذا نفوس تلاميذه ، وسيطررد الضعف من جيل الى جيل .

وبالإضافة الى مستوى الطلاب عند الالتحاق هناك مشكلة العدد ،
فقد كنا طلابا في دار العلوم وعدد الفرقة حوالي أربعين طالبا ، وأصبح
عدد الفرقة الآن عدة آلاف ، وعدد المدرسين أقل من عددهم من قبل .

والكاثيريا تجفب عددا كبيرا من الطلاب الذين يَحْسَبُونَ علينا
دون أن يجلسوا إلينا ، ويمضون أوقاتهم في ظل شمسي البحر ونسيم
الأشجار وأجاديث الصبا .

والطالب حر أن يدخل المحاضرة أو يجلس في الفناء أو يبقى في بيته
الى آخر العام أو يلتحق بوظيفة ما وهو طالب ويحسب أيضا علينا ،
وليست لنا به صلة ، ولا يمكن أن نعرف الغائب من الحاضر في هذه
الأعداد الكبيرة .

وباب الكلية مفتوح لكل أبواب الكليات والجامعات ، وكان هذا
الباب ، في عهدنا موصدا دائما الا في مواعيد مجذبة ، واذا اضطررنا الى
الخروج في غير هذه المواعيد كان علينا أن نأخذ إذنًا من « خليل أفندي »
أو نهمس ببعض القروش الى « عم محمد » فيلتبس بفرصة ليخرجنا .

وطلاب هذا العهد ليس لهم على المكتبة اقبال ، ولا يربطهم بها
ارتباط ، وهم لا يعرفون — غالبا — الا الكتب الدراسية البسيطة .

هل من علاج لهذا الداء ؟ .

نعم هناك علاج ناجح ودواء سريع المفعول بعد ما ذكرناه من
تشخيص للمرض وايضاح للمشكلة .

انه الطالب يتحتم أن تُوجَّه له كل العناية ، وعلى الجامعة أو مجلس
الكلية أن يقرر ألا يدخل كلية دار العلوم الا من حصل على مجموع مرتفع
في الثانوية العامة على أن يكون مجموعته في اللغة العربية مناسباً لذلك .

ربما يعترض بأن طلاب هبيذا المشغول لا يقبلون على كلية دار العلوم والاجابة هي :

أولا — الاكتفاء بالطلاب الأقوياء وإن قلّ عددهم فلا غائدة من الكثرة الضعيفة ولن يربّى المعلم الضعيف جيلا ناجحا للمستقبل .

ثانيا — المقضاء على الفكرة التي خلقها الاستعمار ، وهي التقليل من شأن مدرس اللغة العربية كوسيلة لاضعاف الوطنية بين العرب ، وتصحيح هذا الوضع بابرار أن اللغة القومية أسمى اللغتين عقدنا كحال اللغتين الانجليزية في انجلترا ، والفرنسية في فرنسا .

ثالثا — تبرز امتيازات الكلية بطريقة الإعلام ، فمن الواضح أن لهذه الكلية امتيازات كبيرة ، وبها وسائل للإغراء ، ولكن التعريف بها قليل ، ومن هذه الامتيازات :

(أ) سرعة التعيين دون انتظار ما يسمى بالقوى العاملة التي يتأخر صدور قرارها عامين بعد التخرج أو أكثر من عامين .

(ب) الاستمتاع بوظيفة عالية المستوى مرتبطة بالتخصص بدراسية الطالب ، فلا يلقي الطالب هنا أو هناك دون عمل أو في عمل بعيد عن تخصصه ودراسته .

(ج) الاستمتاع بإجازة صيفية طويلة .

(د) اتاحة الفرصة للمدرسين ليسافر للخارج معيارا لكثير من الدول التي تطلب المدرسين المصريين وتقدم مرتبا كبيرا .

(هـ) الحصول على دخل اضافي عن طريق الدروس الخصوصية التي تنظمها المدارس ، وعن طريق الانتداب للمراقبة وتقدير الدرجات في الشهادات العامة .

(و) تأجيل التجنيد أحيانا في لفترة يجتذب الجيش كل الخريجين أو أكثرهم بمجرد تخرجهم •

رابعا — تقدم الدولة حوافز لتغري الطلاب بالالتحاق بهذه الكلية ، ويمكن أن تكون حوافز مادية كمبلغ شهري يقدم لكل طالب •

خامسا — من الحوافز التي تغري الطلاب بالالتحاق بكلية دار العلوم أن نقضى على صورة ارهابية تهدد الطلاب ، وتتمثل هذه الصورة في الرسوب الضخم الذى يحصل كل عام في الأدب العربى أو النحو أو البلاغة . ويترتب على ذلك اعراض الطلاب عن هذه الكلية خوفا من هذه المواد ، فمن الواضح أن الطلاب لا يخافون من التاريخ أو الفلسفة أو الشريعة خوفا من القواعد ، ولست أحب أن أدخل في تفاصيل ما يتم من تسهيلات ، وأدع ذلك لأساتذة هذه المادة ، والى تقديرهم لخوف الطلاب من سلاح مضلت يهددهم فيجعلهم يبتعدون عن هذه الكلية ، وأكتفى بأن أذكر أن الجاحظ كان يوحى « بالا يتشغل قلب المتعلم بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام ، في كتاب ان كتبه ، وشعر ان انشده ، وشئ ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به كرواية الخبر الصادق والمثل الشاهد والمعنى البارع » (١) •

ان قواعد اللغة العربية شئ مهم جدا للطلاب ، ولكن المستعمل من القواعد هو ما ينبغى أن توجه له أكثر العناية ، أما التصغير وبعض صور الاعلال والابدال فيكفى الإمام بها كثرات فقط •

ومرة أخرى لابد من عمل شئ فيما يتعلق بهذه المواد ، وما أجدر أساتذتها بعمل ذلك الشئ والاتجاه بهذه المواد الى التدريب وحسن الاستعمال •



ويُتَّبَع مع طالب كلية دار العلوم طريق آخر غير ذلك الذي يسير فيه طلاب الكليات الأخرى ، فينزع معلم المستقبل من أسلوب الحياة الجامعية الجديد الذي وصفناه آنفا ، ويربى معلم المستقبل في جو تربوي أصيل ، يلاحظ فيه جانبه العلمي والأخلاقي معا ، ويدرب ليكون مربيا يهتم في مدرسة المستقبل بالنظام والخلق كما يهتم بالعلم .

ونعقد صلحا بين الطالب والمكتبة لنربى فيه الرغبة في الاطلاع وتوسيع الثقافة .

ويزداد عدد المدرسين والمعيدین بحيث يكون هناك اشراف على كل الطلاب ، ودرجات لأعمال السنة حتى يهتم بها الطلاب ولاشك أننا بذلك نخرج المدرس الناجح الذي تتطلع له النفوس وتهفو له الآمال .

* * *

وهناك مسألة خفيفة تثور بين الزملاء أحيانا ، وهي عن مدى ضرورة التوسع في الدراسات الاسلامية بكلية دار العلوم ، ويجيب أساتذة الدراسات الاسلامية في ذكاء وود بأن اللغة العربية جاءت إلى هذه البلاد في أعقاب الدراسات الاسلامية وتابعة لها ، ومحاولة عزلها عن القرآن وعلومه وعن التاريخ الاسلامي والفلسفة الاسلامية محاولة تضعف للغة العربية أكثر مما تشعنها وتثريها وقواعد اللغة العربية ليست هدفا وإنما وسيلة ليحسن الانسان التعبير عن كلامه يقوله ، وهذا الكلام هو ما يقدمه له أساتذة الدراسات الاسلامية والأدبية .

« المودات » والمباحيق للطلاب والطالبات

وهناك همسة مهمة نهمس بها في آذان طلاب الكلية وطالباتها ، ولعلها تنقلب من همسة الى صرخة ، ومن طلاب كلية دار العلوم وطالباتها الى الطلاب والطالبات في مختلف الكليات والمعاهد ، بل الى المرأة في مختلف المصالح والادارات •

الهمسة أو الصرخة تتحدث عن موقف الطالب والطالبة مما يسمى « المودة » وأقرر في هذا الحديث أنني لست رجعياً لأننى عشت فترات طويلة من العمر في أرقى بلاد العالم ، ولأننى لازلت أعيش في مستوى طيب من مستويات الحياة ، ولذلك فإن عرضي لهذا الموضوع يتسم بالدقة والاتزان •

في كليتنا — ككل الكليات والمجتمعات في بلادنا — شباب أطال سوافه وأطلق شعره ، وشبابنا في ذلك يقلد اتجاهات غربية ، وأنا شخصياً ليس لى اعتراض على هذا ، فطول الشعر عرفه التاريخ في عصور مختلفة ولم يكن به ما يدعو للتقزز ، ولا يزال الناس يرون صورة المصلح جمال الذين الأفغانى وقد تدلى شعره من تحت عمامته ، وأوشك أن يسدل على كتفيه ، وفي الغرب عثرف بعض « الخنافس » بالبراعة في الموسيقى والغناء ، وفي الدورة — الأولومبية التى عقدت في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٢ بمدينة ميونيخ بألمانيا الغربية نقلت لنا الشاشة الصغيرة صور العديد من أبطال الرياضة وقد أطلقوا شعورهم وأطالوا سوافهم ، كما نرى صور العديد من الشبان الطموحين الذين يشتغلون بمختلف الفنون والعلوم وقد فعلوا ذلك أيضا •

ولكن « المودة » في بلادنا تختلف عنها في أكثر بلاد العالم ، فأكثر الذين يطيلون سوافهم هنا ويطلقون شعورهم يرون هذا هدفهم الأوحـد ولا يحققون معه أى نبوغ ، فإذا ما أطال الشاب شعره أمسك في يده

سيجارة وارتاد أماكن اللهو أو سار يتسكع هنا وهناك وحسب أنه حقق كل شيء ، ولم أر قط في كليتنا شابا أطلق سؤاليه ثم أدى واجبه واستحق التقدير ، فالسؤال في بلادنا مظهر من مظاهر التفاهة واللامبالاة .

همسة عميقة الى شبابنا أن يهتموا بواجباتهم ، وأن ينالوا من الملاذ المباحة ما لا يقصّر بهم عن أداء الواجب .

فاذا جئنا الى الطالبات وجدنا الأمر أقسى وأصعب ، ففى كليتنا وفى الكليات الأخرى ، وفى المصالح والوزارات تظهر بعض النساء على نحو يتنافى مع الدين ومع تقاليد الشرق ومع الذوق العام ، فالملابس القصيرة (المينى جيب والميكرو جيب) تبدو هنا وهناك وأوجه كثير من الفتيات والسيدات تعلوها طبقة كثيفة من المساحيق ، ولسنا نستطيع أن نبيح هذه الملابس حتى للطالبات المجتهديات كما أبحن طول الشعر ، لأن المشرع الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى حرّم هذا الوضع وليس لإنسان أن يجتهد فيما فيه نص ، قال تعالى « يا أيها النبى قل للأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (الأحزاب ٥٩) وقد حسمت بعض البلاد هذا الأمر فأصدرت قرارات بمنع هذه الملابس ، ورضى الجميع بهذه القرارات ، وترك الأمر فى بلادنا للآباء مع أن المجتمع له سلطانه ، فمن الصعب على أن أمنع ابنتى مع أن زميلتها فى الكلية أو النادى أو العمل تلبس ما تشاء ، اننا بذلك نخلق صراعا فى البيوت وصراعا فى المجتمع ، ولو صدر قرار عام لرحب به الجميع حتى المرأة المتحررة .

أما المساحيق فشأنها عجيب ، كيف تستطيع المرأة العاملة أو الطالبة أن تجد الوقت لوضع هذه الألوان وحبكتها ؟ وما فائدة هذا الجهد ؟ انه لن يجذب رجلا لراغبات الزواج ، لأن الراغب فى الزواج يكره غالبا الحلوى المكشوفة التى تجذب الذباب ، وإذا جذبت هذه المساحيق زوجا فإنه لن يكون زواجا مستقرا وربما جذبت هذا الرجل مساحيق أخرى أعظم اتقاناً وأدق صنعا .

افنى أعبر عن رأى الكثيرين حين أقرر أننا نشمئز من هذه المناظر بالجامعة ، ونراها فى غير مكانها اللائق ، وكم تستطيع المرأة أن تجذب لها الأنظار بأخلاقها وأناقته التى لا تكلف فيها ولا خروج عن المألوف .

ان الرجل الفنان يحب الجمال فى الزهرة الفينانة ، وفى الخضرة اليانعة ، وفى الماء المنساب ، ويجب الحمال الحى فى المرأة ، ولكنه يتطلع بعمق الى ما تحت المساحيق ولا تخدعه المساحيق . أما أولئك الذين تخدعهم الألوان الزائفة فهم ضعاف النفوس والأفكار .

والعجيب أن بعض الزوجات العاملات يهملن أنفسهن بالمنزل أمام أزواجهن ، فإذا جاء وقت الخروج جاست الواحدة أمام المرأة فترة طويلة لتعد زينتها وتتألق فى ملابسها فأصبح المنظر الجميل هبة المرأة للخارج . وأصبح نصيب الزوج من أناقة زوجته ضئيلا محدودا .

وقد تجتذب المساحيق عين الرجل ، ولكنه فى الواقع اعجاب بدقة الصنعة لا بروعة المرأة التى تصنعها ، لأن عين الرجل الذكى لا تقف عند المساحيق ولكنها تنفذ الى ما تحت المساحيق ، الى الطبيعة التى حاول الزيف اخفائها .

وهناك صيحات بهذا المعنى تقدمها كاتبات مصريات ، وتقدمها زائرات أجنبيات تطرين المرأة المصرية ، وتقدمن لها دعوة أن تعود للطبيعة وأن تترك التبذل الذى يضر أكثر مما ينفع .

ومن هذه الآراء ما كتبه محررة « أخبار حواء » بجريدة الأخبار يوم ١٩٧٢/٩/٢٤ وفيما يلى خلاصة ما كتبه :

كان ينبغى أن تكون الطالبة الجامعية والمدرسة والموظفة عنوانا طيبا ومثلا أعلى للفتاة المصرية ، ونحن لا ندالب هؤلاء بالتخلّى عن الأناقة ، ولكننا ننبه الى أن الأناقة والذوق الرفيع هما عكس البهرجة والاسراف فى

الماكياج والملابس الخلية ، وتأخذنا الغيرة أحيانا على الفتاة المثقفة فنصرخ بأن الفتاة التى تسرف فى البهرجة وتلبس الملابس الخلية ليست عنوانا لحصر ، وانما هى من الفتيات اللاتى تتجهن للتسكع فى الشوارع ولفت أنظار الجماهير ، ولكن تصيينا الصدمة عندما يقال لنا ان اللاتى تلبسن هذه الملابس وتظهرن بهذه البهرجة هن فى الواقع من طالبات الجامعات •

رجاء وأمنية أن تنتقد الفتاة الجامعية سمعتها من هذه الاتهامات وأن تصبح بحق الصورة المشرفة لوجه مصر •

بقيت — عن كلامنا عن دار العلوم — فكرة تظهر فى مذكراتى وتعيش فى خلدى . فقد كنا — كما سبق القول — بالقسم الداخلى بالكلية ونحن طلاب ، وكان عنبرنا يَطْلُثُ على شارع المبتديان ، وكنا نشاهد مرة فى الأسبوع على الأقل عملية غسيل للشارع أوتوماتيكيا ، فكانت سيارة مجهزة بجهاز أوتوماتيكى للغسيل تروح وتغدو بالشارع حتى تتركه كالمرآة كما يقولون ، وتنتقل من حى الى حى •

ولايزال شارع المبتديان يعيش ، ولكن الحال قد تغيرت بعد أكثر من ربع قرن من الزمان ، فقد اختفت السيارة الأوتوماتيكية ، واختفت كل وسائل النظافة تقريبا ، وارتفعت حول الكلية أكداس الزباله ومناظر القاذورات ... يا لله ! كيف انحدرنا وكان ينبغى أن نصعد ؟ •

مع الشعر

الأدب والشعر :

بعد الحديث عن القسم الثانوى بمعهد الزقازيق والحديث عن دار العلوم ينبغى أن نقف وقفة نتحدث فيها عن الشعر ونصيب فيه ، وقد سبق أن قلت أن نزعة أدبية لمستثها فى نفسى فى أخريات عهدى بالقسم الابتدائى ، وأن هذه النزعة الفجة قد نضجت فى القسم الثانوى ، فلما التحقت بدار العلوم صَقَلَت هذه الموهبة الى حد كبير ، وهذه الموهبة الأدبية كان لها عندى مظهران ، المظهر الأول الشعر وسنخصه بحديث طويل بعد قليل ، أما المظهر الثانى فهو النثر خطابةً وكتابةً ، وهذا المظهر الثانى كان ولا يزال وسيلتى فى كتابة ما ألفت من كتب وما نشرت من بحوث ، وما ألقيت من محاضرات عامة وخاصة ، فقد كانت سهولة التعبير عما بنفسى من أفكار من أهم الأسباب التى يسَّرت مهمتى كمؤلف وأستاذ ، والحمد لله واهب المنن الذى هدى لهذا وما كنت بسواه قادرا على التأليف بسلالة وانسياب ، وهناك كثير من المفكرين والباحثين لديهم أفكار مفيدة ، ولكن تعبيرهم عنها بالكلمة المقولة أو بالكلمة المكتوبة صعب ، وقد تعجز العبارات التى يكتبونها عن حمل الأفكار التى يحملونها ، فليت هؤلاء يتجهون بمزيد من الجهد لتكوين الأداة أو الوسيلة كاتجاههم لتكوين الفكر والبراعة فى البحث ، فالكلمة هى سبيل نقل الفكرة من داخل الانسان الى المجتمع ، وسبيل حراسة الفكرة من جيل الى جيل ، وقد عاشرت كثيرا من الزملاء بالخارج وبعضهم كان يسهل عليه أن يعبر عن نفسه بالانجليزية أكثر مما يستطيع بالعربية وقد كانت تأخذنى الغيرة على لغتنا الجميلة ، وعلى ما تمدته لكثير من الباحثين بما يسمى السهل الممتنع •

ولنكتف فى الحديث عن النثر والخطابة بهذا القدر وفى الكتب التى أخرجتها والمحاضرات التى ألقيتها ما يشفع لى بالاكفاء بهذه الاشارة ، أما الحديث عنى كشاعر فيحتاج منى هنا الى وقفة أطول وأفسح ، فلقد لعب الشعر دورا مهما فى حياتى ، واذا كنت الآن أطيل الجلوس بمكتبى

مع المراجع لأدوّن فكرة ، أو أحصل بعض مراجعى الى النادى لأبحث فيها ، فظالما فعلت مثل ذلك مع الشعر فى مطلع الشباب . ولكن افئذى العلمية ظهرت للوجود ممثلة فى عشرات الكتب التى طبعتها واعدت دليبعها مرارا ، بيد أن شعرى أو شك أن يختفى ، وكثيرون جدا ممن يعرفوننى كاتباً ومؤلفاً لا يعرفون عنى شيئاً كشاعر . وهى مرحلة من العمر اعلم ان الأوان للإشارة اليها فليس من العدل أن تضيع .

طرف حول الشعر :

ولا يخلو الحديث عن الشعر من طرف أسرد فيما يلى بعضها :

فى معهد الزقازيق كان هناك بطبيعة الحال منافسات بين الدارسين المتفوقين ، وكانت هذه المنافسات بريئة وطنية . وكانت أحيانا تتعدى المنافسة الفردية الى الجماعية بمعنى أن جماعات من الدالاب كانت تتعاون وتتعاون علميا وأديبا ، علميا فى المذاكرة وأديبا فى جماعات الشعر والخطابة والتعصب لهذا أو ذاك ، وكان لى زميل ينافسنى فى مجال الشعر . وانا وقفنا معا فى المناسبات المتعددة ليلقى كل منا قصيدته . فأنال انثر الاعجاب أو يناله زميلى ، وكان هناك طالب من بلدة هذا الزميل يصفق لشعرى ويعتز به أكثر مما يفعل مع ابن بلده ، وفى مرة ضاق منافسى الشعر بصدق بصديقى ابن بلده فقال له : انك تفاخر بشعر شلبى وانت لا تعرف الشعر ، ولما عرفت ذلك أوعزت اليه أن يجيب بأنه يقرض الشعر على نسق لا يقل عنه ، ولكنه لا يجب اظهاره احساسا منه بأنه دون المستوى المطلوب ، ومنذ ذلك الحين بدأت منافسة جديدة بين الاثنين .

لم يكن صديقى هذا شاعرا ، ولعله لم ينظم بيتا واحدا من الشعر طيلة حياته ، ولكنى كنت خلكفه ، أنظم له قصائد من حين لآخر ا يظهر بها فى المناسبات ، وهب صراع طويل ، فهناك شكوك واسعة بأن هذه المفاجأة

الشعرية ليس لها أساس ، وأن المؤلف الحقيقي لهذا الشعر هو أنا ، ولكنى كنت أنكر ذلك باصرار ، وأدع صديقى يردد هذا الشعر بزهو وسرور على أنه شعره •

وطال أمد هذا التصرف حتى قال لى صديقى مرة : « لقد بدأت أحس بأن هذا الشعر هو شعري أنا فعلا » فشجعته بأن يتمسك بهذا الاحساس ، وكانت أسهم هذا الصديق توشك أن ترتفع على أسهم الشاعر الحقيقي الذى كان ينافسنى ، فأصبح ابنٌ بلدٍه يشغله بالمنافسة •

وفى اجازة الصيف ذهب هؤلاء الى بلدتهم وذهبت الى قريتى ، وكانت المسافة بين القريتين حوالى ثلاثين كيلو مترا ، ووجد الشاعرُ الحقيقى ورغاقه الفرصةَ سانحةً للايقاع بصديقى وكشف أمره ، فانتهزوا مناسبة من المناسبات الدينية — هى الهجرة النبوية الشريفة — وأعلنوا عن اقامة حفل بهذه المناسبة يدعى له أعيان البلدة والمثقفون ، ودعى صديقى ليسهم بقصيدة فى هذا اللقاء ، وكان ذلك قبل موعد الحفل بيومين •

قال لهم صديقى : ان الوقت ضيق ، وربّة الشعر قد لا توانينى فى هذه الفرصة ، ولكن أصواتا كثيرة صاحت فيه قائلة : ان عدم اشتراكك سيقوّى وجهة نظر الذين يدعون بأن الشعر الذى تقرّؤه هو شعر شلبي وأن بعدك عنه بعدٌ عن الشعر وعن ربّة الشعر ، وظهر طابع التحدى فى هذا الأمر • قال صديقى : انى أقبل التحدى ، واتركونى لأخلو الى نفسى ، وأرجو أن تنطلق قدراتى الشعرية •

ولم يَضَعْ صديقى وقتا ، واتجه الى محطة السكة الحديدية والتقط المظار لى ، وفوجئت به أمامى يصرخ قائلا : لقد أوْشك الأمر أن ينكشف ، وقصّ على قصته ، قلت : هوّن عليك ، فلهذا الداء دواء حاضر ، خذ هذه القصيدة التى أعدتها لنفس المناسبة • فأخذها وقفز قائلا : هذه كل

تحيتي ، أريد أن أعود بسرعة قبل أن يحس أحد بأنى فارقت القرية .
وعاد دون توانٍ ، كان معهم في الصباح وراؤه في الظهيرة والمساء فلم
يخطر لهم ببال أنه سافر لى ، وفي الليلة التالية كانت هذه القصيدة تلقى
في حفلين ، ولكن المستمعين هنا غير المستمعين هناك ، ومنذ ذلك التاريخ
أصبح صديقى في نظريهم شاعرا دون أدنى ريبة .

ومن الطرف التى تتصل بالشعر ما حدث في كلية دار العلوم . فقد
كنا بالقسم الداخلى ، وكانت المذاكرة والسهر والجهد تنتزع ابتداء من
شهر مارس حيث تعيش الكلية نهارها وليلها في وهج وجِدٍ . ومبنى
كلية دار العلوم كان يقع بالقرب من جاردن سيتى ، وفي شهر مارس
والشهور التالية له يتخفف الناس من الملابس الثقيلة وتنتفتح الزهور .
وتنطلق المرأة من عقل الشتاء بكل زينتها وجمالها ، وللمرأة في حياة الشبان
دور كبير ، انها تسيطر على جانب عظيم من عواطفهم وتجذب عيونهم
وتستهوى عقولهم ، وهكذا بينما كنا معشر الطلاب ننصرف عن الحياة
ومباهجها الى السهر والكدح كانت المرأة وكانت الطبيعة تنطلق في بهجتها
وروعتها .

وخطر لى هذا خاطر يوما فكتبت العبارة الآتية على السبورة
التي كانت توضع عادة عند مدخل المطعم لتدوّن عليها تعليمات
المشرف :

« الطلاب مدعوون لتأليف قصيدة يثسّم فيها كل منهم بيت واحد .
ويكتب اسم المؤلف أمام البيت ، والبيت الأول يحدد موضوع القصيدة
وبحرها وقافيتها » وكتبتُ أنا البيت الأول هكذا :

متى يجىء ربيعٌ وليس فيه امتحان ؟ ثلثى

وقرأ الطلاب هذا الاقتراح فأعجبوا به ، وسرعان ما امتدت أيديهم
الى الطباشير ليضيفوا أنصباؤهم ، وكان بعضهم يفكر في البيت الذى

سيسهم به وهو يتناول طعامه ، فإذا استقام له البيت أسرع يترك المائدة ليدوّن هذا البيت ثم يعود للطعام ، وعندما انتهت الوجبة كانت السبورة تضيق بما كتبت عليها ، وكانت هذه الشركة قد أخرجت قصيدة رائعة تمثل اتجاهات الشباب وطموحه •

وحدث بعد أن توقفت عن قرض الشعر وأنا مدرس بالجامعة أن اشتريت في معسكر ثقافي بمرسى مطروح ، وكان معنا زميل قديم يعرف أنى شاعر ويعتقد أنى لا زال أقرض الشعر ، وفي سهرة من السهرات كان يحضرها عدد كبير من الجنس اللطيف طلب منى أن ألقى قصيدة من شعري ، والحق في الطلب واشترك معه في ذلك آخرون ، فألقيت قصيدة سيرها القارئ فيما بعد وعنوانها « اليها » ويبدو أن أحد الحاضرين لاحظ أن عيني التقت وأنت ألقىها بعين هذه الفتاة أو تلك ، فظهر احساس بين الحاضرين بأن هذه القصيدة نظمت في مرسى مطروح متصلة بفتاة من الحاضرات ، ولم أنكر أنا هذا الاحساس مع أن القصيدة نظمت قبل ذلك بفترة طويلة ، وتساءلت الفتيات عن تلك التي أوجت بهذه القصيدة الرائعة ، وأجبت أجابة فيها ذكاء ومكر بأن هذه الفتاة تعرف نفسها • وعشنا فترة وأكثر من فتاة من هؤلاء تعتقد أنها صاحبة الالهام •

وبعد ... فأين هذا الشعر الذى تحدثنا عنه ولم نتعرف عليه ؟ •

الاجابة عن هذا السؤال تعود بى الى الورا طويلا ، فقد كان من التقليد المتبع أن زعماء الطلاب بمعهد الزقازيق — وكان أكثرهم أو كلهم من الشعراء — ينتهزون فرصة مكائتهم الاجتماعية بين الطلاب فيجمعون شعرهم في ديوان ، وينشرونه ويبيعونه للطلاب ، فلما جاء دورى خطر لى احساس بأن هذا التصرف فيه نوع من استغلال المكانة • وبنوع من الكبرياء أو العناد لم أجمع شعري ولم أنشره ، وتغيرت اتجاهات الحياة بعد ذلك ، فقد تطلعت فى دار العلوم الى المستقبل والواقع أكثر مما تطلعتنا الى الخيال ، وبعد دار العلوم لم يطل بى المقام بمصر وسافرت الى انجلترا

عضو بعثة جامعة القاهرة ، وفي خلال هذه الرحلة ضاعت من بيتنا بالريف قصاصات الورق التي حملت خطرات قلبي في فترة من أهم فترات الشباب ، أين قصيدة الليل التي أخذتُ عليها الجائزة الأولى والتي صورتُ الليل في هدوئه وسكونه ، وصورت العابد الحاني ، والمحبة المدنف ، واللص المتنكر ، وصورت جماعات الحشاشين الذي يلتفون حول الدخان القاتل المتصاعد من « الجوزة » أو يلفّهم هذا الدخان القاتل ، وصورتُ لاعبي القمار حول المائدة الخضراء وما يكثر آنذاك من مؤامرات هامسة ، ودقات قلوب توشك أن تنفجر ... أين هذه القصيدة وأين سواها مما عبّر عن عاطفة الحب التي كانت الشغل الشاغل للشباب في تلك السن ؟ وأين القصائد الدينية والوطنية التي طالما صفق لها الناس وأعجبوا بها ؟ أين هذا كله ؟ لقد أكله النسيان واحتواه المجهول . أبيات فردية لاتزال في خلدي توحى بمناسبات عميقة الأثر في النفس ، فهناك بيت يمثل بقايا قصيدة ويرمز لقصة ، خلاصتها أننى وأنا طالب بدار العلوم كنت أعود من حين إلى آخر إلى قرينتنا ، وكنت أمرّ بالزقازيق في طريقى إلى القرية ، وفي الزقازيق كنت أحط الرحال في بيت لنا به صلة ، وبه فتاة جميلة مهذبة تحسن استقبالى وأنعم بحديثها العذب واهتمامها الكبير ، وكنت إذا تأخرت في القاهرة عاتبتنى عتاباً به نغمات الشوق والود ... ومررت الأيام ، واستوى عود الفتاة ، وبدأ الراغبون في الزواج يدقون الأبواب ، ولم يكن في وسعى أن أتزوج آنذاك فالتقطها أحد الراغبين ، وقنعتُ أنا بأن أبرز زهرات النفس في قصيدة سينية كانت أيامها من أرق القصائد ، وضاعت هذه القصيدة مع ما ضاع من شعري ، ولم يبق بذاكرتى إلا بيت واحد يمكن أن يسمى بيت القصيدة لأنه يصور القضية تصويراً دقيقاً ، وهذا البيت هو :

كنتِ لى واحدة أميل إليها

عندما تعصف الرياح بنفسى (١)

(١) جددت كتابة قصيدة لتملاً فراغ القصيدة التي ضاعت ، وسيرى القارئ ظروف ذلك فيما بعد ، ويرى القصيدة الجديدة بعنوان « وقفة وداع » .

وهناك بيت آخر من الشعر يصور صراعا بين فتى وفتاة ، كانت الفتاة طالبة في الجامعة في وقت كانت الطالبات بالجامعة قليلات ، وكان بها جمال واعتداد بالنفس ، بدت^٥ ساخرة من الحب ، وغير مكترثة بالفتيان الذين كانت تخفق قلوبهم كلما رأوها أو ذكروها • والتقت^٦ هذه الفتاة بشاب وسيم يشغل مراكزا جذابا ، وكأنها كانت قد تعبت من الصراع والظهور بمظهر الاعتداد بالنفس ، فألقت^٧ بنفسها في حبه وهامت به ، ونظمت^٨ في ذلك قصيدة كانت ضمن ما ضاع من شعري ولم يبق منها في ذهني الا بيت واحد هو :

كانت تدلّ على سواك وانما
نسيت^٩ لديك دلالة المعهودا

وهناك مجموعات من هذا الشعر تبرز في المسرحيات الشعرية المدرسية التي نشرتها وأنا مدرس بالأورمان النموذجية ، واحدى هذه المسرحيات عن « ميلاد الرسول » وثانية « عن المدرسة الفاضلة » وثالثة عن « جامعة الدول العربية » وكانت هذه الجامعة عند قيامها حدثا يشغل الأذهان ، وهناك بعض قصائد نشرتها الصحف والمجلات في حينها ولكن هذا وذاك ضاع كذلك ، ولم أعد^{١٠} طبع المسرحيات المدرسية بعد أن اتجهت^{١١} بى الحياة^{١٢} وجهة أخرى وانشغلت^{١٣} بالفكر الجامعى ، ولم يبق لما نشرته الصحف والمجلات أى أثر •

قلة قليلة جدا من الشعر وجدتها مصادفة جمعتها مفكرة صغيرة تأخذ شكل كتاب فلم تعبث بها يد الالهال ، وقد قرأت^{١٤} هذه المفكرة ، وليس ما بها من شعر أجود^{١٥} ما كتبت ، ولكنه جزء أعتر به منه ، وقد اخترت منها نماذج تمثل شعر المناسبات والشعر العاطفى وبعض الأناشيد الدينية والوطنية والاجتماعية :

وفيما يلي هذه النماذج :

الهجرة النبوية الشريفة

ذاك ركبٌ يَجِدُّ بين الصَّحارى
قد طواه الدَّجى فهُمْ وَسَارَا
أيقظ الصمتَ والرمالَ سُرَاه
وأثار الحَصَا وفُضَّ الغُبَارَا
كان فى عِوْنِهِ إِلَهُ الْبِرَايَا
فَرَأَى حَفْحَفَةَ الظَّلَامِ نَهَارَا
عَدَدٌ قُلَّ عُدَّةٌ وَعَدِيدَا
بينما فِيهِ عِزْمَةٌ لَا تَبَارَى
لم يهابوا الردى وخيرٌ إِلَيْهِمْ
أن يموتوا من أن يذوقوا الصَّغَارَا
عقدوا العزمَ أن يعيشوا وَفِيهِمْ
عِزَّةٌ تَمْلَأُ الْوُجُودَ فُخَارَا
كلُّ عِيشٍ مَعَ الْمَهْلَانَةِ ذُلُّ
يجعل المنزلَ البهيجَ قِفَارَا
وطنَ الحرِّ حيثُ يحيى عَزِيزَا
لا يعانى الآلامَ والأَكْدَارَا

إِيَّاهُ يَا مُرَكَّبَ الرُّسُولِ لَقَدْ سِرَّ (م)
تَ وَأُضْحَى الْعِلَا إِلَيْكَ شُعَارَا
قَدْ دَعَاكَ السَّمَاءُ يَا يَثْرِبَ الْخَيْ (م)
رَا فَهْبَىَّ وَأَسْتَقْبَلَى الْمُخْتَارَا

وليسر موكب الرسول ليلقى
في ربك الأبطال والأنصارا
تركوا الوطن الحبيب ولكن
رغبوا موطن السماحة دارا
سيشع الاسلام منك على الدنيا (م)
يا فيهدى الورى ويحمى الذمارا

اليها

الى الفتاة الغادة الطروبِ
الى الجمال الناعم الرطيبِ
الى الفؤاد اليقظ اللعوبِ
أرسل قلباً دائماً الوجيبِ

يذكرها في اللجبِ المشبوبِ
وفي السكون الشامل الرهيبِ

يذكرها في قسوة الخطوبِ
وفي ابتسام الأمل الرحيبِ

فذكرها للخالق الدعوبِ
تسبيحةً المسبته المنيبِ

يا وطنَ المشرق الغريبِ
وأملًا للجاهد المكروبِ
ويا مثار الحُبِّ والنسيبِ
أشعل همّي الرأسَ بالمشيبِ
وصير الفؤادَ في لهيبِ
وما رثتُ لذوّبه المسكوبِ

ولا كُفِّتْ للمدَّعِ المصَّبُوبِ
ولا لقلبٍ واضَّحِ النَّضُّوبِ
أعيَّاه ما عاناه من لغُوبِ
لعله يكون من نصَّيبِ
أن ترحمي ما نلت من شُبوبِ

لازلت يا دنييـلـى الحبيبِ
ريـمـانةً في كنفِ خصيبِ
وكنـت في المسـتقبل القريبِ
إلهامٍ صـبـاً صادقِ التشبيبِ

وقفلة وداع

هذه القصيدة من وحى العاصمة المثلثة بالسودان الشقيق ، فقد كانت هناك أمسية شعرية في شهر يناير سنة ١٩٧٨ أنشد الطلاب فيها سينية شوقى على أنغام الموسيقى ، ثم طلب الحاضرون منى أن ألقى بعض شعرى ففعلت ، ولكنى ذكرت — معلقا على سينية شوقى — أننا ونحن طلاب بدار العلوم اتجه شعراء الطلبة لمعارضة سينية البحترى على نحو ما فعل شوقى ، وكنت من هؤلاء وكانت السينية التى كتبتها مرتبطة بالقصة التى رويتها من قبل عن فتاة الزقازيق ٢٢٠ غير أن السينية التى كتبتها ضاعت ولم يبق منها فى ذاكرتى إلا البيت الذى أشرت إليه آنفا وهو :

كنت لى واحدة أميل اليها
عندما تعصف الرياح بنفسى

بيد أن صديقا سودانيا التقى بى عقب نهاية الحفل وقال لى بصراحة السودانى : أنا لا أصدق أن سينية كهذه يمكن أن تضع ، ويخيل لى أنك لم تنظم فى هذا الموضوع الا هذا البيت •

وشق على هذا القول ، فاتجهت فى الحال لأكتب القصيدة من جديد ، وجاءت القريحة بالأبيات التالية ، وقدمتها له فى الصباح ، والسينية الجديدة ليست من قريب أو بعيد تلك السينية الطويلة التى نظمناها إبان الشباب ، فالسينية الجديدة غلب عليها طابع الحاضر بما فيه من آمال تحققت ، وكبرياء لا تخضع لسلطان الحب ، وهى بذلك تخالف السينية القديمة التى كان بها وهج الشباب ، وفورة الحب ، وقسوة الفراق ، والقصيدة الجديدة هى :

جمعتنا الحياة فى عهد أنس
من كالطيف بين شوق وهمس

كنت لي واحدة أميل إليها
عندما تعصف الرياح بنفسى
كنت لي جنة أغرد فيها
كنت مستقبلي ويسومي وأمي
كنت حولى فكرى وقلبا حنونا
كنت نبض المنى ورجفيا لصى
كنت وحى القصيد منبذ التقنيا
وأخاف القصيد يمنى بحبس
وافترقنا ، فرحت أمضى كئيبا
وتهدأ ديت فى مباحج عرس

* * *

منية القلب لا تواعى غيبتى
لن أطيل البكا وأحيا بيأس
لست كالواله الذى يقطع العم
ر نواحاً علي فقيد برمس
لا وحق الهوى سأفتح بابا
لمنى يستطيهنا كل حس
كبديل عن الهوى سوف أمضى
أطلب الجيد فى إيس وبأس

* * *

ويمينا حبيبتى سوف تبقى
ذكريات الهوى بأشرف قدس
ذكريات أريجها يملأ الأف
ق عيرا وجرسها خير جرس
فوداعا حبيبتى ، كل صباح
سوف يمضى الى الأصيل ويثمسي

حب صامت

هيجت شعري في هواك بنظرة وبسمة
لكنني لم أجظ من فمك الجميل بهمس
أترى تحب وأنت لم تشفع هواك بكلمة ؟
أما أنا فأليك أهتف بالهوى والمحبوة

* * *

مس الهوى قلبي وكنت عن الهوى في غفلة
فانساب لي طيف الحبيب يهيج كل من نشوت
طيف أتى سحراً يحا (م) ورنى بأبهى طلعة
ويدا يدق القلب مز (م) هوا بأروع هتنة
والقلب أوشك يستجيب لمن يداعب متهجتى
هل أستجيب له ؟ وان لم أستجب يا حيرتى
حييت يا طيف الحبيب ولا منيت بلوعة
وأليك شعري قد أذبت به رحيق محبتى

مصدر الإلهام

إن وصفت الراح أسكرت ، وإن
قلت في الوجد أسلت العبرات

أو وصفت الروض في بهجتنه
أجعل القاريء بين الزهرات

أو ذكرت الحب أمسى مدثفناً
كله جالى القلب صوفى السمات

يا حبيبي منك إلهامي وغنئي
يا حبيبي أنت نبراسي عياني

هند

يسألكي كيف السبيل إلى هند
فقلت له : وعزّ المحبة والقصد

وفي القلب من جراءة هند شكاية
وللعين دمع لا يجهش ولا يجدي

سألتك يا هند الوصال فلم أنل
ولا موعدا يشفي الفؤاد من الوجد

وأنت غذاء الروح يا هند فارحمي
معذني أسير الحب والشوق والود

حببتك صبدا طوقته حبائي
ولكنني كنت الأسير إلى الصيد

وإنى ليرضيئني إذا ما ذكرتني
ولو كانت الذكرى مع الدل والصد

ولكنما الهجران يا هند لوعة
يذوب لها قلبي ويصحو بها سهدري

وأنت بقلبي تسكنين فأشفقي
عليه ، وكوني منبع الخير والسعد

وان تجرحي يا هند قلبي فربما
نرى مرهف الأسياف يقضى على الغمد

وتأنيف نفسي أن أذله وإني
لأهتوّن أن أفتنى من الذل والقيد

ولكنني أهوى الإسعاف إذا بدا
لهند فما أهلك الخضوع إلى هند

لهند كوجه الصبح أو نسمة الصبا
وهند كنشر الزهر أو نظيرة الورد

يا حبيبي

وجهك المشرق غياض سناء
شغرك الباسم ما أحلى لسانه
أنت أنقذت فؤادي من لظاه
يا ملاذي من تباريح الحيناه

يا حبيبي قد عرفت البسمات
بك ، من بعد لهيب العبرات
يا حبيبي أنت نبراس حياتي
يا حبيبي أنت للقلب منسأه

يا حبيبي كنت في الدنيا غريبا
أملأ الساعات حزنا ونحيبا
يا حبيبي جئت لي صدرا رحيا
صرت كالواحة في جوف الفلاة

يا حبيبي بعد طول الظلمات
جئت كالصبح جميل القسـمات
يا حبيبي غاممت كل شـكاة
وبدأت في حسنها تلك الحيناه

أنتَ من خففَ ويلاتِ المحن
أنتَ من كفك آهاتِ الشجن
أنتَ من أهوى على مَرِّ الزمن
أنتَ من أضفى على قلبي هبداه

يا حبيبي أنتَ من يهـواه قلبي
يا حبيبي هيـك آمالي وحبي
قد ملكتَ الروح في بعد وقرب
يا حبيبي ليس للقلب سـواه

لقباء

ذاك يسوم معطياً القسائم
فانظم الشعر عبقري السمات

شغلتنى الأحداث عنه ، ولكن
نشط الشعر بعد طول سبات

هب يروى عنى حديث لقبياسي
بفتاسي ، بأنخير الزهرات

كنت في وحشة الغريب ولو أنى (م)
مماط بصحبتى ولداتى

مطلعت للسماء أناجيها (م)
وأرجو منها رفيق حياتى

فاستجابت لى السماء وأهدت
هبة خلتها أعز الهبات

بعثت لى حبيبتى مثل وجه (م)
الصبح يبدو فى حالك الظلمات

ملأت حولى الحياة نعيماً
وأذابت ما بى من الآفات

هى أنس لوحدتى وهناء
لجناتى ، ومنبع البسات

كلُّ ما في الوجود أضحى جميلاً
منذ أشرفت يا نعيم الحياة

بسمة من سناك تملأ بالبشر (م)
غزادي وبالقضيتنا جُنُباً

سيفهم

قلوبها كلُّه خنَّان ورفق
أين منها ملائكة الرحمن

هي في القسرب والبعاد سناء
توسطن جودهم فيه متهنك

ربِّ ، بارك لقسمنا وأنلنا
ما نوجي من المنى العطرات

بصنعتهم

الليلة

أتراها طيفاً الى وسيفان
أم نسيج الخيال للنشوان

أم أرى ليلة تجمّع فيها
كلّ حسن وبهجة واقتنان

خففت بالسميرور والبشور حتى
مسحت ما ألمّ من حرمان

كلّ ليالي الرشيد صنفوا وحسنا
أو كما قيل عن ليالي الجنان

قد تمتعت في سنانها ولكن
ما الى وصفها الى يدان

رب شيء وصفته فتهبدي
وهو أزهى من أن ترى عينان

يوشك السامع اللبيب يراه
من خلال الألفاظ مرأى عيان

ذاك سرّ البيان لكن هذي
ليلة أعجزت جلال البيان

هي في الحق ليلة من خلود
قد تسامت عن الكلام الفاني
انها عبقرية الحسن تصبوي
كل ما عجز من كرام المعاني
كم تمنيت ساعة من مناء
فاذا تلك فوق كل الاماني

قبس منك كل وقت جميل
يا فتاة الأعلام والوجدان
أنا أغضت عن سواك عيوني
انتظلي وحيدة بجناني

منزاع

أبيت أفكر قلبياً ليس يذكرني
وأطلب الوصل ممن رام هجرانا

وكم بعثت إليه روجي تعباً نقه
في هدأة الليل ، غارتدت وما لانا

حبيبة القلب ، حتى م البعاد وقد
ملأت دنيتك أنعاماً وأحبسانا

ولا غوادك حبي بات يشغله
ولا غوادتي يبغي عنك سنلوانا

أرى السعادة من دنيا الهوى انبعثت
بيننا تراها غنى يبدو وسلطانا

ترجئة

كنت مدرساً بالأورمان النموذجية قبل السفر للبعثة ، وكانت هذه المدرسة هي ومدرسة حدائق القبة تابعتين لمعهد التربية العالي للمعلمين ، وفي سنة ١٩٤٦ كان المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عميداً للمعهد ، وبالتالي مشرفاً على المدرستين ، وقد أقامت مدرستنا بمناسبة نهاية العام الدراسي حفل استقبال لهيئة التدريس بالمعهد ولمدرسي حدائق القبة ، وفي هذا الحفل أُلقيت هذه القصيدة باسم مدرستنا ترحيباً بالضيوف :

ذاك عقيد من الجمال النضيد
نظمته يد الصنيع « فريد »
ونجوم تشع في أفق المجد (م)
تهدي إلى الطريق الرشيد
وشباب كأنه طاقسة الزهر (م)
امتناناً أو ناضبرات الورود
قيد هداهم روح العميد فساروا
في سبناه وظائمه المديدود
في سبنا معهم تلاقى لديه
كل فكر من طارف وتليد

دونكم يا شباب من خاض للحرب (م)
غمارا ، وراض خفق البنود
دونكم يا شباب من أنفق العمر (م)
كفاحا بين القنا والصديد
عندكم للنفوس طب ، وفيكم
أهل يترجي لكلا مجيد

كم فؤاد هوى وعقل تردى
فهرستم له سبيل الصمود
وأزلتكم جدب النفوس ، وكنستم
سحباً فضرت جبين الوجود
فإليكم ذكر أجلا من الدر (م)
وأحلى من النضار الفريد

فلذات القلوب تأتي إليكم
لتصوغوا منها ثمين العقود
كم وليد أتاكم ثارد النفس (م)
فأضى بكم أجلا وليد
وصغير أتاكم يجهل النطق (م)
فأضى بكم خطيب الوفود
وجنان رأيتم فخلقتم
منه رب القنا وحامى البنود
صفحة الفكر أصبحتكم صفحة (م)
مجدد وعزة وفخود
ما شغلتم بثروة أو فتنتم
بعيون المها وحسن الخيد
جهدكم كله الى الطفل والطفل (م)
جدير منكم بجهد جهيد
نشدتوه على كريم السجيا
ونبيل من الصفات حميد
وأبعثوه قلباً كبيراً يحقق
ما ترجى بلاد من سمود

وانشروه ضوءاً يفيض فيهدى
كل سائر إلى الطريق السديد
قد عقدنا عليه خير الأمانى
ولديكم تحقيق تلك الوعود

إن حزمتم طول الثراء فمهلاً
فالأمانى معقودة بالعميد
لا تتراعوا هذه (درجات)
تتوالى مشفوعة بالمزيد
ذاك عهد به الغنى سعيد
وقليل الأموال غير سعيد

يا شباباً رعتكم خير عين
وهديتكم بكل فكر جديد
قيّد الطفل بالسلاسل حتى
ضجّ في طوقه الثقل الشديد
أنتم النخبة النماذج تسعو (م)
ن حيثاً لفض تلك القيود
كلما أنتجوا إلى الطفل قيوداً
حطّموه أنتم بعزم جديد
لا رعت عهدهم سحائب خير
إنه عهد قسوة وركود

يا شباب المدايق الغرّ هذى
ليلة دونها ابتهاج العيد
قد سعيتم لنا كما يهبط الغيث (م)
بروض ، فيزدهى كل عود

ويطيب الغناء للطير حتى
لا ترى غير ساجع غريد
توشك البروضة النضيرة أن تهتف (م) :
أهـ لا ومرحباً بالوفود
ذاك صوت الأورمان طاب صـداه
فهو في صمته أرقش نشيد
جمعكم بنا رسالة حب
وهوى للنهوض والتجديد
فكرة كنـا رعاة حـماها
منذ كانت وليدة في المهود
سكب المعهد العريق عليها
من هـداه وخصها بالجهود
فاستقامت تدب في ساحة العلم (م)
وأضحت تمشي بخطى وثيد
وبكم يا شباب سوف نراها
أيقظت كل غائب وشهد
هـدف يرتجى فسـيروا اليه
واملئوا يا شباب سمع الوجود

خواطر

هناك شعاعٌ في نواحيك يسطعُ
وضوءٌ على أنحاءِ نفسك يطلُعُ
ومشعلٌ نورٌ في دياجيك يلمعُ
تمتعْ به مادام في الأفق مشرقاً
هكلك شعاعٌ سوف يخبو ويذهبُ

صروفٌ تَوَالِي في الحياة وتعظمُ
وهمٌ وأحداثٌ على المرء تجئُ
وليس له منجىٌ يَعمِـينُ ويرحمُ
ولكنهما الأرزاءُ أن جئن خالياً
تركنَ له قلباً يذوب وينضبُ

فان شعاً في دنياك ضوءٌ فأسرع
ونفسك من طيب المباحج أشبع
ولا تدأخر وُسْعاً ، فشرُّ مضيّع
فتى يرقب الآمال حتى اذا أتتْ
تراه قنوعاً حينما الحرص أنسبُ

ولا تدكر عند المسرة واليمنِ
صنوفاً عن الآلام والبؤس والحزنِ
وإلا تضيع ساعة الصفو والحسنِ
وتبقى جريح القلب ولهان شاكياً
يسير بك الحرمان أيا تذهبُ

وان ربيعَ العمرِ في لحظة السعدِ
وفقدَ ربيعَ العمرِ ليس من الرشِدِ
وفرحةً نفس المرء نوعٌ من الخلدِ
فكن مرحاً واطفر بما لاح انه
بريق سيخبو بعد حين ويغرُبُ

الشرق بين الماضي والحاضر

الشرق أستاذ الورى فى أرضه
نبئت بذور العلم والعرفان

قد كان يزخر بالحياة وغربهم
لما يزك فى العالم الوستنان

قد كان — والدنيا قفار كلها —
روضا يضوع بأطيب الريحان

قد كان — والدنيا اضطراب شامل —
مهد النظام ومصدر السلطان

فاذا به يشقى ويشقى فضله
ويصير نهب الظلم والطغيان

نشيد الجلاء

من أجلك مصر جراحى من أجلك مصر الدماء
نفسى وقلبنى سلاحى حتى يَتِمَّ الجلاء

يا فتية النيل هبثوا لدوحة الحريرة
نماؤما أن تصبّوا تلك الدماء الذكيّة

لن يَطْهَرَ النيل إلا إن جَلَّ منا الفداء
يانيل نقسم ألا تغلو عليك الدماء

سلاحنا الحقُّ بيننا سلاحهم من حديدٍ
والحقُّ أبلغُ طعننا من كلِّ ماضٍ هريدٍ

هذا العدو عليه من كلِّ نفسٍ عداة
قلن يطيبٌ إليه يامصرُ هيّك بقاءُ

الصلاة

أَذِّنِ الْفَجْرَ فَقَوِّمُوا يَارْفَاقِي لِلصَّلَاةِ
إِنَّهُ صَوْتُ رَحِيمٍ قَدْ دَعَانَا لِلإِلَهِ

أَكْثَرُوا اللَّهَ ذِكْرًا إِنَّمَا الْفَضْلُ إِلَيْهِ
وَاسْجُدُوا اللَّهَ شُكْرًا كُلْ خَيْرٍ مِنْ يَدَيْهِ

وَجْعَلُوا الطَّاعَةَ فِيكُمْ عَادَةً مِنْذُ الطُّفُولَةِ
إِنَّهَا خَيْرٌ إِلَيْكُمْ وَطَرِيقٌ لِلْفُضِيلَةِ

طَاعَةُ اللَّهِ سُرُورٌ وَرِضَا اللَّهِ جَمِيلٌ
فَاتَّقُوا اللَّهَ تَصِيْرُوا فِي هَذَا لَا يَزُولُ

البعثة العلمية لأوروبا
والعمل بالجامعة بعد العودة من البعثة

مقدمة :

كان الملك فاروق يقيم حفلاً سنوياً لأوائل الخريجين من جميع الكليات والمعاهد العليا ، وكان هؤلاء الخريجون ينزلون في ضيافة الملك ثلاثة أيام بالإسكندرية ، وفي الحفل الذي أقيم لنا سنة ١٩٤٥ بهذه المناسبة وقفت مع زملاء لى وتطلعنا إلى البحر المتوسط ، وناجينا ماءه الصاخب أن يحملنا إلى الشمال لنقوم بدراسات عليا هناك ، ولنتعرف على ثقافة الغرب واتجاهاته نحو أفكارنا وتراثنا ، واستجاب القدر لهذا الدعاء ، ولكن الطريق إلى أوروبا كان حافلاً بالمخاطر .

كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) قد منعت أوائل الخريجين خلال سنوات الحرب من استكمال دراساتهم بالخارج ، فلما أخذ نشاط البعثات يتجدد كان دورى متأخراً لأننى من خريجي سنة ١٩٤٥ ، ووُضِعَتِ الأولوية لقدامى المتخرجين ، وعلى هذا أمضيت فترة مدرّساً بمدرسة الأورمان النموذجية التى كانت تابعة لمعهد التربية العالى للمعلمين ، وكانت هذه المدرسة تُعَدُّ حقلاً للتجارب التى يجريها المعهد ، وكانت هذه الفترة أشبه بفترة راحة بين جهد الطالب فى مصر والطالب فى أوروبا .

القدر وبعثة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية :

فلما جاء دورنا فى البعثة قفزت أمامى عقبة عجيبة فقد كان ترتيبى فى الليسانس سنة ١٩٤٣ أول المصريين مع درجة الامتياز ، وكنت أسبق الثانى بـ ست وعشرين درجة ، وكنت فى الدبلوم الذى يمنح بعد سنتين من الليسانس « الثانى مكرر » وكان من الواضح أن بعثات الكلية يجب أن ترتبط بمواد الكلية وبالتالي تكون بترتيب الليسانس ، وأن بعثات التربية تكون بترتيب الدبلوم ، وبخاصة أن هاتين الفرقتين بعلموهما نقلتا إلى معهد التربية سنة ١٩٤٦ ، وبقيت دار العلوم بعلموها ، ولكنى فوجئت باختيار بعثات

الكلية تبعاً لترتيب الدبلوم ، مع أن البعثات كانت لمادة من مواد الكلية ، وكان هذا خطأ واضحاً ، صرختُ ضده راجياً تصحيح الوضع وبخاصة أنى كنت الأول فى جمع الفرق قبل ذلك ، ولكن دراسة هذه المشكلة استغرقت فترة عرفتُ فيها ظلم الظلم ومرارته ، واعتزفَ بحقى بعد ذلك ، وخصّصت لى بعثة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية •

ولكن الخير يأتى من الشر ، فإن البعثات الأولى كانت للغويات ، ولست أتكلم عن مدى ما تقدمه مثل هذه الدراسة للمجتمع ، ولكنى أقول إن بعثتى فى التاريخ الإسلامى فتحت أمامى آفاقاً واسعة ، فى الدراسات الإسلامية ، عرفتُ خلالها اتجاهات المستشرقين حول التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ودرستُ فلسفة التاريخ ومناهج التاريخ ، واضطرت — لأتعرّف على الإسلام تبعاً للنهج الأوروبى — أن أتعرف على الأديان ، إذ أن الإسلام حلقة من هذه الأديان وهذا استدعى أن أدرس مقارنة الأديان ••• وقد استطعت أن أنقل كل معارفى إلى المكتبة العربية والإسلامية ، واستقبلتُ الجماهير أعمالى وكتبى بتقدير يشكر الله عليه وتشكر عليه الجماهير •

وطالما قلت لنفسى : لو كنت أول الدبلوم ، أو لو انتبعتُ لجنة البعثات للعدالة من أول الأمر ووضعتنى عضو بعثة اللغويات لخسرت كثيراً ، وخسرت المكتبة الإسلامية كثيراً ، فالحمد لله على ما قدر وهياً •

لكلية الآداب وبعثة التاريخ الإسلامى :

على أن تحديد بعثة التاريخ الإسلامى لى لم يكن عملاً سهلاً ، فقد برز لى منافس خطير ، ولم يكن هذا المنافس فى هذه المرة شخصاً ، بل كلية لها مكانها ووزنها وثقلها ، هى كلية الآداب ، فقد وقفت كلية الآداب ، موقفاً حاسماً يقرّر أن بها قسماً للتاريخ ينال طلابه دراسة واسعة فى التاريخ الإسلامى ، وأن كلية دار العلوم ليس بها قسم كهذا وأن الكليتين تتبعان جامعة واحدة ، ومن الخير والمنطق أن يُختار لبعثات التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم متخرجون من قسم التاريخ

بكلية الآداب • وإذا انتهوا من بعثاتهم عادوا لكلية دار العلوم ليعلموا التاريخ بها •

وأوشك هذا الاتجاه أن يجتذب له عقول الكثيرين ، ولكن صيحة قوية قمت بها تقرر أن التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية ، وأن المتخصص فيه يتحتم أن يكون متخصصاً فى التفسير والحديث وتاريخ التشريع والفقه وأصول الفقه وغيرها من الدراسات الإسلامية ، وليس من الممكن أن يتكلم إنسان عن غزوة الأحزاب دون أن يكون مجيداً للسورة التى نزلت باسمها ولتفسير آيات هذه السورة والحضارة الإسلامية لا بد لها من إنسان يعرف الدراسات الإسلامية معرفة جيدة ، وتبنى هذه الفكرة أستاذنا الأستاذ زكى المهندس عميد كلية دار العلوم آنذاك ، واستعادت هذه الفكرة الزمام بعد أن كان قد أوشك أن يثفلت من أيادينا ، واختارتنى الجامعة لبعثة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية •

وبدأنا فى اتخاذ الإجراءات ، واستغرق ذلك زمناً ليس بالقصير ، ثم أحيل الأستاذ زكى المهندس إلى المعاش ، وقام أحد أساتذة الكلية بشئون العمادة بصفة مؤقتة ، فذهبت أنا وزملائى المرشحون إليه ليوثق على خطابات بتحويل ملفاتنا من وزارة التربية التى كانت تتبعها الكلية إلى الجامعة ، وكان ذلك بعد يوم واحد من نهاية مدة زكى بك ، ولكن القائم بعمل العميد ذكر لنا أنه يريد أن يدرس الأمر كله من أساسه قبل أن يوقع على أية ورقة • وكانت تلك عقبة غير متوقعة ، وبخاصة أن الكشف الطبى كان قد تم وتحدد موعد السفر ، فهرولنا إلى الأستاذ زكى المهندس وعرضنا عليه الأمر ، وطلبنا منه حل المشكلة فهو على علم بكل خطواتها ، والأوراق المطلوب التوقيع عليها أوراق روتينية بعد أن صدرت القرارات الرسمية ونجحنا فى الكشف الطبى ، ولم يبق إلا تحويل ملفاتنا من الوزارة إلى الجامعة ، واقترحنا على سيادته أن يوقعها بتاريخ الأمس خوفاً ، أحسن الله ثوابه ، والتقطنا هذه الأوراق ، وبدأنا رحلتنا إلى دول الغرب •

صعوبات باوريا وتذليلها :

وأنا الآن في أوربا أواجه موقفاً صعباً للغاية ، فقد جئت لأقوم بدراسة عليا في التاريخ مع أنى لا أعرف التاريخ معرفة تؤهلنى لهذه الغاية ، وكان علىّ أن أكتب أبحاثى ورسالتى باللغة الإنجليزية ، وكانت بضاعتى في هذه اللغة قليلة ، يا الله !!! ولكنى كنت وحدى الذى يعرف هاتين المشكلتين . فرحت أصارع بعناد لأتغلب عليهما ، وقسمت يومى قسمين ؛ أحصص جزاءه للاتصال بالمكتبة التاريخية ولقراءة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وتلخيص أهم الأحداث ، والتعرف على كل الشخصيات الإسلامية المهمة والمعاليم البارزة في هذه المادة ، حتى تكون لى من ذاك ملف حافل شامل موجز كنت أعود له من حين إلى حين وأتصوره قطعة موسيقى يتحتم علىّ أن أتلذذ بسماعها من آن إلى آن ، وكان هذا دعامة أرسيت عليها دراساتى وأبحاثى •

أما الجزء الثانى من اليوم فكان صراعاً من أجل اللغة احفظ النظمات بنهم وأستعملها ، وأنساب في الحقائق والمجتمعات التى لم تعرف اللغة العربية طريقاً لها ، أحادث الناس وأسمع منهم وأقوّم عباراتى ، وأصحح لهجتى ، وقد ساعدتنى كمبردج في هذا المجال مساعدة كبيرة ، فقد كنت أمضى بها الأسبوع تلو الأسبوع دون أن أتكلم كلمة واحدة عربية أو أسمع كلمة واحدة إلا أن يكون ذلك حديث نفس ، وذلك لقلّة المصريين والعرب هناك ، وبثّعدهم الواحد عن الآخر بحيث لا يتم لقاء إلاّ بعد تدبير وإعداد •

وسرعان ما هزمت هاتين العقبتين وأحسست أننى أستطيع فعلاً أن أعدّ رسالة في التاريخ الإسلامى وفلسفته ، وأن أكتبها بلغة إنجليزية سليمة أو على الأقل أقرب إلى السلامة •

بين لندن وكمبردج :

وكننت قد التحقت بجامعة لندن أول الأمر ، ولم يكن المناخ بها ملائماً ، فلندن كانت غاصّة بالطلاب المصريين والعرب ، مما كان يدفع إلى الإحساس

بأننا نعيش في جو عربى ، وكان النادى المصرى مكاناً نتردد عليه من حين إلى حين ، فنأكل الطعام المصرى ونسمر ونلعب ، وكانت مدرسة اللغات الشرقية مكتظة بالشرقيين من كل البلاد ، أما أساتذة التاريخ فكانوا من اليهود غالباً ، ودخل علينا في هذه الأثناء شهر مايو اللعين سنة ١٩٤٨ الذى أعلن فيه اليهود قيام دولتهم بأرضنا بعد حرب لعب فيها السلاح والسياسة أموراً انتهت بهزيمتنا ، وكل هذا جعل المقام بلندن غير محمود بالنسبة لى .

وليت وجهى تجاه جامعة كمبردج العريقة وكان أستاذ الدراسات الإسلامية بها هو بروفيسور آرثر آربرى ، وهو قمة في الأخلاق والعلم والتوجيه ، أحسن الله جزاءه ، وقد فتح بروفيسور آربرى لى قلبه وعقله ، وإذا صحّ أن أقول إنه تبناى لفعلت ، كانت العلاقة بيننا أسمى وأعمق من العلاقة بين الأستاذ والطالب ، كانت الحب كل الحب ، والإخلاص ، والرعاية الشاملة من جميع الوجوه ، وقد منى لخير الطلاب والطالبات بقسم الاستشراق ، وقال لهم انتفعوا بهذا وانفعوه ، وظل يرقبنا من بعد ومن قرب ، وقدم لى هؤلاء الطلاب صنوفاً من العون وبخاصة في ناحية اللغة والناحية الاجتماعية ، فقد عرفت عن طريقهم حياة الإنجليز وعاداتهم . وصحبتهم إلى قراهم وجلست إلى مواعيدهم وتوثق بيننا رباط الود ، وامتد هذا الرباط بعد نهاية البعثة عدة سنين ولم يفصمه إلا الزمن القاسى الذى يقضى على كل شئ ورحم الله الشاعر الذى قال : والزمان يئنسنى .

خطة عمل طويلة المدى :

أما الناحية العلمية فقد غرس بروفيسور آربرى بذورها بعد فترة من الفحص والاختبار ، وغأجأنى في يوم ما قائلاً : هل عندك استعداد لدراسة متصلة مثابرة تستغرق ربع قرن ؟

وسكت ولم أستطع أن أجيب ، وحملت فيه غاغراً غمى . قال : مالك ؟ قلت إن بعثتى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة فكيف لى بربع قرن ؟

قال : إن سنى البعثة تكفى لحاجة البعثة وللحصول على الدكتوراه ،
لكنى أريد أن أقترح لرسالة الدكتوراه موضوعاً يُعَدُّ حلقة من دراسة
طويلة أريدك أن تعكف عليها ربع قرن من الزمان لتخدم دينك ووطنك •

قلت بين الخوف والأمل : موافق •

واقترح موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » ليكون رسالة
الدكتوراه ، وقال لى إن التربية الإسلامية حلقة فى سلسلة الحضارة
الإسلامية التى أرجو أن تخرجها جزءاً بعد جزء حتى تكتمل •

لقد ظلت كلمات بروفيسور أربرى نوراً يشق طريقى ، وسوطاً يدفعنى
حتى حققت أمله ، وأتممت موسوعة النظم والحضارة الإسلامية بأجزائها
العشرة ، ولكنه للأسف لم ين حلقاتها الأخيرة ، فقد لى " نداء ربه قبل
أن تكتمل •

إلغنى هنا أثبت هذا داعياً أن يثيبه الله على ما قدّم من خير ، وما أتاح
من فرص •

وبدأت ألقى المحاضرات المطلوبة ، وأكتب البحوث اللازمة حتى
أصبح واضحاً أنه من الممكن أن أبدأ العمل فى الرسالة ، وقد وضعت
التخطيط اللازم لها ، وناقشنى فيه ، ثم أقرّه بعد تعديل بسيط ، وأعطانى
فترة لإعداد قائمة المراجع والاطلاع على الممكن منها ، ولما انقضت هذه
الفترة كنت إلى حد كبير قد تعرفت على تاريخ التربية ، وكنت مستعداً أن
أبدأ التدوين ، وقد ساعدنى التفرغ الكامل والجهد الكبير والاطلاع
الواسع القديم على أن أمضى قدماً فى هذا العمل •

وكان بروفيسور أربرى يقابلنى مقابلة خاصة كل يوم خميس فى منزله
حيث أقدم جهد الأسبوع كله ، وكان يقرؤه ويبدى رضاه عنه أو يثبت
بعض الملاحظات التى أعنى بإعادة التفكير فيها لأعيد تقديمها فى اللقاء
التالى ، مع الجهد الجديد ، وعلى هذا كان بروفيسور أربرى يخطو معى أو
كنت أخطو معه خطوة خطوة ، وكان يعرف مسيرتى بدقة ، وكذلك كان يعمل

بروفسور أربرى مع تلاميذه الآخرين ، فقد كنا خمسة بعدد أيام العمل في الأسبوع ، فإذا انتهى واحد هنا من دراسته أمكن أن يخطو مكانه طالب جديد من الطلاب المنتظرين ، وكان من الممكن أن نقابل بروفسور أربرى في مكتبه بالكلية في أى وقت إذا حدث ما يستلزم ذلك .

ومكتبات جامعة كمبردج زاخرة بالمراجع بمختلف اللغات ، ومكتبة بروفسور أربرى الخاصة كانت في متناول أيدينا ، وكان طلاب الدراسات الشرقية أقل جداً من ضخامة هذه المكتبات ، وكانت الأمانة سائدة ، ولذلك كنت أرتع وأعيش بالمكتبات مما أتاح لى الاطلاع على العدة النواهي من مصادر التاريخ ومراجعته .

وبالإضافة إلى الناحية العلمية يلتزم الكاتب أن يتناول الناحية الاجتماعية في هذه الجامعة العريقة ، فالرياضة والرحلات والحفلات كانت شيئاً لا يكاد ينقطع ولا يتناقض مع الجهد العلمى ، وكان أكثر الطلاب يشتركون في اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات هذا النشاط وينبغي أن نخص بالذكر حفلات مايو May Day التي كانت حافلة بالبهجة والنعيم . وكانت كل كلية تقيم حفلة ساهرة رائعة في يوم من أيام مايو ، ويبدأ الحفل مع مطلع الليل ، ويُمضى الطلاب الليل كله يغمرهم جتو الحفل ومتنوعاته ، فإذا أشرق الصبح ركبوا زوارق تأخذهم إلى جزيرة غير بعيدة من المدينة حيث يتناولون طعام الإفطار إيذاناً بانتهاء هذه الأمسية البهيجة .

وقد أتاحت لى دراسة موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » الفرصة لزيارة مكتبات الشرق والغرب للاطلاع على ما بها من مخطوطات تتصل بالموضوع ، ولدراسة بعض أمكنة التعليم على الطبيعة كنماذج لمفاهد العلم عند المسلمين ، وقد انتهزت هذه الفرصة للتعرف على الحياة بالدول العربية والحياة في أوروبا وليس لدينا هنا فراغ لتفصيل القول عن هذه الحياة أو تلك ، والحياة الأوروبية على كل حال يمكن أن توجز في كلمات هي النظام الشامل ، والخلق الكريم ، والنشاط الجهم ، والعمل الجماعى ، وهى

بلغة أخرى أخلاق الإسلام إلى حد كبير . ولو قارنا ذلك بما نقرؤه عن أوروبا العصور الوسطى لا تضح لنا أن هذه البلاد حققت الكثير لخدمة الإنسان وإسعاده ، وإذا كان الغرب قد استعار من الشرق ألوانا من الحضارة ، فلماذا لا نستعير من الغرب قيَمه الحضارية ، وما حققه من تطور في مختلف الميادين ؟ •



مشكلات ما بعد العودة :

وحصلت على الدكتوراه ، وأحسست بشيء غير قليل من الزهو ، والتقيت برفاقي هنا وهناك وفي عيوننا إصرار على عمل شيء لبلادنا التي قدمت لنا من عرق الكادحين ما أتاح لنا أسمى الفرص في العلم والثقافة والحياة الاجتماعية ، وأشهد لقد كان العزم قوياً عند الجميع تقريباً ، وكان الإخلاص متدفقاً ، والعرفان بالجميل واضحاً ، والرغبة في الإعطاء متوافرة ، والإصرار على الجهد كبيراً ، وعدنا إلى بلادنا بهذه الروح الوثابة ، ولكن هذه الروح سرعان ما انهارت عند الكثيرين ، فقد كان كل شيء يقف ضدنا ، وحيل بين الكثيرين منا وبين مجال أعمالهم ، وصدمت الحقائق المرة جماهير العائدين ، فتكاسل البعض ، وعاش آخرون مع التيار ، أما الذين تمسكوا بأرائهم فقد عاشوا غرباء ؛ لم تنصفنا الكليات ، ولا اهتمت بنا الجامعة ، وحتى المجتمع ظهر لنا وكأنه يسخر منا ، فإذا تحدثنا عن النظام أو النظملة أو الحرية أشفق علينا وابتسم منا ابتسامة ساخرة •

على أن نقطة مهمة قابلتنا فجذبتنا عن كل هذه الماشكلات ، وأوشكت أن تستأثر بجهدنا كله ، ونشاطنا كله ، تلك هي لقمة العيش التي هوجيء الدكتور كبير الآمال بأنها قد عزت عليه وعلى أولاده ، يا الله !!!

لقد كنا بالخارج ومرتب الواحد منا يصل إلى حوال مائة جنيه استرليني شهرياً (تشمل المرتب وبدل الكتب وبدل الملابس) وكان هذا المبلغ حينذاك يتيح للواحد منا حياة فيها اكتفاء ورخاء ، فلما عدنا

إلى مصر وعينًا مدرسين بالجامعة كان مرتب الواحد منا سبعة وعشرين جنيهاً مصرياً ، وكنت أسكن منها بائني عشر وأدفع للمواصلات ثلاثة وأدفع ثمن الكهرباء والمياه وأجرة الخادم والمهم أن المرتب كان ينتهي دون أن يبقى منه قرش واحد للطعام أو الكساء أو العلاج واتجه الدكتور كبير الآمال إلى أهله يطلب العون ، ولم يكن أكثر الأهلين يستطيعون ذلك ، وربما كان منهم من يحتاج إلى العون . .

ولست أحب أن أسير في وحف هذا العناء فهو بالنسبة للقارىء عشى عليس بالمجهول . وقد تسبّب عن ذلك أن لجأ بعض الناس إلى الإهمال أو اللامبالاة . . . ولكن من الحق أن أقرر أنني كنت دائماً أهتف بأننى لن أهمل وإن أهمل كل الناس ، ولن أتجه إلى اللامبالاة وإن جذبت اللامبالاة كل الناس .

وبينما كنت أترنح بين العناء والأمل ، أحاول بصلابة أن أقف على قدمي بجهدى ، حدث حادث غير مجرى حياتى ، وبدأ بى عهداً جديداً ، وسيكون هذا الحادث موضوع الدراسة التالية .

مع ثورة ٢٣ يوليو

مقدمة :

لست هنا أريد أن أتكلم عن ثورة ٢٣ يوليو ، ماذا قدمت لمصر وللعالم العربى ؟ وماذا يؤخذ عليها بالنسبة لمصر وبالنسبة للعالم العربى ؟ لا ، ليس هنا موضع الكلام عن هذه الثورة من هذه الزوايا فقد خصصت للحديث عن هذه الثورة جزأين كبيرين من موسوعة التاريخ الإسلامى ، تحدث الأول منهما عن عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم ، وتحدث الثانى عن عهد السادات عهد النجاح إلى حد كبير فى الأمور الخارجية ، والفشل الشامل فى أمور الداخل ، ولست فى حاجة بعد هذين الجزأين لإية زيادة فى القول عن هذه الثورة العاشمة .

وهنا أريد فقط أن أتحدث عن الثورة من ناحية ارتباطها بى شخصياً ، وأثرها بالنسبة لى وموقفها منى ، أو بلغة أخرى أريد أن أتكلم عن دور الثورة فى التأثير على رحلة حياتى .

وكلمة ثورة فى تقديرى كلمة غير مناسبة ، فقد حكمتنا عصابة من الشباب الأهوج وأسمت نفسها ثورة ، وهى فى الحق عصابة نهبت المال والسلطان ، وأذاكت الإنسان ثم انقضت بعض أعضائها على البعض الآخر دون هوادة ، كما فعلت هى مع الآخرين ، أما شئون البلاد فقد أهملت تماماً ، للجهل من جانب وللتفرغ للأمور الذاتية من جانب آخر فوقفنا حيث كنا ثلاثين عاماً أو عدنا إلى الوراء فى حين يسير العالم للأمام بخطى بطيئة أو سريعة ، ولنترك السير فى هذا النطاق للمجلدين السابقين ، ولنعد لهدف هادى ؟

الحكم بمصر قبل الثورة :

كانت مصر قبل الثورة تعاني من الاستعمار ومن ديكتاتورية الملك ، ومن حاشيته وأعوانه من أحزاب الأقلية الذين خلقهم ليستبد باسمهم ، فاكتفوا بظاهر الحكم وهو فئات المائدة ، وتركوا للسيد الرابض فى عابدين مطايب الفريسة ، وقد كان الملك يحارب الدستور بإلغائه وتخلق دستور مهلهل كما يريد ، ولكن الشعب كان يزار : فريد دستور ١٩٢٣ ،

فخطر للملك خاطر سحرى أو اقتترح عليه من زبانيته هو أن يعيد دستور ١٩٢٣ ، على أن يكون حبراً على ورق فقط ، ووجد الملك في هذا الاقتراح بغيته ، فأبقى هذا الدستور بحيث يكون كتاباً دون مداول ، وكلمات لا معنى لها .

وكان الاستعمار يسيطر على الدولة سيطرة كاملة ، وله الكلمة النافذة ، وكان يدع الملك وأعوانه في سباتهم ما داموا قانعين بالمظهر دون المخبر ، وكان الاستعمار يأخذ جانب الملك في صراعه ضد حزب الوفد الذى كان يحظى بأغلبية ساحقة بين المواطنين ، ولكن الاستعمار كان يهمل الملك عندما تتأزم الأمور ويرى أن حاجته للاستقرار تحتم أن يترك الحق لأصحابه ، فحينئذ فقط كان الاستعمار يرغب الملك على إجراء انتخابات جرة ، ومعنى جرية الانتخابات هو فوز حزب الأغلبية ، وكان من عادة الاستعمار أن يتخلى عن هذا الموقف بمجرد انتهاء الأزمة ، فيخضوع الملك وأعوانه للاستعمار مضمون ، وبخاصة أنهم مغتصبون للسلطة من ممثلى الشعب ، والمغتصب ضعيف الجانب دائماً .

تلك كانت سياسة الإنجليز ببلادنا ، وهى تتنافى مع سياستهم في بلادهم ، فهناك لا تزوير في الانتخابات ، وهناك الحرية الكاملة في حدود القانون لكل فرد ، ولكل حزب ، فإذا تخطي الإنجليز البحر ووصلوا إلى المستعمرات تغيرت أخلاقهم تماماً . فلا عدالة ولا حرية ، وإنما مصلحة الإمبراطورية قبل كل شئ .

المهم أن حزب الوفد كان في الحكم في منتصف هذا القرن ، وقد حقق أعمالاً ضخمة كمجانية التعليم وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وتعيين جميع الذين كانوا يعملون مع الجيش الإنجليزى بقاعدته بالقنال ... هذا بالإضافة إلى بعض الإصلاحات الداخلية ، وبهذا زادت أقدام الوفد رسوخاً ، ولم يكن من السهل أن يقيلمهم الملك ، ويأتى برجال من الأحزاب التى خلقها ليحكم باسمها ، فهدم الملك وأعوانه مأساة قاسية هى حرق مدينة القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، ولعبت إلى يده الثورة متضامنة

مع الإنجليز وأعداء البلاد فأشعلت النار في عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهي تحترق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين في إطفاء النيران وإيقاف المشغب ، ويشهد الله أن دموعنا عاشت معنا ونحن نطفئ اللهب ، وأن صرخاتنا هددت من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق ، والملك يرحب بكبار رجال الجيش والبوليس في مأدبة أقامها لهم في القصر — حسابهم علي الله — حتي لا ينفذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقال فاروق حكومة الأغلبية . لقد كانوا يأكلون لذيق الطعام والنار تأكل القاهرة ، يالهم من خونة .

ثورة أو تسلط :

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو بعد هذه الأحداث وبعد فترة مريرة من الاضطراب والقلق ، فلا غرو أن أحسن الجميع استقبالها ، وأن اندفعت القلوب والنفوس ترحب بها لتكون نقطة انطلاق لهذا البلد ، ولتزيل عنه كابوس الاحتلال وطغيان القصر ، ورجال الإقطاع الذين ورث الكثيرون منهم ثرواتهم عن أجداد خانوا الوطن ويسروا للاحتلال الإنجليزي طريقه ، ولتزيل أذنان الاستعمار ، ولتقيم جيشاً قوياً يضمن لنا السلامة أمام تحدي الصهاينة ، ولتقيم حياة ديمقراطية سليمة .

ولم يطل نسأؤلنا حول هذه الثورة فإن البيان الأول لها كان يجبر عن كل ما في نفوسنا وينطق بكل ما نتطلع له آمالنا حين أعلن أن برنامج الثورة هو :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه .
- القضاء على الإقطاع .
- القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
- إقامة عدالة اجتماعية .
- إقامة جيش وطني قوى .
- إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وأحسن الناس استقبال الثورة وفي طليعتهم رجال الجامعات ، ومضى أسبوع واحد على هذه الثورة ضَمَن لها كل الأمان ، فقد أيدها الشعب أعظم تأييد ، وأيدتها أمريكا ، ولم تستطع قوى الاستعمار البريطانى أن تواجه العاصفة فقبعت في معسكراتها ، وطردَ الملك ، وقبض عبد الناصر على كل عناصر الجيش الأقوياء ، وأصبح كل الزمام في يد عبد الناصر ويد عبد الحكيم عامر صديقه الأول ، وحينئذ أسفر عبد الناصر عن اتجاهه الحقيقى وهو الاستبداد والانتهازية ، فثار ذلك مخاوفنا وأحسسنا أننا نتردى إلى حكم الجيش ، ونبعد تماما عن الديمقراطية والعدالة ، وعندما ينزل رجال الجيش إلى عالم السياسة يفشل الجيش وتفشل السياسة جميعا (١) ، وتذكرنا ما حدث لمصر عندما حكمها الجيش في عهد المماليك ، وتمثلت لنا معشر الجامعيين عملية القضاء على بطل من أبطال التاريخ المصرى هو السلطان قطز عقب عودته منتصرا من معركة تعد من أشهر معارك التاريخ وهى معركة مصر ضد التتار في عين جالوت ، وقد بذل قطز في هذه المعركة جهدا جبارا وحقق نصرا عظيما وحمل الحضارة الإنسانية من فوضى الغول ، ولكنه لقي حتفه في أثناء عودته على أيدي بعض منافسيه ، وألقى بجثمانه في الفلاة ، وحصل مثل هذا لعلى بك الكبير الذى حقق ضد الأتراك انتصارات باهرة ثم قضى عليه بعض الطامعين ومثل هذا كثير في التاريخ ، وكنا نحس صرخات قلوبنا باننا لا نريد أن تستعمل القوة فيما بيننا بعضنا والبعض الآخر ، لا نريد أن يكون بأسنا بيننا شديدا ، ونطمح أن توحد القوة وتتجه نحو العدو الذى يدق أبواب ديارنا ويهددنا بالويل والثبور (٢) .

وانتشر دوى هائل في الجامعات يحمل هذه المعانى ، ويذكر أن الثورة التى قام بها الجيش ينبغى أن تكون من أجل مصر ، لا من أجل أفرادها .

(١) اقرأ تفاصيل ذلك في الجزء التاسع من موسوعة لتاريخ الاسلامى للمؤلف وهو الجزء الخاص بعهد عبد الناصر .
(٢) في حديث للرئيس أنور السادات بمجلة الحوادث (أكتوبر ١٩٧٢) ذكر سيادته أنه بعد حرب ١٩٥٦ كان لابد أن يتحول الجيش الى مهمته الاساسية وهى القتال ، وأن يبتعد عن السياسة . ولكن الجيش ذاق جلاوة السياسة ووظائف الوزراء والسفراء فتمسك بالثرف .

صرخة ضد حكم الجيش :

وبهذه المعانى التى كانت شائعة فى الجامعة ألقيت سنة ١٩٥٤ خطاباً فى القاعة الكبرى ، على جماهير الطلاب والأساتذة ، الذين كانوا يملكون بهذه الأفكار ، وكانوا قد اجتمعوا للتشاور فى الأمر .

ربما تسألنى : لماذا حملتُ أنا هذا العبء وغيّرتُ جهرًا وبصوت عالٍ عما يجيش فى نفوس بعض الناس أو ما يتهامس به آخرون ؟

والإجابة على هذا تكمن فى الفصول السابقة التى دونتها عن رحلة حياتى ، فقد كنت فى مراحل متعددة خطيب الطلاب والمعلم عن أمانيتهم ، كنت لسانهم الذى يفصح عما ينفون ويجهرون بما يشترشون ، فلا عجب أن أندفع كما كنت دائماً لأرفع الصوت الذى يدور بين أكثر الطلاب والأساتذة بالجامعة . وللحق أذكر أننى لم أكن وحيدى هذه المرة ، فقد كلن هناك زملاء حملوا معى هذا العبء ولاقوا نفس المصير .

وقد فتحت على هذا الخطاب أبواباً من المراقبة عرفت أخبارها فيما بعد ، فقد أحاطت بى العيون ، لتعدّ حركاتى وأنفاسى ، فانتضح لهذه العيون بما لا يدع مجالاً للشك أننى لست عضواً فى أية جماعة ، وأن الكلمة التى ألقيتها كانت من وحي نفسى وبِدافع وطنى خالص ، ولم تكن بوحى من أحد أو بإيعاز من أية هيئة ، وعرفت من بعض أصدقائى خبر هذه العيون أو المخابرات التى أجمعت على أنى أعيش بين البيت والكلية قليل الاتصالات ، وأن حياتى كلها وضوح وجلاء ، وكان من أثر ذلك أنه لم يمتدّ بصً على فى جولات القيص التى تزلت ببعض الطوائف ، وبخاصة بالنسبة للاخوان المسلمين الذين كان جهدهم واسعا فى الحقل الإسلامى الذى أعمل فيه .

كلمة عن الاخوان المسلمين :

وبهذه المناسبة أذكر ابن جديقا ذكيا سألني مرة : أليهم تكن عضواً في جماعة الإخوان المسلمين ؟

قلت : لا . قال : أليهم تتعظم بذلك ؟ قلت : أبداً . قال : كيف لم تكن من الإخوان المسلمين مع أن كل دراسيتك وفكرتك وجهتك كانت لخدمة الإسلام ، وخدمة المسلمين ؟

قلت : لأن بعدى عن هذه الجماعة كان لأسباب هي :

أولاً : بتناسيد مع حياتي الاستقلالية التي لا تقبل أن تنماح في الجماعة على النجس الذي عرفته في الإخوان المسلمين ، وقد عرفت الإحزاب والكتلات ، وأدركت ضرورتها ولكن كيان الفرد كان يبقى في هذه الأحزاب مع بقاء كيان الجماعة ، بمعنى أنني وأنا وغدي كنت أشارك الإخوان المسلمين في الدعوة إلى الإسلام وشرح مبادئه وأخلاقيته ، وأصفق لأي نجاح ديني يحرزونه ، وعرفت شباب المحافظين في إنجلترا يتعاونون في مختلف الشئون الجامعية ويتحاربون مع شباب حزب العمال ، وهكذا ، ولكن عضو الإخوان المسلمين كان لا يجيد نفسه غالباً ، وإلزاماً كان صدى للجماعة ، ولا يري في الدنيا سوي الإخوان المسلمين ، ويعتد غيرهم فراغاً أو ضللاً ، لدرجة أن شبابهم قاطعونا وحسيبوا أن الحديث مع غير أبناء جماعتهم خروج عما يجب أن يكون ، قد يكون ذلك انحرافاً ، ولكن ذلك كان شائعاً على كل حال .

ثانياً : لأنني صادفت عقب عودتي من أوروبا شخصين أحدهما طالب في كلية دار العلوم والثاني من أصحاب العضلات بالريف ، وكنا عضوين متحمسين من أعضاء هذه الجماعة ، ولكن حماستهما كانت جاهلة أو حادة ، فلم أقبل أن أنضم لشعبة الكلية بسبب هذا ، ولا لشعبة الريف بسبب ذلك .

ثالثاً : لم تدع لى الدراسات التى ارتبطت بها وقتاً لاجتماع ، أو فراغاً لمثل هذه العضوية .

وهكذا خلت قوائم الإخوان المسلمين من اسمى تماماً ، وليس ذلك شيئاً أخف به ، ولكنه حقيقة أقررها ، ونحن نستنكر أعمال العنف التى تسبب القيام بها للإخوان المسلمين ، والتى كانت صدى للتنظيم السرى الذى أنشأته هذه الجماعة وما كان لها فى تقديرى أن تنشئه ولكننا نذكر بكل تأكيد أن هذه الجماعة لعبت دوراً إسلامياً رائعاً فى حياة الصبيان والشباب والرجال ، وغرست أخلاق الإسلام فى الملايين ، وجعلت الانتساب للإسلام مفخرة يعتز بها الكثيرون ، وربطت بين المسلمين فى مختلف الانحاء ، وتكونت من المسلمين قوة هائلة هزت غطرسه الاستعمار وقوى الغرب وطلائع الصهيونية ، ودعت إلى المكاتب والمصانع والوظائف جماعات تعرف الله وتخافه ، وبالتالي تنتج بجد وتعمل دون رقيب من الناس ، ولا تمتدح لها الشبهات ، ولا يمسها الانحراف ، وكانت كلمة « من الإخوان المسلمين » ظاهراً للتميز عن الصغائر ، والبعذ عن الرشوة ، وعن الإهمال ، والحرص على أداء الواجب ، وحيثما رأيت الآن رجلاً يبرر به هذا الطابع فأعرف أنه غالباً كان منتسباً إلى هذه الجماعة .

لو سارت جماعة الإخوان المسلمين فى طريقها الإسلامى وبطحت عن التنظيمات السرية التى ربطتها ببعض الجرائم لكان للمسلمين الآن شأن آخر ، ولما استطاعت قوى الشر أن تنال من المسلمين أو تعتدى عليهم ، فكلم من لسان آخرسته قوة هذه الجماعة ، وكلم من غزو توأرى خوفاً من الإخوان المسلمين ، فلما اختفت هذه الجماعة ظهرت انياب الأعداء ، واخذت تهاجم المسلمين بشراسة ، وكانت هذه الانياب من قبل كلياسة هزيلة .

قرار مجلس قيادة الثورة بقطلى من الجامعة :

ومرت أيام أو شهوز على خطابى الذى ألقيته باللقاء الكبرى ، وجاء امتحان الدور الثانى بالكلية فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ وكنت عضواً فى لجنة

المراقبة ، وكنت أبأثر أعمالي في هذا الامتحان بكل نشاط وحماسة ، أذرع فناء الكلية جيئةً وذهوباً بين لجان الامتحان عدة مرات يومياً ، وكان يطيب لبعض أساتذتنا أن يطلق على « دينامو الكلية » تأكيداً للنشاط الذى كنت أبذله فى مختلف الشئون العلمية والاجتماعية ، وبينما كنت أزاوّل هذا النشاط كان هناك أمر قد دُبّر ، وقرار قد صدر من مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة ، كان الكل يعرفونه إلا أنا ، فقد استقر رأيهم على أن يرسل القرار للبيت فى نهاية اليوم ، كانت هناك نظرات إشفاق ولكنى لم أتبينها ، وخلصات قلوب ولكنى لم أحس بها إلا بعد أن عرفت القرار ، حينئذ فقط أدركت لماذا كانت بعض العيون لا تريد أن تلتقى بعيني فى الصباح ، ولماذا كان بعض الرفاق يتحاشى الحديث معى خوفاً من أن تمتد له الشبهة ، أما أنا فقد أمضيت صباح اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٥٤ فى نشاط وابتسام وأمل ، دون أن أعرف ما تخبئه الظروف .

وعدت إلى البيت بعد يوم حافل بالجهد والعمل ، وبعد قليل دق جرس الباب ، وسرفان ما استدقيت لمقابلة « ساعى الكلية » وكان اسمه « فريج » وكان « فريج » يجيء إلى البيت من حين إلى حين ، وكان من عادته أن يتأنّى إذا جاء إلينا ، وربما كان من عادتنا أن نقدم له بعض الشراب أو الطعام إذا كان الوقت وقت طعام ، وإن ندس فى يده بعض النقود ، ولكنه هذه المرة كان متعجلاً ، لم يخط إلى داخل البيت ، ولم يتسّم ، وطلب مقابلتى ، وما إن تقدمت منه حتى مدّ يده بخطاب مسجل و « بسركى » أوّقع فيه بتسلم هذا الخطاب وتمّ ذلك فى لحظات أسرع بعدها « فريج » فى الانسحاب ، وعيناه تسابقان قدميه ، وهو يهبط درجات السلم .

لقد كان هذا المظهر ينبىء بشيء ، ولذلك اختفيت فى حجرة مكتبى لأقرأ هذا الخطاب ، فوجدته يذكر أن مجلس قيادة الثورة قرّر فصلى من الجامعة ، وأن مجلس الجامعة وافق على ذلك ، وأسرعت أخفى هذا

الخطاب حتى لا تقع عليه عين زوجتي أو أحد* من أهلي ريثما أهيب أذهانهم لتلقى هذا الخبر ، وقد كانت مهمة ثقيلة أن أتطور بأهلي وبرفاقي حتى لا أهاجئهم بهذا الخبر الحاد العنيف ، وإن القاريء الآن قد لا يحس بجسامة هذا القرار ، لأن بعض أساتذة الجامعة الآن ، ومدرسيها ، يستقيلون من الجامعة ، ويؤثرون العمل بالخارج ، ولكن هذا التصرف آنذاك لم يكن موجوداً ، فلم تكن الجامعات قد وجدت بعد في العالم العربي ولا كانت وسائل الإغراء موجودة ، بالإضافة إلى خطر المواجهة مع ثورة عسكرية .

جهاد من أجل لقمة العيش :

وجلست مع نفسي أتساءل : ماذا فعلت حتى أستحق هذا العقاب ؟ وأي خطأ في أن أقول ماتراه الجماهير المثقفة خيراً للوطن ؟ ثم استبعدت هذه التساؤلات ورحت أواجه الحقيقة ، كيف سنعيش ؟ وما الوسيلة للحصول على رغيف الخبز ؟ لقد كنت في مطلع الحياة ، وكانت مدة خدمتي بالحكومة قصيرة لا تتيح لي أن أحصل على معاش ، وحتى المكافأة التي أستحقها كان لا بد أن تمضي شهور أو سنين لأنالها ، والمعدة لا ترحم ولا تنتظر ، والأهل والأطفال يتطلعون إلى الزاد ومطالب الحياة ، وانتهيت بسرعة من تهيئة النفوس لتلقى هذا الخبر ، وبدأت أفكر في عمل لأنال منه الرزق ، وكانت مؤهلات العمل عندي موفورة ، فإنني أجيد تدريس اللغة العربية وآدابها ، وأجيد تدريس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وأجيد العمل في الصحافة ودور النشر ، وأجيد اللغة الإنجليزية . وبدأت أدق الأبواب وأعرض نفسي ، ولكن راعني أن الرعب كان يملأ نفوس الناس ، فليست هناك مؤسسة أو شركة أو مدرسة تقبل أن تفتح أبوابها لإنسان فصله مجلس قيادة الثورة ، فالجميع أجمعوا على أن هذا نوع من التحدي لا يطيقونه ، وحسبوا أنه ذنب لن يغفره لهم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

ومر الزمن متثاقلاً من جانب وسريعاً من جانب آخر ، فالمدخرات الخفيفة التي كانت في أيدينا قد نفدت ، والعمل في أى لون من ألوانه محرم ولا سبيل إليه ، والرفاق بدعوا ينكمشون عنا خوفاً من أن ينالهم شيء إذا قربوا منا ، فقد كان الذعر يصور للناس أن المفصول مغضوب عليه ، وأن التعاون معه قد يجره مزيداً من المصائب ، وأشهد أنني كنت أبتعد عن الكثيرين من الأصدقاء خوفاً عليهم ، فإذا كان الناس قد ضنوا علينا بأى لون من ألوان التعاون ، فإننا لا نستطيع أن نلومهم أو نعتب عليهم فقد كان شائعاً أن من يتحدى الثورة أو يقرب من المغضوب عليهم فإنه يتحتم أن ينتظر البطش الشديد .

وهكذا عرفنا شظف العيش أو قل عرفنا الجوع ، وكنت أملك بقوة على أحاسيسي لأرسم على شفتى ابتسامة رضا أقابل بها الناس حتى لا يالم صديق أو يثمت عدو .

الشيوعية تحاول اجتذابي :

وهناك فخ بشري نصيب لي في هذا الوقت واختار هذا الفخ الوقت الملائم ليصيدني ، وقت الحاجة والجوع ، وقصة ذلك أنه كان هناك شاب تربطني به صلة العلم ، وكانت له اتجاهات يسارية ، وقد دبّر هذا الشاب لقاءً معي ، وبعد حديث هنا وهناك عرف منه بعض ما أعانى انطلق يقول : إن الحزب الشيوعي يرحب بك ، ويرى فيك أملاً هائلاً ، ومستقبلاً كبيراً لك وللحزب ، والحزب مستعد أن يتعاون معك و

وكان هذا الحديث مفاجأة لي ، ومثار سخرية بهذا الشاب ، فقلت له إننى لم أكن شيوعياً يوماً ما ، ولن أكون شيوعياً قط ، إن الإيمان بالله عقيدة عميقة الجذور في نفسى ، والفكر الماركسى في ناخية العقيدة الدينية والاتجاه الاقتصادي فكر بعيد كل البعد عن مشاربى وعن روحى وقلقى ، وصرخت في هذا الشاب قائلاً : أتحسب أن ما أعانى من جهد يدفعنى لأبيع نفسى ؟ هذا مستحيل ، واضفت إليه قولى : إننى تربيت في جوٍّ أزهرى ،

كنا أحياناً ناكل الفول ثلاث مرات في اليوم ، وكانت الخشونة طابع حياتنا ،
وإننى أستطيع أن أعود لهذه الحياة بسهولة إن لم ينفتح لى باب
بذق كريم .

وتراجع هذا الشاب . وكان هذا آخر العهد به فى مضمار هذا
الاتجاه .

ويح هذه الفخاخ التى طالما انتهزت الفرص لتتحرف بالناس من
طريق إلى طريق ، ويوح الظروف التى تضع الناس بحيث تلعب بهم الرياح
وتجعلهم هدفاً للشباك والانحراف .

وفى دوامة المأساة ظهر شعاع من النور ، فقد أشيع خبر فصلنا من
الجامعة ، وكنا ثمانية عشر عضواً من أعضاء هيئة التدريس من مختلف
الثقافات ، وعرفت الدول العربية هذا الخبر ، فأوفدت حكومة العراق
مندوباً عن جامعتها ليعرض حاجة الجامعة هناك إلى جميع هؤلاء الذين
استغنيت عنهم حكومة مصر ، وذكر هذا المندوب أن بالعراق جامعة وطلاباً
وأنهم فى أمس الحاجة إلى الاساتذة من مختلف التخصصات ، وفرحنا
بهذا الخبر واتصلنا بالاستاذ المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وكان يومها
مستشاراً غنياً لوزارة التربية والتعليم فحمل سيادته — رحمه الله وأثابه —
هذا الخبر إلى وزير التربية والتعليم وكان أحد ضباط الثورة واسمه
« جمال سالم » قائماً بعمل هذه الوزارة آنذاك ، وأيد الاستاذ فريد
أبو حديد هذا الرجاء وزكاه ، وسأله جمال سالم عن المرتبات التى ستصرف
لنا فنقل له رأى حكومة العراق ، بأنها تعطى المعارين حوالى أربعة أمثال
مرتباتهم فى القاهرة ، ولكن الرجل صاح فيه : هل كان فصلهم عقوبة أو
مكافأة ؟ ورفض السماح لنا بالسفر . وخبا هذا الشعاع .

الصراع من أجل لقمة العيش ، ومعروف لا ينسى :

وفى أمسية من الأمسيات دق جرس التليفون فى الشقة المجاورة لنا —
وكانت الاتصالات بنا آنذاك تتم عن طريق هذا التليفون — وكان المتحدث

هو الأستاذ نجيب القويسنى ، ولم أكن أعرفه ، ولا سمعت صوته من قبل ، وعرفنى بنفسه ذاكراً لى أنه يَشرف على بعض المدارس الأجنبية بالزمالك وأنه يدعونى للتدريس بها • فسألته : هل يأمن على نفسه أن يفتح لى هذا الباب ؟ فأجاب أن لا شىء فى ذلك ، ورَّحب بى وعيَّن لى مدرسة طلب منى أن أذهب لها فى اليوم التالى •

ما العلاقة التى كانت تربطنى بالأستاذ نجيب والتى دعت أن يتعرف على وسيلة للاتصال بى ، وأن يتصل بى ويهينى لى وسيلة العيش ؟ هل هى الجانب الإنسانى ؟ ربما • ولكن العلاقة التى أحسها به هى معهدنا العظيم « دار العلوم » فكلانا نبت هذا المعهد وقد خلق هذا المعهد علاقات ود على البعد والقرب بين كثيرين من خريجيه • تحية لهذا المعهد وتحية عميقة للأستاذ نجيب على فضله المشكور •

وقد بت ليلة اتعجل الصباح لأهرع إلى هذه المدرسة ، ومع مطلع الشمس كنت أخطو نحوها ، ودَلفْتُ إلى فنائها مع تلاميذها المبكرين ، وبعد قليل كنت فى حجرة المديرية الانجليزية ، ودار حديث بينى وبينها ، قدمت نفسى باسم « أحمد شلبى » بدون دكتور فمدرس اللغة العربية بمدرسة إعدادية لا يمكن أن يكون دكتوراً ، وسألتنى عن الشهادة التى أحملها فأجبت « ليسانس كلية دار العلوم » و « دبلوم فى التربية » ولم أنكر ما زاد عن ذلك من شهادات ودرجات علمية فليس له ضرورة فى ذلك العمل ، وسألتنى عن خبرتى فى التدريس ، فأجبت بأنى عملت فى المدرسة النموذجية التابعة لمعهد التربية العالى للمعلمين « كلية التربية الآن » وكان هذا كافياً لاتسالم على •

وبعد أسبوع سألتنى المديرية عما إذا كان ممكناً أن أدرس التاريخ الإسلامى لتلاميذ الفرقة الثانية ، فابتنمت ابتسامة فيها سخرية من الزمن ، وأجبت بالإيجاب ، وفى جوانحى صرخة تقول : مدرس لا مع (وآسف أن أقول هذا) للتاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة يوضع فى مكان لا يُعرَف فيه حتى يُسأل عما إذا كان يستطيع أن يدرس التاريخ

الإسلامى للفرقة الثانية الإعدادية ، ولكن الإجابتي بالإيجاب لم تضع
جداً لتساؤلات المديرية ، فقد أضافت أن تدريس التاريخ الإسلامى يحتاج
من المدرس أن يعرف بعض اللغة الانجليزية لأنها لغة التعليم فى هذه
المدرسة ، وإذا كان القانون يحتم أن يدرس التاريخ الإسلامى باللغة
العربية فإن اللغة الانجليزية وسيلة ضرورية لتيسير الأمر على الطلاب ،
وطمأنت المديرية بأنى أعرف الانجليزية ، وأنه لا داعى لأن تقلق .

ومرت فترة أظهرت فيها كفاءة طيبة ، وثلت تقدير التلاميذ وإدارة
المدرسة ، وجاء يوم مشهود كشف القناع الذى أسدلته على وجهى طيلة
الفترة السابقة ، فإن مفتش اللغة العربية جاء فى دورته الأولى وسأل
فى حزم : هل استكملتم هيئة التدريس بالمدرسة فى نطاق اللغة العربية
والمواد القومية ؟ فتلقى الإجابة بالإيجاب ، وسأل عن المدرس الجديد
وضرورة أن يكون من حملة المؤهلات المناسبة ، فذكر له سكرتير المدرسة
أنه يحمل ليسانس دار العلوم ودبلوم التربية ، وسأل عن اسمه فذكروا
له أن اسمه أحمد شلبى ؟ فانتفض الرجل وعاد يسأل : من ؟ دكتور أحمد
شلبى ؟ مستحيل : فقالوا له إنه ليس دكتوراً ، فسأل عن صفاته الجسمانية
فتلقى إجابات محددة لاتدع شكاً فى أنه أنا : شعر رأسه أميل إلى البياض ،
وعينه خضراوان . وأضاف السكرتير : هل نحضره لسيادتك ؟ .

فقال المفتش : تحضره لى ؟ كيف ؟ أبداً ، وتسلل المفتش من المدرسة
بعد أن أوصى بى كثيراً ، وذكر لهم شيئاً عن تاريخى ، ومنذ ذلك الحين ثلت
فى المدرسة مكاناً مرموقاً ، وصعد مرتبى إلى درجة طيبة ، تحية لهذا الزميل
الكريم ، ودعاء أن يحسن الله جزاءه .

ولكن الفترة المربرة التى اجتريتها ، والتى عانيت فيها الجوع أو
ما يقرب منه ، جعلتنى أخاف الحياة ، وأعمل بجد لأحصل على موارد أكثر
من حاجتى ، لأدخر بعضها خوفاً من أن تتكرر المأساة ، ومن الأعمال التى
زاولتها فى هذه الأثناء أن عملت بمدرسة أخرى بالزمالك وحاولت تنظيم
الجدولين حتى لا يحدث تضارب ، ولكن كان على أن أقطع المسافة بين

المدرستين جرياً على الأقدام أحياناً حتى تكفى الدقائق الخمسة بين الحصتين
لانتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ولم يكن ينقذنى من الجرى إلا أن أجد
سيارة (تاكسى) لتنقلنى هذه المسافة ولم يكن ذلك شيئاً ميسوراً فى الغالب
لأن الشوارع خلفية لا توجد بها (تاكسيات) وعلى هذا شهدتنى هذه
الشوارع أجرى من حين إلى حين وبخاصة إذا خلت هذه الشوارع من
الناس وكثيراً ما كانت خالية •

العمل بالصحافة :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأثناء العمل بالصحافة ، فإن الزمن
الذى مضى منذ فصلنا من الجامعة برهن لولادة الأمور على أن العمل والإنتاج
هدفى ، ولست مصدر خطر من قريب أو من بعيد فسمح لى بالعمل بعد أن
كنت أزالول العمل بالمدارس السابقة من طريق خفى ، وحينئذ تقدمت
لصحيفة الأهرام فخصمتنى إلى محرريها ، وأمضيت بها فترة خصبة استفدت
خلالها وأفدت كثيراً من الفكر والتجارب ، ومن الممكن أن أكتب كثيراً عن
تجربتى بالصحافة ، وهى تجربة متشعبة تتصل بالمهنة فى ذاتها ، وتتصل
بالأشخاص الذين يزاولون هذه المهنة ، وبالسلطات التى تتولى الرقابة
عليها ، ومع ما فى ذاكرتى ومذكراتى من مخزون حول الصحافة لمأنى
لا أستطيع أن أنطلق متحدثاً عنها لعدة أسباب ، وقد سبق أن ذكرنا فى
منهاج هذا الكتاب أنه ليس كل ما يعرف يقال •

العمل بالمؤتمر الإسلامى وظروفه وتجاربه :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأزناء العمل بالمؤتمر الإسلامى،
وقد كان أنور السادات يشغل منصب السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى
فى أثناء تلك الفترة التى التحقت خلالها بالمؤتمر ، وموضوع التحاقى
بالمؤتمر الإسلامى موضوع له جذور قديمة ، فلنبداً فى تصويرها :

كنت بمعهد الزقازيق فى الثلاثينات من هذا القرن ، وكنت فى آخر هذا
العقد أقود الطلاب بالشرقية فى الحركات الوطنية التى كانت تموج بها
البلاد آنذاك وكان صوتى — خطيباً وشاعراً — معروفاً فى الزقازيق ،

وكان بمدرسة الزقازيق الثانوية طالب يحب الأدب والشعر ، وتموج نفسه بالوطنية الصادقة ، فالتقينا في هذا المصمار التقاءً يمكن أن نصفه بأنه من جانب واحد ، فقد سمعنى هذا الطالب وأعجب بى ، ولم يتح لى أن أعرفه ، ومرت السنوات ، وعندما فصلت من الجامعة كان هذا الطالب قد وصل ثقافياً واجتماعياً إلى مكانة عالية ، ومنصب مرموق ، وأصبح يحظى بثقة قادة الثورة ويستمتع بمكانة مهمة عند أولى الأمر ، وعرف هذا الإنسان العظيم خبر فصلى بعد فترة فاستدعانى للقاءه ولأول مرة بعد الفصل رأيتنى فى حضرة مسئول كبير يبتسم وينبج الجانب الإنسانى من كل جوانبه ، وأخذ يهدئ من روعى ، وقد أدهشه ثباتى وإيمانى ، وسألنى عما يمكن أن يفعله لى وظهر اهتمامه بى اهتماماً غاق كل تصورى ، حتى اضطررت أن أسأله : ما مصدر كل هذا الاهتمام بى فى وقت انصرف عنا كل الناس ؟ وأبان لى الرجل الصلة القديمة التى ربطتنا بالزقازيق ، والتى دعتة ليتعرف على اتجاهات حياتى وأنا بالجامعة ، فلم يجد فيها ما يستدعى ما نزل بى من عناء .

وسألنى بعد ذلك عن المؤسسات شبه الحكومية التى تتناسب مع ثقافتى ، فقفز اسم « المؤتمر الإسلامى » وبعد بعض اتصالات حدد موعداً يصحبى فيه بنفسه لمقابلة السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى ، وركبت معه سيارته ، وبعد قليل كنا فى مكتب الأستاذ أنور السادات وأحسست أننى فى حضرة أخوين حبيين ، كان أحدهما يقدمنى برفق والثانى يتلقانى بعطف وحنان ، وتركنى المرحوم الأستاذ محمد فهمى السيد فى كنف كريم ، وعاد .

يارب ؛ لقد حلّ هذا الإنسان العظيم فى رحابك فجازاه عنى خير الجزاء ، فإننى لا أملك إلا الدعاء العميق أن تجزّل ثوابه ، وتكرم مثواه ، وهأنذا أسجل فضله وأدعوه من أعماقى ، وذلك كل ما أستطيعه تجاهله ، على أنى إذا فعلت الخير وساعدت المحتاج هنا أو هناك فإنى أقضى دينى بطريق غير مباشر ، فالإنسانية وحيدة واجدة ، واعتقادى أن إنساناً ما لو أحسن لك ولم يكن فى حوالك أن تجازيه كان عليك أن تحسن للآخرين دون

تتوقع أى جزاء منهم وهكذا دواليك ، حتى ينتشر الخير ويذيع ، ومصدره إنسان غرس بذرة طيبة فاینعت وازهرت وعم نفعها •

وفى المؤتمر الإسلامى أمضيت فترة حافلة بالخبرات والتجارب ، فقد وجدتنى أعمل غير بعيد عن رجال الصف الأول من قادة الثورة ، وجنباً إلى جنب مع رجال الصف الثانى ، وقد رأيت العجب العجاب من هؤلاء وأولئك خلال هذه الفترة •

ماذا رأيت ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال أعود قليلاً إلى الوراء لأقرر أن معرفتى بالأحزاب السياسية كانت تفيد أن الحزب يتكوّن من قوة متماسكة متعاونة قد يجدد خلاف فى داخلها ولكن سرعان ما يزول هذا الخلاف بازالة أسبابه والعودة للتماسك ، أو — عند الضرورة — ببتّر المجموعة المتمردة ليعود التماسك والتعاون إلى جماعة الحزب ورجاله ، ولكن الحال بالنسبة لرجال الجيش الحاكمين كان غير ذلك ، كان صراماً شديداً الشطط وكان مراكز متعددة لايربطها رابط ، وكانت هذه المراكز متجافية ، يكره بعضها بعضاً ، ويحقد بعضها على بعض ويتمنى كل فريق للفريق الآخر كل جوانب الوبال والفشل ، أرأيت ما حدث غيماً بعد من تصرفات عبد الناصر ضد صلاح سالم والبغدادى ومن اعتقاله لكمال الدين حسين •• وأرأيت ما فعله السادات ضد كمال الدين حسين وذويه وضد حسين الشافعى ••• ؟ وأرأيت الوجوه التى اختفت والوجوه التى برزت فى الساحة بعد ذلك ؟ كل ذلك كانت له نذر شاهدهتها فى الفترة الأولى من فترات ما يسمى الثورة ، ومع هذا فلن نقف هنا لنسرد أى شىء من الحشود الزاخر الذى امتلأت به الذاكرة من أحداث هذه الفترة ، وقد أوردت الكثير من ذلك فى الجزء التاسع والعاشر من موسوعة التاريخ الإسلامى •

وهكذا أمضيت عاماً حافلاً بالأشواق والورود عاماً عرشت فيه الجوع وعرفت الخير ، عاماً تكشفت لى أحداث ما كان أحوجنى للتعرف عليها ،

عاما عملت فيه مدرسا وصحفيا وموظفا بارزا بالمؤتمر الإسلامى فى وقت واحد عاما كنت أخرج خلاله من المنزل فى الساعة صباحا ولا أعود إلا فى الواحدة صباحا ، وكنت أتناول وجبات الطعام كلها بالخارج ، ولا أرى أولادى إلا وهم نائمون ، ومع شوقى لمداعبتهم كنت أحس أن حرمانهم من هذه المداعبة أهون من حرمانهم من الطعام ، ذلك الذى عرفوه فى الفترة الأولى من هذا العام •

وقد ماتت والدتى — رحمها الله وأسبغ عليها رضوانه — فى هذا العام ولم أستطع أن أكون بجانبها فى لحظاتها الأخيرة ولا أن أطيل بقائى بالريف لأنلقى عزاء المعزين ، فقد كانت الأعمال تبتلع وقتى كله ، وقد قبلت هذا آنذاك خوفا من مرارة الجوع والحرمان الذى امتد لهذه السيدة التى كانت قبل ذلك تعيش فى رفاهية وفيرة وخير عميم ، ولكنها على كل حال اقتسمت معنا رخاء العيش الذى جلبه هذا الكد المتواصل عندما سمح لنا بالعمل •

لقد كان فصلى من الجامعة عملا شاقا وقاسيا ، ولكنه فتح أمامى آفاقا عظيمة ، ونقل فكرى من طور إلى طور ، وحياتى من مكان إلى مكان ، وقد جاء الخير من الشر ، ولذلك تجدنى ألتساءل دائما : ماذا لو لم أفصل ، والحق أننى لو لم أفصل لظلت حياتى « روتينيا » هادئا ، واستمرت تسير فى تيار واحد ، لقد شقيت بالفصل حينما ، ولكنه بعد ذلك كان أساس حياتى ومصدر جاهى ، لقد أثرى تجاربى وفتح لى منافذ ما كانت تفتح لو لم يكن هذا الضباب ، وقد تعرفنا على بعض المنافذ فيما سردنا من أحاديث وسررى مزيدا منها فى حديثنا عن اندونيسيا الذى آن الأوان لنبدأ فيه •



في إندونيسيا

مطلع العلاقة باندونيسيا :

صارعت^٥ لإندونيسيا من أجل استقلالها صراعا طويلا ، وقدمت توضيحات غالية لتحصل على هذا الاستقلال ، وقد دام هذا الصراع فترة طويلة وكان الأبطال المسلمون يقودون هذا الصراع^(١) ولهذا ما إن تم الاستقلال حتى اتجهت البلاد لإنشاء معاهد وجامعات اسلامية لرفع مستوى الفكر الإسلامى لدى السكان الذين كان الاستعمار يحول دون أن ينيلهم هذه الغاية .

وفي الشهور الأخيرة من سنة ١٩٥٣ حضر الى القاهرة زعيم مسلم وكان في الوقت نفسه يمثل الحكومة الاندونيسية وهو بروفيسور سوناريو واتصل بجامعة القاهرة ليحصل على أستاذ لدراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالجامعة الحكومية الإسلامية التى كانت قد ظهرت للوجود حديثا ، وبعد مناقشات ومشاورات استقر رأى على أن أعار إلى إندونيسيا لهذا الغرض ، وصدر قرار كلية دار العلوم وجامعة القاهرة بذلك ، وسافر بروفيسور سوناريو الى بلاده ليستصدر قرارا بذلك من رئيس الجمهورية ، وصدر هذا القرار في مطلع عام ١٩٥٤ ومرت الأيام ووصل القرار القاهرة في أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ ولكن بعد فصل من الجامعة ، فلم يكن هناك من سبيل لتنفيذه ، وبقي معطلا .

السجان يطلق السجنين خطأ :

ومرت الأيام والشهور ، وقد خبا الأمل في السفر لاندونيسيا ، فقد كان سفر المفصولين ممنوعا ، وكان دستور الثورة الذى ذكرناه من قبل هو التكنيل بالمعارضين وليس فتح الفرص أمامهم .

(١) شرحنا تاريخ اندونيسيا ومراحل صراعها ضد الاستعمار في الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الإسلامى .

وجاء مؤتمر باتدونيچ في ابريل سنة ١٩٥٥ وهناك التقى وفد من علماء اندونيسيا برئاسة الثورة جمال عبد الناصر ، وبعد التحية والترحيب قال مندوب من الوفد للرئيس : يا سيادة الرئيس أنت زعيم كبير ، ومصر كعبة آمال العالم الإسلامي ، وقد طلبنا من القاهرة العظيمة عالما مصرياً هو الدكتور أحمد شلبي ليساعدنا في انشاء الجامعة الإسلامية وإعداد مناهجها والمساعدة في اختيار هيئة التدريس بها وطريقة اختيار الطلاب وإعداد المكتبة وغير ذلك من الأمور ولم يصلنا الدكتور شلبي حتى الآن والعمل بالجامعة يحتاجه ، وقد طلبناه من مطلع العام الدراسي وأوشك العام على الانتهاء ولكنه لم يحضر . نرجو ياسيادة الرئيس أن تذلل العقبات لذلك ♦♦♦♦

وتحمس الرئيس وقال : كيف كان ذلك ؟ سيصل لكم هذا الأستاذ فوراً ، وأمن السفير المصري بالابراق بذلك للقاهرة ليُرسل الدكتور أحمد شلبي دون تأخير ♦

وفي يوم من الأيام وجدت الشرطة تبحث عني في كل مكان وقد تركوا في مسكني خبراً بالاتصال بهم فوراً ، فاستعذت بالله منهم ، فقد كان لقاءهم يحمل دائماً أقصى الأخبار وينذر بالسوء ، ولكني لم أستطع التأخير فاستسلمت وذهبت لهم فأحسنوا استقبالاً على غير ما كنت أتوقع ؟ وأخبروني بضرورة سفرى في الحال الى اندونيسيا فذلك أمر الرئيس الذى لا يناقش ، وأسرت بالسفر ، لقد كان السفر بالنسبة لى خروجاً من العقال والقلق ♦

لم يكن جمال عبد الناصر يتذكر عندما أرسل يطلب سفرى أننى من المفصولين ، ولذلك عندما عاد وعرف ذلك اشتد غيظه ، ولكن ذلك كان بعد غوات الأوان ♦

وبدأت برحلتى لإندونيسيا/مرحلة جديدة مهمة في رحلة حياتى ستكون موضوع دراستنا في الصفحات التالية ♦

مسقط الرأس :

يتحدث كثير من الناس عن « مسقط الرأس » وعن حنين الإنسان ، إليه وإلفه له ، ولكن ما المدلول الحقيقي لهذا التعبير ؟ هل هو الحى أو القرية حيث وُلِد الإنسان ؟ أو المكان الذى نشأ به ؟ أو الوطن الذى ينتمى إليه ؟

لست أستطيع أن أوافق على أن رباطاً عميقاً يربط الإنسان بالحي الذى ولد فيه ، وكثيرون من الأبناء يولدون فى أحياء بالقاهرة ثم ينتقل ذووهم إلى أحياء أخرى ، وتنقطع الصلة تماماً بين الأولاد والحي الأول ولا يبدو منهم أى حنين إليه ، وقد ولد بعض أولادى فى شبرا ، ثم انتقلنا منها إلى المعادى ، وليس من أولادى من يتطلع إلى شبرا أو يذكرها بأى حنين ، ومثل هذا كثير هنا وهناك .

وقد نشأت أنا كما نشأ كثير من أترابنا بالريف ، وأمضينا به أكثر من عشرين عاماً ، ثم انتقلنا إلى القاهرة ، وارتبطت بها حياتنا فلم يعد الريف لنا إلا أهلاً نزورهم من حين إلى حين ، ونسرع بعد الزيارة للقاهرة حيث أصبحت القاهرة لنا كل شيء ، ولولا بعض المصالح فى الريف ، ولولا وجود الأهل لا نقطعت بالريف السبل كما حدث للكثيرين الذين لم يعودوا يذكرون « مسقط الرأس » بالريف إلا كما تذكر الأحلام ، ومثل هذا يقال فى أبناء الموظفين الذين ينتقلون من مدينة إلى مدينة مع آباءهم ويتكون فى كل مدينة تركوها ملاعب وأصدقاء سرعان ما ينسونهم ويندمجون فى المقر الجديد .

هل « مسقط الرأس » هو الوطن الذى ينتمى إليه الإنسان ، إن ظروف الحياة الجديدة توشك أن تجيب بالسلب على هذا السؤال ، فالهجرة لا تنقطع من بلاد إلى بلاد ، وقد امتلأت أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا بالوافدين من هنا وهناك ، وأقام هؤلاء الوافدون لهم بالأرض الجديدة دياراً وأوطاناً نسوا من أجلها كل شيء ، وقد كنت بالسودان ، ورأيت هناك زملاء من الذين يعملون بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، ول هؤلاء

أولاد وُلدوا بالقاهرة ثم انتقلوا مع ذويهم إلى السودان وهناك تواءموا مع الجو الجديد فأصبح هذا الجو لهم كل شيء ، حتى أنهم كانوا يحسون بالغربة عندما يعودون للقاهرة لقضاء أشهر الصيف •

وقد تقول لى إن المهاجرين يحسّثون بالوحشة وقد يعودون إلى مواطنهم ، وأقول إن الوحشة مصدرها فراغ في الناس لا في المكان ، فراغ في اللغة والدين والعادات والأخلاق والأصدقاء ، فإذا تغلب الإنسان على هذه الظواهر ، وعرف مَن حوله وعاداتهم وأخلاقهم وكوّن له منهم أصدقاء فإنه يستقر بالمكان الجديد ويرتسّى فيه أوتاده •

وعلى كل حال فاعتقادي أن الوطنية شعور طبيعي عند كل إنسان وأن الجيل الذي ينتقل من وطن إلى وطن يخال على علاقته بالوطنين ، فمهما أحدهما جذوره وفي الثاني فروعه ، ثم يصبح الوطن الجديد وِدَن أولاده ، وإن بقيت جذورهم مرتبطة بأرض الأجداد نوعاً من الارتباط يزيد أو ينقص تبعاً للذكريات •

وقد سافرت إلى إندونيسيا موظفاً لا مهاجراً بطبيعة الحال ، ولخني أم أكن في حالة طبيعية كتلك التي يكون عليها أغلب الموظفين عندما يعارون للعمل بالخارج ، لقد عانيت في العام الذي سبق السفر نوعاً من الحرمان ، وعانيت القلق والخوف ، ثم وجدت بإندونيسيا فيضاً من الخير وكل الأمن والأطمئنان ، فأقبلت على إندونيسيا وتعلّمت لغتها ، ووثقت بالناس ارتباطاً ، واستسلمت للحياة بإندونيسيا أمداً كنت لا أعرف مداه فأدبحت إندونيسيا وطناً ثانياً لى ، وكانت معي ثروة فكرية لا بأس بها ، وكانت إندونيسيا في حاجة لما عندي ، فوجد كل منا حاجته عند الآخر فتعلق به ، وأخذ منه وأعطى ، ولولا أن غلذات قلبي ، ولولا أن أهلى ووالدى كانوا بمصر لأمكن أن يطول بإندونيسيا مقامى أكثر مما طال ، تحية من الأعماق للأرض الخضراء ولأهلها الذين طابت حياتى في رحابهم والذين أذكر لهم أياديهم السابغة ، وإقبالهم الفريد على ، وحرصهم الزائد على تيسير حياتى •

الرحلة :

سافرت إلى إندونيسيا في يوليو سنة ١٩٥٥ ولم أكن أعرف آنذاك مدى الإغارة ولا شروطها ، وإنما أسلمت نفسي للمجهول وتوكلت على الله ، فقد كان السفر هرازا من القلق الذي كان يساورني من حين إلى آخر وبخاصة عندما كانت موجات الاعتقالات تتوالى ، ويتهامس الناس عن التعذيب الذي يعانيه المعتقلون .

وقد اصطحبت في الطائرة بعض الكتيبات التي تعطى لمحات عن إندونيسيا وتاريخها وشعبها لأتعرف على الناس الذين سأعاشرهم ، واصطحبت كذلك قائمة بها أسماء عدد من الإندونيسيين الذين تعلموا في كلية دار العلوم وفي الأزهر أو الذين ذاع صيتهم في المحيط الإسلامي لأحفظ أسماءهم تمهيدا للتعرف عليهم والتعاون معهم ، وكان في القائمة هذه الأسماء الوضاعة ، الأساتذة :

محمد عدنان — عبد القهار مذكر — طه يحيى — محمد سالم فخري —
طاهر عبد المجيد — قهر الدين يونس — عبد المعطى على — مختار يحيى —
محمد رشيدى — فريد معروف — محمود يونس — بسطامى عبد الغنى —
همكا — محمد حسبى الصديقى — محمد نور عاشق ، وكثيرون سواهم .

وكان معى كذلك قاموس (عربى — إندونيسى) وكتاب لتعليم اللغة الإندونيسية ، واستغرقت الرحلة يومين أحسست في آخرهما — ونحن ندق أجواء هذه البلاد لندخلها — أننى أعرف شيئا عن القطر الذى سأخطو به .

الاستقبال والأيام الأولى في العاصمة السياسية :

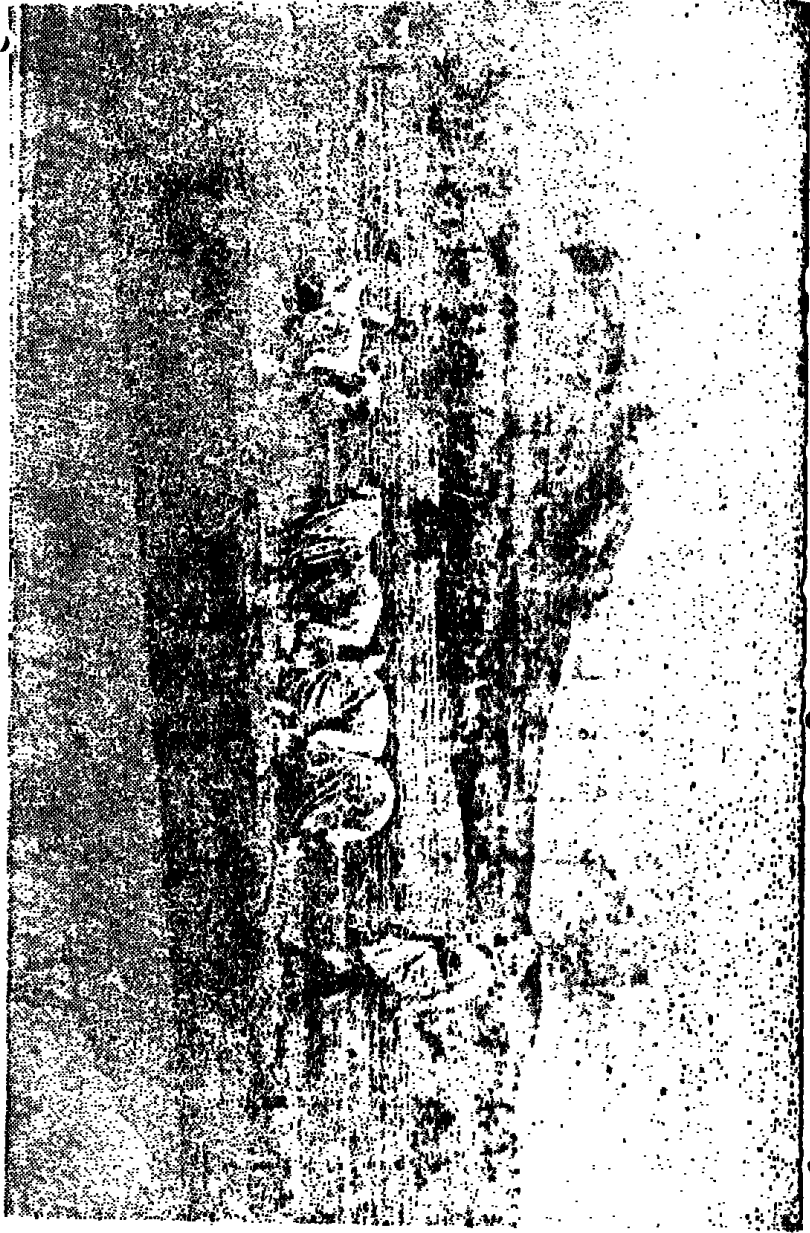
نزلت الطائرة في مطار جاكارتا ، وسرعان ما تقدم وفد من الناس لاستقبالى استقبالا حافلا لم يخطر لى ببال ، وأحاط بى الوفد من كل

جانب ، لم أكن بينهم « أحمد شلبي » وإنما كنت مصر ، ومصر وقفت مواقف مشرفة في التعاون مع إندونيسيا إبان نضالها في الأربعينات ، وكان مبعوث وزارة الخارجية المصرية أول مبعوث رسمي يدخل البلاد ، ويعلن اعتراف مصر باستقلال إندونيسيا ، وكانت وكالات الأنباء تحمل للإندونيسيين مشاعر الود والتأييد التي أظهرها المصريون خلال هذه المحنة ورأيتني ألقى الجزاء عن موقف مصر المشرف ، فزادني هذا حبا لبلادي ، وإجلالا لها ، وفي قاعة كبار الزوار جلسنا وقُدِّمت لنا بعض المشروبات ، ثم تحدث بعض المستقبلين فرحبوا بي ، وأعلنوا فرحتهم بقدومي ، ووقفت أشكر وأثنى ، ولم أعبأ بقطرات من الدمع اندفعت من عيني نتيجة مزيج من الفرح والرغبة ، وذكرت أنني أحمل للإخوة المسلمين بإندونيسيا أجمل التحيات والأمنيات من إخوانهم هناك بوادي النيل ، وأعلنت أنني أضع كل جهدي في مجالات الفكر لخدمة هذا الشعب الحبيب ، وكانت كلمتي باللغة العربية والإنجليزية ، ولم أنس أن أستعمل بعض الكلمات الإندونيسية تقربا منهم ، وقد صفقوا لذلك تصفيقا حارا ، ووعدتهم بأنها ستكون لغتي الثانية بعد وقت ليس بالطويل ، وقد بررت بهذا الوعد .

أمضيت في جاكرتا أسبوعا في أكرم ضيافة ، وحضر لزيارتي بالفندق الكبير الذي نزلت به كبار المفكرين المسلمين من مختلف المناطق ، ومن هذا الفندق أرسلت بضع مقالات لجريدة الأهرام فنُشرَت ، وأثارت صدع طيبا في مصر وإندونيسيا ، وأحسست أنني همزة وصل ، وعقدت العزم على عمل كبير ، والتقيت بوزير الشؤون الدينية فأحسست من حديثه مدى الاهتمام الذي يعلق على شخصي ، فالتجّهت إلى الله أطلب عونه حتى أملا هذا الفراغ الواسع .

جمال الطبيعة ؟

وخلال إقامتي بجاكرتا نظمت لى وزارة الشؤون الدينية رحلات وزيارات إلى المدن والمناطق المحيطة بالعاصمة ، وعينت لى مرافقا هو الأستاذ محمد نور عاشق ومن هذه المدن مدينة باندونج الخالدة وبوجر



Bardung (بالوند)

المدينة الخلابة الساحرة ، وقد أدركت من هذه الرحلات أن إندونيسيا جنة خضراء ، ربيعها دائم ، وجمالها شامل ، ومناظرها فائقة ، وما إن تتعلق بمنظر وتشدك إليه مفاتنه حتى يجذبك منظر آخر ينافس الأول في الجمال أو يفوقه ، المزارع ، القرى ، المدن ، الطرق ، كلها نعيم ونظافة وجمال ، ولست ترى القرية من بعد ، ولكن يمكنك أن تتعرف على القرية عندما نرى أشجارا باسقة ، فذلك دليل على أن هذه الأشجار تخفى بينها بيوت الفلاحين ، وإذا امتدت خطاك إلى جبل من الجبال التي تكثر في إندونيسيا فس ترى مالا يخطر لك ببال فليس في الجبل شجر واحد لم تنبتق به الخضرة ، والجبل عبارة عن غابة كثيفة بها مختلف الأشجار ، ومختلف الطيور ، ومساقط المياه ، وكل ما يخطر بالبال من الزهر والألوان . وفي الغابة يختلط حفيف الأشجار بزقزقة الطيور ، وخرير المياه ، فتحس أنك في عالم غير مألوف من العوالم ، وكنا نقرأ في الأدب العربي معنى أجمة بأنها الشجر الملتف الذي لا يدع طريقا للسير ، وقد رأيت الأجمة في إندونيسيا ووقفت أمامها مبهورا ، ولم أستطع أن أمد قدمي خطوة واحدة في غير الطرق الممهدة لأن التفاف الحشائش المتسلقة على الأشجار يضع حاجزا ضخما أمام الإنسان ، على أن الغابة مصدر رزق الكثيرين ممن تعودوا أن يقتحموها ، ومن تعرفوا مسالكها ، فإليها يفد جموع من الناس في الصباح ، بعضهم مناضل يصيد الحيوانات ويأخذ جلودها الغالية ، وبعضهم مغامر يصيد الثعابين التي تصل أطوالها إلى عشرة أمتار أو تزيد ، وبعضهم عامل يجمع الخيزران ، وبعضهم يجمع الفاكهة ، وبعضهم قانع يكتفى بقطع الأشجار وحمل الأخشاب ، ويعود هؤلاء جميعا بعد ساعات وكل منهم يحمل مما قصد إليه ، وتبيت الغابة في صمت حتى ساعات الصبح .

مناظر الغابة ومابها من ألوان وأصوات وحيوانات جعلت الطبيعة الإندونيسية غنية بالوان الفنون من موسيقى ورقص وغناء ورسم وتصوير ، وانعكست الطبيعة على الإندونيسي فجعلته فنانا ، وأشاعت في



Padang Pandjang
(عالقة سقوطة الوسطى)

الدور والمجتمعات أفانين من الموسيقى والرقص وغيرهما من الفنون الجميلة .

وجبال إندونيسيا شامخة بارتفاعاتها شموخها بمناظرها ، وفي بعضها تتمثل فصول السنة كلها في وقت واحد ، فإذا ضايقت الحر في سفح الجبل فاصعده تجد الجو يتغير مع صعودك فتنتقل من الصيف إلى الربيع ، فإذا استمرت في الصعود قالك زمهرير الشتاء ، واحتجت إلى الدفء والنيران .

والشعب الإندونيسى شعب سمح ذكى لا تعقيد فيه ، وهو مؤمن عميق الإيمان ، فكل ما في إندونيسيا يدعو إلى الإيمان وينطق بعظمة الخالق ، وابتسامة الرجل الإندونيسى تلو شفثيه دائما ، وهو بهذه الابتسامة يحتقر الصعوبات ويتغلب عليها .

تلك لمحة سريعة عن الأرض التى نزلت بها ، وعن الشعب الذى بدأت أتعامل معه .

في العاصمة الفكرية :

وبعد أن أمضيت أسبوعا في العاصمة السياسية انتقلت إلى جوكرتا المدينة الجامعية التى بها الجماعة الإسلامية ، وبها كذلك جامعة أخرى مدنيّة اسمها جامعة « كاجامادا » وكانت رحلتنا بالقطار . وقد استغرقت الرحلة حوالى عشر ساعات ، وكانت الأرض على طول الطريق سندا أخصر ومناظر بهيجة .

وفي جوكرتا كان في استقبالى جموع من الأساتذة والطلاب . وكانت فرحتهم بى شاملة ، وتحياتهم لى عميقة ، وسار الركب بنا إلى أكبر فنادق المدينة وأنزلونى به ريثما يتم إعداد المنزل الخاص بى ، وقد ضاق الفندق بالوفود التى حضرت لتحييتى حتى تعجلت الانتقال للمنزل ، فقد



فتيات وطقوس

أحسست من عمق الحفاوة أمل الجماهير الذى انعقد على شخصى فى مجال الدراسات الإسلامية ، وكان لابد من الاستقرار بالمنزل لأبدأ نشاطى .

وفى حى جميل من أحياء جوكجا حططت رحالى فى منزل بديع بشارع Sagan رقم ٢٠ وفى هذا المنزل كتبت العديد من أبحاثى وكتبى ، واختلط هواؤه بدمى ، ومنه خرجت حاملا فكري ، ولذلك ترانى أحن إليه ، وأحلم به ، وتهفو روحى من حين إلى حين فى آفاقه .

وفى جوكجا صحافة يومية ، ومجلات سياسية وعلمية ، وقد بدأ ممثلوها ياتقون بى ، ويأخذون منى الأحاديث عن الفكر الإسلامى وعن خطتى للعمل بإندونيسيا ، فبدأ اسمى يلير مع الصحف ومع الإذاعة وكنت أحس بالثقل الزبير الذى يزفوننى به فأبذل الجهد لأواجه هذا الأمل بما يستحقه من كدح .

ومن هذا المقر الجديد بدأت نشاطى ، وبدأت حياتى العلمية والاجتماعية دليلة ست سنوات ، وسنعيش فى الصفحات التالية مع نواحي هذه الحياة :

اللغة الإندونيسية :

لعل اللغة كانت الشغل الشاغل الذى قابلنى فى مطلع حياتى بإندونيسيا ، فقد كان معى زاد لا بأس به فى مجال الدراسات الإسلامية والعربية ، فلم يساورنى قلق فى هذا المجال ، وكنت أعتقد أن ذلك يكفى لأداء عملى ، بيد أن إقبال الجماهير الإندونيسية على ، ومطالبهم بمحاضرات عامة ، ولقاءات بالكثيرين منهم فى لجان متعددة أبرز لى ضرورة التعرف على لغة القوم ، حتى أستطيع أن أستجيب لهذه المسئوليات ، وكنت قد مارست حينما الترجمات ، فقد كان يترجم لى من اللغة الإندونيسية إلى اللغة العربية أو إلى اللغة الانجليزية أو كان يترجم عنى ، ولكن ذلك كان مضيعة لاوقت من جانب ، وكان من جانب آخر لا يتيح لى متابعة التفاصيل التى يتحدث بها من حولى .

وأحسست أنى لست أستاذاً فى الجامعة فحسب ، ولكن لى دوراً كبيراً بين الجماهير ، وإذا استطاع طلاب الجامعة أن يأخذوا أفكارى باللغة العربية أو الانجليزية ، فإن الجماهير لا تستطيع ذلك ، من أجل هذا أدركت أن اللغة الإندونيسية أصبحت ضرورة لنجاحى فى عملى ، وكنت أومن أن الداعية يتحتم عليه أن يعرف لغة القوم الذين يدعوهم ، فتعرضته على لغتهم أيسر جداً من إلزام الجماهير الغفيرة بالتعرف على لغة الداعى •

وأحاط بى تلاميذى يشجوننى للوصول لهذا الهدف ، ويساعدوننى عليه ، حتى رأيتنى تلميذا لهم ، قبل أن أقف منهم موقف الأستاذ ، فقد كنا لانزال فى إجازة الصيف ولم تبدأ الدراسة بعد ، وخطوت فى تناسم اللغة خطوات سريعة ، واستعملت بضاعتى منها فى أحاديثى مخطأاً حيناً ، ومصيباً حيناً ، ولكنى كنت فى الحالين أصل إلى نفوس الناس من أيسر الطرق وكانوا يفهموننى على كل حال ، ويصححون أحياناً هفواتى ، وبمرور الأيام يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، استطعت أن أعرف من اللغة ما يعيننى على العمل تماماً ، فأخذت أكتب بها وأحاضر ، وأفهم ما يقال ، وكان ذلك وسيلة عظمى للوصول إلى عقول الناس وقلوبهم •

وللغة الإندونيسية تاريخ ليس بالطويل ، فإندونيسيا جزر متعددة كانت اللغات فيها تختلف من جزيرة إلى أخرى وفى بعض الجزر كانت تعيش لغات متعددة ، إذ أن الجبال والغابات تقسم الجزيرة إلى منادات أو ممالك كثيرة ، وتختلف اللغة من مكان إلى مكان ، حتى كانوا يقولون إن فى إندونيسيا عدة مئات من اللغات ، وعندما دخل الإسلام إندونيسيا دخلت معه كلمات عربية كثيرة فوجدت طريقها للغات القوم ، وكانت هذه الكلمات تتعدى قاسماً مشتركاً بين اللغات واللهجات المختلفة • ثم جاء الاستعمار الهولندى فأرضاه تفكك هذه البلاد من ناحية اللغة ، واتخذ ذلك وسيلة لمزيد من التفكك لهذه البلاد الشاسعة ، وجعل الاستعمار الهولندى اللغة الهولندية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وقدّمها للأذكىاء والطموحين والمثقفين منهم ، أما الجماهير الغفيرة فبقيت لا تعرف غير لغاتها المحلية ،

وفى مطلع الاستقلال رأى قادة إندونيسيا ضرورة توحيد اللغة لتكون هناك صحافة ومطبوعات بلغة واحدة ليتمكن تكوين شعب واحد ، له أمان واحد ، وتقوده أهداف وثقافات واحدة ، وفى سنة ١٩٤٥ عقدت مؤتمرات لاختيار لغة لإندونيسيا كلها ، وفى هذه المؤتمرات ظهرت اتجاهات مختلفة فقد قفز الصينيون وكان منهم بإندونيسيا حوالى سبعة ملايين يملكون نواصى المال والتجارة • وقدّم هؤلاء لغتهم لتكون لغة شاملة لإندونيسيا ، ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به ، فإن إندونيسيا لم تقبل أن تنماع فى الصين ، وكانت تسعى لتحرر شامل ، وتقدم المثقفون الإندونيسيون باللغة الهولندية ولكن هذا الاقتراح كان قصير العمر ، فكل شيء هولندي كان مكروها ، وكانت الجماهير تحاربه وتطارده •

واقترح بعض الناس اللغة الانجليزية كلغة عالمية ولكن إندونيسيا لم تكن تريد أن تخرج من الشرق وتصبح تابعة للغرب ولهذا انهار هذا الاقتراح كما انهارت الاقتراحات السابقة ، ولم يتقدم أحد ليقدم اللغة العربية فى هذه المؤتمرات وأحسّ الإندونيسيون بفراغ ، فهناك منهم من أتى الآلاف يجيدون اللغة العربية تعلموها فى الوطن العربى أو فى المعاهد الاسلامية ببلادهم ، وكانت اللغة العربية لغة الحديث Lingua Franca فى المؤتمرات الإسلامية التى كانت تشهد من حين إلى حين ، ويتدارس فيها المسلمون شئونهم ، كما كانت لغة الصلاة والعبادة عند المسلمين الذين يمثلون الأغلبية المطلقة فى البلاد ، ومن أجل هذا اقترح بعضهم أن يدعى ممثلون من العرب المقيمين بإندونيسيا ليقدموا اللغة العربية للمؤتمرين وليذكروا فضائلها ، والأسباب التى تدعو لاقتراحها لغة للبلاد ، واختير لذلك شيخ عربى هو (الشيخ عوض شحبل) ولم يكن هذا الرجل عالما ولا واسع الدراسة ، وإنما كان فى عهد شبابه يشتغل بالتجارة ولا يعرف سواها ، وقد بذل الرجل جهده فى هذا المضمار ، ولكن من الطبيعى أنه كان جهدا هزىلا لم يأت بفائدة ، واتجه المؤتمرين إلى اختيار لغة من اللغات الإندونيسية وتزويدها بزيادة جديدة من اللغات الأخرى الإندونيسية أو العالمية وهكذا ظهرت اللغة التى سُميت باسم

البلاد ، وكانت اللغة المختارة وثيقة الاتصال باللغة التي تستعمل في الملايو ، والحق يقال إن اللغة الإندونيسية تطورت تطوراً رائعاً وسريعاً ، ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت واسعة الانتشار في جميع أرجاء البلاد ، وأصبحت كذلك غنية وطليعة وجميلة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت بها مؤلفات ضخمة ، واستجابت لكل حاجات الإنسان في العلوم والفنون والآداب •

تلك هي اللغة التي تعرفت عليها ، والتي بدأت بها جولاتي العلمية والاجتماعية في هذه البلاد ، والتي جعلتني إلى حد كبير فرداً في هذه الأسرة الكبيرة ، فلم أعد أحتاج إلى من يترجم لي أو يترجم عني ، وأخذت ألقى بها محاضراتي بالجامعة أو محاضراتي للجماهير • كما بدأت مع الزمن أكتب بها بعض كتبي ، وأراجع الترجمات التي يقوم بها آخرون لمؤلفاتي •

٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ :

في موجة من العمل العلمي الواسع الذي ربطني بجامعات إندونيسيا وشعبها حلّ يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ ولم أنس ذلك اليوم ، فقد كانت الأقدار أعدت العدة لتضع الابتسامة مكان الكآبة ، ففي هذا اليوم رأيتني بين مجموعات من الإندونيسيين تحتفي بقدمي وألحّت عليّ فكرة المقارنة بين هذا اليوم وبين نظيره منذ عام :

ففي ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ فصلني مجلس قيادة الثورة من الجامعة ، أو بلغة أخرى طردتني الحكومة من العمل ، وفي هذا اليوم بعد عام كنت مع حكومة تحتفي بي وتتخذ الوسائل لإسعادي •

كنت منذ عام أخاف كلما دقّ أحدٌ بابي وأتوقع السوء ؛ ولكني اليوم أفرح كلما سمعت طرقة على الباب وأهرع بغبطة لاستقبال الوافدين لتحتيتي •

منذ عام اختفى الأصدقاء من حولي أو اختفيت أنا منهم حتى لا يمسهم

ضرٌّ بسببى ؛ والآن يحيط بى الأصدقاء من كل جانب ويبدلون أقصى الجهود لإيناسى •

منذ عام كان الجوع يتهددنى ، وكانت سحابة من القلق تشمل حياتى ، واليوم يحيط بى الرخاء والاطمئنان والأمل ••

منذ عام حُرِمْتُ من طلابى وأُبْعِدْتُ عنهم ، وأُغْلِقْتُ أبواب الجامعة فى وجهى ، والجامعة بالنسبة لى هى الحياة والجنة الوارفة ، والطلاب هم الغرس الذى نتعهده ليثمر ، وما كان أقصى هذا التصرف على نفسى ، ولكنى اليوم أعيش فى رحاب جامعة أو جامعات تتطلع إلى وتحسن استقبالى ، وتستجيب لآرائى ، وأعيش بين آلاف الوفود من الطلاب الذين فتحوأ نل قلوبهم وعقولهم لما أغرس فيها من معارف •

ولم أنسَ قط فى غضون هذه المقارنة أن أسجد لله شاكرًا ، وأن أطلق لسانى يعبر عما فى وجدانى من ثناء وشكران مُعَاهِدا الله واسع العطاء أن أبذل أقصى الجهد فى عملى الجديد حتى أكون أهلا لما قدمه لى من عون وما هتتحه أمامى من مسالك •

فى محيط الجامعات :

كان عملى الرئيسى أن أحاضر فى الكلية الإسلامية الحكومية التى كانت قد أنشئت حديثا بجوكجاكرتا العاصمة الثقافية لإندونيسيا ، وفى خلال الإجازة تأنت قد تكونت عندى فكرة عن مستلزمات المجتمع الإندونيسى ، ولما اجتمعنا فى مجلس الكلية اقترحت عدة اقتراحات تتصل بالمنهج . وبدرق الدراسة ، ونظام الامتحانات ، وقد استجيب لى استجابة ماثمة فُسِّحَتْ فى المنهج بإدخال مادة الحضارة الإسلامية ، ومادة مقارنة الأديان ، كما عنيت بتنظيم المكتبة وتغذيتها بمجموعة كبيرة من الكتب الحديثة فى الدراسات الإسلامية وكانت المكتبة فقيرة جداً فى هذا اللون من الكتب ، وأعددتنا ساعات للاطلاع ، ويسرنا على الطلاب الاستعارة الخارجية •

وكان النظام الهولندى فى الامتحانات هو المتبع ، وهو نظام يقوم على الفرد لا على الجماعة بمعنى أن المحاضرات تستمر ، وعلى كل طالب يأنس فى نفسه القوة أن يطلب أن يمتحن ، وهو نظام الأزهر القديم ، وقد أصبح ذلك صعبا جداً مع الأعداد الكثيرة من الطلاب مما لا يجعل من الممكن أن يقوم المدرس بهذا العمل فى الوقت المناسب وقد تسبب عن ذلك النظام تعطيل الطلاب ، وقد أدخلت النظام المصرى الحديث فى الامتحانات فدخل الطلاب جميعاً الامتحان التحريرى على النسق المعروف عندنا ، وقد سهّلت عملية الانتقال من فرقة إلى أخرى بهذا النظام .

وكنّت معاراً لهذه الكلية أستاذاً للتاريخ الإسلامى ؛ فلما اقترحت مادة الحضارة الإسلامية أُسند إلى تدريسيها ؛ ولما اقترحت ، مادة « مقارنة الأديان » طلب منى أن أقوم بتدريسها كذلك وقبّلت ؛ وهبّت صيحة تنادى بأن أدرس اللغة العربية وآدابها ، فأنا عربى وأزهري ودرعى قبل كل شيء فقبّلت ، وفى بعض الحالات درست تاريخ التشريعى الإسلامى ؛ والتربية وطرق البحث حتى حملت عبثاً كبيراً فى هذه الكلية ، ولكنه كان عبثاً حبيباً إلى نفسى بسبب إقبال الطلاب وترحيب الزملاء .

وتستمد هذه الكلية طلابها من مصدرين مختلفين ؛ أولهما المدارس الإسلامية ، وهى شديدة الشبه بالقسم الثانوى بالأزهر ، والمتخرجون منها يعرفون اللغة العربية إلى حد معقول ؛ والمصدر الثانى هو المدارس الثانوية العامة والمتخرجون بها يعرفون اللغة الإنجليزية إلى حد معقول كذلك ، ولهذا كان لزاماً على أن ألقى محاضراتى باللغتين ؛ فأشرح الفكرة باللغة العربية للمجموعة الأولى ؛ ثم التفت للمجموعة الثانية فأشرح نفس الفكرة باللغة الإنجليزية ؛ وكان الطلاب سعداء بهذا ، لأنهم كانوا يستفيدون اللغة العربية أو إنجليزية أو كلاهما معاً مع الأفكار العلمية ؛ ولكن الوقت لم يتسع لهذا النهج ؛ فأتجهت لتعلم اللغة الاندونيسية التى حلت محل اللغتين بعد وقت ليس بالطويل ؛ وقد ظل اللسان العربى بطبيعة الحال هو لغة المحاضرات فى علوم اللغة العربية وآدابها .

وقابلتنى عقبة لم يكن تذليلها سهلاً هي مشكلة الكتاب الجامعى ؛
والكتاب الجامعى فى مصر يصوّر مشكلة فهو موجود وكثير ؛ وتتجه الشكوى
نحو ثمنه أو نحو فرضه على الطلاب فرضاً ؛ والذى يشكو منه الطلاب
فى مصر أملاً يتمناه الطلاب فى إندونيسيا ؛ فمشكلة الكتاب الجامعى هناك
مصدرها أنه غير موجود ؛ فالطلاب يتلقون المحاضرات ويفهمونها ولكن
لا يجدون الكتاب الذى يستذكرون فيه هذه المحاضرات ؛ أو يستفيدون
بواسطته هذه المعلومات ؛ وكان الطلاب يعتمدون على الإملاء أحياناً ، أو
على مذكرات طبيعتها السرعة وعدم الدقة فى الإخراج أحياناً أخرى بولذلك
اتجهت نحو تأليف الكتب للطلاب وبخاصة فى التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية ثم فى مقارنة الأديان ؛ واستعنت فى ترجمتها ببعض الزملاء
وبخاصة الأستاذ مختار يحيى الذى مثل الدم الإندونيسى والفكر الإسلامى
واللسان العربى بالإضافة إلى إجادته للغة الإندونيسية إجابة تامة
كما استعنت ببعض الإندونيسيين الذين ينحدرون من أصل عربى كالأستاذ
عبد الله باجرى • وسرعان ما أصبح الكتاب الجامعى فى متناول الطلاب •
ثم حدث شئ لم نتوقعه هو أن الجماهير أقبلت إقبالاً شديداً على هذه
الكتب مما جعل هذه الكلية مصدر إشعاع فى المجتمع الفسيح •

وبسبب الجهود التى تعاوننا فيها جميعاً فى بذلها بهذه الكلية ، وبسبب
ما أثارته هذه الكتب من حماس ، أقبل الطلاب على هذه الكلية إقبالاً واسعاً
فلم يكن بدّ أن تصبح الكلية جامعة إسلامية ، وأن تصبح أقسامها كليات
مستقلة ؛ بل أصبح للجامعة فروع فى مدن أخرى ، وأصبحت الدراسات
الإسلامية هدفاً يتطلع إليه الكثيرون •

واتجه المصلحون المسلمون إلى فتح جامعات إسلامية ؛ واتجهت
الأحزاب الإسلامية إلى هذا أيضاً ؛ وكان لزاماً على أن أستجيب لدعوة
هؤلاء أو أولئك لإلقاء بعض محاضرات ، فقد كان اسمى يوضع فى قائمة
المحاضرين بعد استشارتى أو بدون أخذ رأى لأن أملاً كبيراً يعلقه الطلاب
على وجودى •

وفي مجال تعليم اللغة العربية كانت مشكلة الكتب أدق وأهم . فكتيرون من الإندونيسيين أو من الهنود ... كانوا يفدون إلى مصر ليتعلموا اللغة العربية ، وكانت الوسيلة لهؤلاء أن يلتحقوا بالأزهر أو بكلية دار العلوم ، وأن يجلسوا جنباً إلى جنب مع المصريين والعرب ، وفي قاعات الدرس هنا وهناك كانت تَعَلِّمُ ألفية ابن مالك وقطر النداء وابن عقيل والأشمونى . وبهذا كان الطلاب غير العرب يعرفون قواعد اللغة العربية أكثر مما يعرفون اللغة ذاتها والعجيب أن أكثرهم عندما عاد إلى بلاده معلِّماً راح يعلم ألفية ابن مالك أيضاً لطلاب مبتدئين في صلتهم باللغة العربية .

ولم يكن هذا العيب خاصاً بالكلية الإسلامية بل كان موجوداً في المدارس الإسلامية ، وقد نشط بعض الإندونيسيين لتأليف كتب للمبتدئين ، ولكن هذه لم تكن شاملة ، وقلَّةٌ منها من سلك طريقاً تربوياً دقيقاً ، وقد تطلعتُ لى الأنظار لأسهم في حل هذه المشكلة فبذلت جهداً كبيراً لذلك ، أثمر كتابة أربعة كتب لتعليم اللغة العربية لغير العرب تبدأ من الهجاء وتتدرج إلى مستوى طيب ، وتقدِّم للطلاب المتقدمين خلاصة سهلة وافية لقواعد اللغة العربية مع تمارين للتطبيق عليها ، وقد اتبعت في هذه الكتب الوسائل والمراحل التى تَتَّبَعُ في تعليم اللغات الأوروبية لغير أبنائها . وقد نجحت هذه الكتب في أداء مهمتها خير نجاح .

في محيط الجماهير بمختلف الجُزُر :

لم أكن غريباً على جماهير إندونيسيا منذ نزلت أرضها ، فقد اتصلت بى الصحافة ونشرت خبر وصولى ، ثم نشرت أحاديث لى ، وقدمت لى أسئلة عُنِيَتْ بنشر الإجابة عنها في صفحاتها الأولى وفي كثير من الأحيان كانت عبارات من كلامى تؤخذ « مانشتات » ملونة بالصحف .

وتعرفتُ أكثر بالجماهير عن طريق الكتب التى ألحمت بالحديث عنها من قبل وبخاصة كتب « مقارنة الأديان » التى كانت ذات مفعول واسع في كل ربوع إندونيسيا .

ثم تعمقت صلتى بمجاهير إندونيسيا عن طريق المحاضرات العامة الكثيرة التى كنت ألقياها فى المناسبات المختلفة ، وفى إجازة الصيف التالى أعدت وزارة الشؤون الدينية لى برنامجا واسعا لزيارة الجزر المختلفة باندونيسيا ، وكتبت^٥ للفروع التابعة لها بمختلف المدن أن تستقبلنى وتنظم سلاسل من المحاضرات العامة والخاصة ألقياها للمدرسين وفى الأندية ولدى التنظيمات النسائية وتنظيمات الشباب والمعاهد بالإضافة إلى المحاضرات العامة ، وكان الإقبال بالغ المدى على محاضراتى فى كل مكان نزلت به ، أو جماعة اتصلت بها لأن محاضراتى كانت تلبي حاجات الناس وتجيب عن تساؤلاتهم •

التحول بالفكر الإسلامى تبعا للظروف :

وقد خطوت بالفكر الإسلامى خطوة هامة فى تلك الربوع ، ذلك أن الدراسات الإسلامية كانت قبل استقلال إندونيسيا محدودة بالعبادات والمعاملات التى تذكرها كتب الفقه ، وكان هذا القدر كافيا فى تلك الفترة ، إذ "لم تكن هناك ثقافة ذات بال فى المجتمع ، فلما تمَّ استقلال إندونيسيا، وانفتحت الأبواب للثقافة العالمية عن طريق الاذاعات والمطبوعات والزيارات المختلفة ، قفز إلى إندونيسيا ألوان من الأحاديث والدراسات عن الاشتراكية والشيوعية والراسمالية ، وارتفعت الأصوات بالحديث عن الديمقراطية والدكتاتورية الفردية أو الموجهة ، وأنشئت الأحزاب تتبع هذا الاتجاه أو ذاك ، وجذبت « المودات » الحديثة فى المجال الاجتماعى مجموعات من الشباب فأصبحوا صدى للاتجاهات الأوربية والأمريكية ، وأصبح واضحا أن الإسلام إما أن يدخل هذا الصراع بمادة مناسبة أو ينزوى فى المساجد ، ويعيش مع شيوخ العهد الماضى حتى يضمحل باضمحلالهم ، وبدون تردد اخترت طريقى ، فذهبت أرفع صوتى برأى الإسلام فى السياسة ، ورأيه فى الاقتصاد ، ورأيه فى الحياة الاجتماعية والتربوية وكان ذلك تحولا كبيرا فى الدراسات الإسلامية باندونيسيا فكم ألقىت من محاضرات عن رأى الإسلام فى الاقتصاد وأوردت مقارنة دقيقة عن الفرق بين الاقتصاد فى الإسلام وبين النظم الاقتصادية الأخرى ، وكانت المقارنة تبرز جمال

الإسلام وتفوّقه على سواه من النظم مما اضطر بعض الذين كانوا متعصبين للشيوعية أن يصرح بأن الإسلام إذا كانت فيه هذه النظم فليس هناك من داع لأى نظام اقتصادى آخر •

ومثل ذلك حدث فيما يتعلق بالسياسة والحياة الاجتماعية والتربوية •

ومن الأشياء التى عنيت بها فى اندونيسيا اننى اتجهت لتقديّم الإسلام ليس فقط للمسلمين أو دلالة النكبة الإسلامية بل أيضا لغير المسلمين من اللادينيين أو البدائيين ، وكذلك للمسلمين اسما الذين لا يرتبطون ارتباطا حقيقيا بالإسلام ، وقد ساعدنى عام مقارنة الأديان فى هذا المجال ، فقدمت الإسلام كحاقة ختامية فى سياسة الأديان وليس كدين مستقل ، ووَضَعَر الإسلام بين الأديان من ناحية تشريعاته وعقائده وأخلاقه وضح مكانة هذا الدين بين الأديان ، وجذب له الكثيرين •

وهنا أتوقف قليلا لأرسم صورة تكرر حدوثها ، وكانت عميقة التأثير فى نفسى ، لقد كنت ألقى المحاضرات العامة فى القاعات الحكومية الكبرى بالمدن ، وكان المشاهدون آلافا أو عشرات الآلاف . ودلالمسا ارتفعت الأصوات بالتحية والأكف بالتصفيق خلال المحاضرة أو فى ختامها . وبعد الانتهاء كانت السيارة تحملنى الى البيت الذى أنزل فيه بمزردى . أو إلى حجرتى بالفندق إن كنت بعيدا عن جوكرتا ويشملنى عقب ذاك صمت رهيب ، وهكذا كنت أنتقل فى دقائق من الأضواء الباهرة ، والعيون الناظرة ، والصخب الجم ، إلى الوحشة الشاملة والسكون المطلق ، وكان هذا الانتقال المفاجئ شديد الوقع على النفس ، واكنه كان يهون فى سبيل ما نصادف من نجاح •

وهناك وسيلة سهلة حملت اسمى وفكرى للجماهير العريضة وتلك هى الإذاعة ، ولم يكن التليفزيون قد دخل اندونيسيا بعد ، فأتخذت الإذاعة وسيلة لدراسات إسلامية متطورة كانت تجذب إليها كثيرا من السامعين ، وقد عرفت فيما بعد أن الأثير حمل صوتى عن طريق الإذاعة

الإندونيسية إلى الاقطار الأخرى المحيطة باندونيسيا نفى بعض لقاءات مع مسلمى تاييلاند عرفت منهم أنهم يعرفوننى تماما ويتابعون أحاديثى بالإذاعة ، وقابلت بعد عدة سنوات الزميل الأستاذ الدكتور أحمد علم الدين الجندى فقال لى إنه كان مدرسا بالحسين وكان يستمع لأحاديثى بالإذاعة ، وفى سنغافورة وماليزيا حدث نفس الشيء ، وكان البعض يظن أن صوتى قادم من القاهرة ، وعلى كل حال فليس للعلم وطن ، والفكر الإسلامى ملك المسلمين فى جميع الأرجاء •

وهكذا عن طريق المحاضرات الخاصة والعامة وعن طريق الكتب التى لاقت رواجاً عظيماً من الطلاب وبين الجماهير ، وعن طريق الصحافة والإذاعة أصبحت معروفاً عند أكثر الإندونيسيين وأليفاً إليهم •

وهناك مجال آخر دفع اسمى دفعة قوية بين الجماهير ، ذلك هو مجال المناظرات التى عقدت بينى وبين كبار القسس المسيحيين ، والحق أن هذه المناظرات كانت تعقد فى جو علمى دقيق ، وقد أثمرت أجمل الثمرات لخدمة الإسلام والفكر الإسلامى ، وقد شرحت ظروف هذه المناظرات فى كتابى عن « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان •

العرب فى اندونيسيا :

منذ فجر التاريخ عرف العرب طريقهم إلى إندونيسيا والشرق الأقصى فى التجارة الصاعدة والهابطة التى كانت البحرية العربية تمارسها ، وقد استقر بعض العرب على طول الطريق ، وفى جميع المحطات التجارية ، وكانت إندونيسيا مكاناً محبوباً لجماعات الحضارة وكان الحضارة من أهم العوامل التى حملت الإسلام إلى إندونيسيا ولما استقر بهم المقام هناك اشتغلوا بالتجارة ، وفتحوا المصانع واختلطوا بالسكان اختلاطاً واسعاً ، وانتسبوا للأحزاب ، وعلموا أولادهم حتى شغل الكثيرون من أبنائهم مناصب مرموقة فى الدولة ، وأصبحوا جزءاً من المواطنين يقاسمون أهل البلاد حلاوة الحياة ومرءها ، ولكن أكثرهم حرصوا على اللغة العربية ،

وعلى الصلة بالوطن العربى ، وكان من حرصهم على اللغة العربية أن كثيرين منهم كانوا يبعثون بأبنائهم إلى حضرموت ليعيشوا هناك بخص سنوات ليجيدوا اللغة العربية وليتعرفوا على أهلهم ، هذا بالإضافة إلى المدارس العربية التى فتحوها فى أمكنة متعددة باندونيسيا حيث يعيشون •

ومن العرب جماعات عمّقت صلتها بالاندونيسيين فانماعت فيهم،ورات من مصلتحتها أن تغمض الطرف عن أصولها البعيدة فلم تعد تنتج العرب ، وإن بقيت الملامح العربية بارزة بوجوههم فتوشك هذه أن تبرز السرّ الذى أريد له الكتمان •

وإذا قارنّا الصينيين بالعرب فى إندونيسيا نجد الفرق كبيرا جدا ، فقد عاش الصينيون باندونيسيا دولة داخل الدولة ، لم يختلطوا بأهل البلاد ، ولم يتم بينهم تزواج ، ولم يمنحوا الأهلى من معارفهم أو علومهم ، وانما عاشوا لأنفسهم فقط ، ومن أجل هذا ظلوا غرباء بإندونيسيا مما سبب خروج الكثيرين منهم عقب أن تم استقلال هذه البلاد •

وكانت بيوت العرب منارات لخدمة الإسلام فى كثير من الأحيان وطالما استدعوا من البلاد العربية الشيوخ والمدرسين ليعلموا اللغة العربية والفكر الإسلامى لوفود التلاميذ من أبناء العرب ومن أبناء الإندونيسيين الذين جذبتهم المدارس العربية •

وقد اتصلت بالحضارة فى إندونيسيا وقدّموا لى ألوانا من العون وأنا أؤدى عملى بتلك البلاد ، وحرصت أنا على مجاملتهم ، فكثيرا ما وقفت فى ساحاتهم ألقى محاضرات عامة على الجماهير ، وكثيرا ما تفرغت لزيارة مدارسهم وإرشاد مدرسيهم فى دورات تدريبية لأشرح لهم أحدث الطرق لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وطالما وضعوا سياراتهم تحت تصرفى ، وكانوا يفرحون كلما كلفناهم بعمل لخدمة أغراضنا الثقافية ، من حق الحضارة علينا أن نسجل لهم أعمق الثناء والدعاء •

وينحدر الحضارمة المهاجرون إلى إندونيسيا من أصول حضرية متشعبة ، وكانت أصولهم في حضرموت ترتبط بعادات وقيم ، كانت قنوات مختلفة لكل منهما مجال اجتماعي خاص ، وقد صبغت هذه القنوات في محيط واحد هو إندونيسيا الفسيحة ، ولكن بعضهم كان يتمسك بجذوره وأصوله ، واتجه آخرون إلى أن المحيط الجديد غير الطابع القديم ، وأنه نظر للجميع على أنهم عرب مسلمون فلا داعي لإثارة التقاليد القديمة وحملها إلى الوطن الجديد •

ولست أريد أن أدخل في صراع العرب ، فلقد كانوا على اختلاف طبقاتهم أصدقاء مخلصين لى ، ولصر وللعروبة والإسلام ؛ كلهم أحسن استقبالي وقدم لى ما استطاع من عون لأنجح في رسالتي ، وربما استطاع الزمن أن يزيل هذه الفروق ليغمرنا جميعا شعار العروبة والإسلام ، إننى أتمنى هنا أن أذكر أسماء الذين ساعدوني ، ولأسمائهم خلودها في ذهني ولكنى أخشى أن أنسى أحدا منهم فيؤثر ذلك عليه ، وإننى الآن أستعرضهم جميعا ، وأستعرض شهادتهم مهما اختلفت الجزر التى يعيشون فيها أو اختلفت المدن التى يستوطنونها ، تحية من الأعماق للحضارمة في إندونيسيا ، ودعاء أن يهئ الله لهم وبهم الخير •

الاعتداء الثلاثى :

قصة الاعتداء الثلاثى معروفة ، ذلك العدوان الذى جاء انتقاما لتأميم قناة السويس والذى اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، ولست هنا أريد أن أتحدث عن تأميم القناة لأن فرحنا بذلك التأميم لم يطل أمداه فقد ابتلعه هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وتوقفت قناة السويس عن العمل حتى يونيو ١٩٧٥ حيث استعادت عملها ببطء ثم استعادت مع الزمن نشاطها وحياتها ، ولكن الذى أريد أن أتحدث عنه الآن هو موقفى بإندونيسيا عقب الاعتداء الثلاثى ، وهنا نقطة جديرة بالذكر ، فإننى لم أخبر أحدا بإندونيسيا أن الثورة قد فصلتني من الجامعة ، مع أن هناك ظروفًا كانت تحثني على ذلك ، فقد كان في إندونيسيا عقب وصولي بها حركة جماهيرية تعطف على

الإخوان المسلمين ، وربما كانت هذه الجماهير تعدتني بطلا لو عرشت ابن الثورة فصلتني من الجامعة ، ولكني كنت دائما أكره الكسب الرخيص ، وأكره انتهاز الفرص ، وعشت في إندونيسيا من أول يوم مصريا عربيا مسلما ، مخلصا لبلادى ودينى ، والمصر فى الخارج غالبا يتناسى نفسه ويذكر بلاده ، وكثيرون من المصريين الذين يتحدثون وهم بمصر ناقدين أو مهاجمين تراهم فى الخارج وقد نسوا كل شئ إلا مصر ، وعدوا أنفسهم جنودا لمصر يخدمون أغراضها ولا يهاجمون نظمها حتى إذا كانت هناك خلافات بينهم وبين هذه النظم ، وكان هذا موقفى ، ومن أجل ذلك دخلت معمة الصراع ضد العدوان الثلاثى وطالما وقفت فى الجماهير أخلب وأصرخ غير حائل بدمع تغرورق به عينى ، وانفعال يهزنى • واستجابت الجماهير لى استجابة كاملة وبخاصة حينما ذكرت أن العدوان الاستعمارى سيدل إندونيسيا وغيرها من الأقطار حديثة الاستقلال إن نجح فى مصر . فالعدوان فى الحقيقة هو ضد حركات الاستقلال التى نعمت بها الدول بعد طول استعمار ، وكانت هبة الإندونيسيين قوية جارفة أنزلت بمصالح المعتدين ومنشأتهم كثيرا من الخسائر ، وكان لها فى مصر دوى واضح . وقد ظهر اسمى فى هذه الحركات فكان دليلا على أن من بين من عاقبتهم الثورة جماعات تستحق التقدير لا العقاب ، ولكنى على كل حال قمت بدورى باسم الوطن والدين دون التطلع لأى هدف آخر •

العودة للعمل فى الحكومة :

مر الزمن عاما بعد عام وأنا أعمل بإندونيسيا فى عدة ميادين ، واثق ألوانا من النجاح المادى والأدبى حتى أصبح اسمى على نل لسان . وصدرت قرارات مصرية بأن أنضم إلى وفود ثقافية رسمية ، وقرارات بتكليفى بأعمال مهمة ، ووردت التقارير من السفارة لوزارة الخارجية وللمؤتمر الإسلامى تبرز الدور الكبير الذى أقوم به لخدمة الدين والوطن . واقتрحت السفارة فى خطاب رسمى تعيينى مستشارا ثقافيا ، معدة الأسباب لذلك ، وخطا المؤتمر الإسلامى خطوات لتكريمى فحسب لى تذاكر

للعودة إلى مصر كل صيف على نفقته ، وكل هذه الأشياء وسواها من نظائرها جعلت أمر عودتي للعمل بالحكومة موضع نظر ، وفي مطلع عام ١٩٦٠ تسلمت خطابا من وزارة التعليم العالي يقترح تعييني مديراً للمركز الثقافي المصري بجاكرتا ، ويسأل كيف أستطيع أن أوفق بين هذا العمل وعملي بالجامعات الإندونيسية ، فأجبت بأن ذلك ممكن ، وسييسأعدنى عملي بالجامعات الإندونيسية على نجاح عملي كمدير للمركز الثقافي بجاكرتا لأن صلتى بالطلاب ستجذبهم إلى المركز الثقافي ومكتبته ونشاطه كما أنى أستطيع أن أنقل بعض نشاط المركز الثقافي إلى ربوع الجامعة ...

وخطت وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية خطوة طيبة حينما استجابت لرغبتى فجعلت مقر عملي جاكرتا العاصمة بدلا من جو كجاكرتا . وأخذت أباشر عملي أستاذاً بالجامعة الإسلامية التى أنشئت حديثاً بالعاصمة ، وعندما عدت للقاهرة فى صيف ١٩٦٠ صدر قرار بإعادتي للعمل بوزارة التعليم العالي وتعييني مديراً للمركز الثقافي بجاكرتا وكان قد مضى على إبعادى عن العمل بالحكومة ست سنوات .

لقد ففتح المنصب الجديد لى آفاقا جديدة كان يمكن عن طريقها أن أقدم مزيدا من الخدمات لبلادى ودينى ولكن ظروفأ لم تكن فى الحسبان قفزت عقبة فى الطريق فقصرت مدتى فى هذا العمل وألزمتمنى بالعودة إلى القاهرة عودة نهائية فى الصيف التالى (١٩٦١) وسنتحدث عن هذه الظروف فيما يلى :

الدبلوماسية والسلك السياسى المصرى :

أدخلتنى الوظيفة الجديدة عالماً عجيباً هو عالم الدبلوماسيين ، ولم يكن هذا العالم غريباً علىّ ، فقد عرفت بعض الدبلوماسيين فى أثناء دراستى بانجلترا وفى أثناء تطوافى بالعالم طالبا وأستاذا . ولكن صلتى بهم كانت محدودة ، فلم أكن أعرف أغوار هذه الحياة حتى وجدتني فى وسط هذا المحيط .

والعمل بوزارة الخارجية والسفر للخارج في وظائف السلك السياسى
أمل يتطلع له الكثيرون ، لأنه عمل حافل بالمزايا والامتيازات ، فالمرتبات
عالية جداً ، والنفقات محدودة لأن عضو السلك السياسى يحصل على مطالبته
بدون جمارك أو ضرائب ، ومن هنا كانت سيارته وملابسه وسجائره ٠٠٠٠
رخيصة جداً ، ثم هناك الرحلات والحفلات التى لا تنقطع ، وإذلاء فلاعجب
أن يتهاونت الكثيرون على الانضمام إلى هذا السلك الديبلوماسى ، ولا عجب
كذلك أن يطمح لهذا العمل أولئك الذين لهم حسب يدفعهم أو نسب
يشدهم •

وعلى هذا إذا قسنا هذا العمل بمقياس الربح والأخذ فهو عدل ينتج
صاحبه ، ولكن إذا قسناه بمقياس الإعطاء ومدى مايقدم لمصر من عون
فررنا من هذا العمل ، لأنه بشكل عام لا إعطاء على الإطلاق ولا عون من
طريقه لمصر على الإطلاق • ولست أستطيع أن أذكر كل ما أعرفه ، ولست
أستطيع أن أسكت ، فقد كنت يوماً ما واحداً من هذه الفرقة ، ولهذا سأذكر
لمحات عن هذا العمل لعل فيها بعض الجدوى •

وقد كانت الفترة التى اتصلت فيها بالسلك السياسى فترة خطيرة كثيرة
التقلب ، ومن هنا كنا كالريش يلعب به الهواء ، ويستجيب الريش دون أية
مقاومة ، فالمفروض أن الديبلوماسى صدى لبلاده يصادق من تصادق ويعادى من
من تعادى ، ولكن بلادنا آنذاك لم يكن لها خط واضح ، فكنا نصادق
السعودية وتتبادل مع الديبلوماسيين السعوديين الزيارات وتتعاون معهم .
وفجأة يدب خلاف بين نظام الحكم بمصر وبين الحاكمين بالسعودية .
فنقطع الصلة تماماً مع أصدقاء الأمس بالسفارة السعودية ، فإذا التقت
وجهات النظر بين القاهرة والرياض بعد ذلك هرعنا نستعيد الصلات مع
الإخوة العرب الذين قاطعناهم ردىاً من الزمن ، ومايقال عن السعودية
يقال عن أى قطر عربى أو إسلامى آخر ، أو يقال عن كل أقطار الأرض .
وتطبيقاً لهذه القاعدة كان علينا أن نقيم صلات ود مع جماعات لاتربطنا :

روابط ذات بال كاليوغسلاف مثلاً بسبب واحد هو أنه كانت هناك صلات طيبة بين عبد الناصر وتيتو ، أما صلاتنا بالسفارات العراقية والسعودية والتركية والباكستانية فكانت باهتة ، ولم تكن تصل بحال من الأحوال إلى صلات الود التي كانت قائمة مع ممثلى يوغسلافيا مع أنه لا توجد أسس مهمة لمثل هذه الصلات .

هذا جانب من حياة الدبلوماسية المصرية ، ولنتنقل إلى جانب آخر ، فالمحقق مرتبه وهو بالقاهرة حوالى عشرين جنيهاً ، لكنه إذا سافر لسفارة بالخارج انتقل مرتبه فجأة إلى حوالى مائتين ، واستحق الامتيازات الكثيرة التى أشرنا إليها من قبل ، ويملك السفير بجرة قلم أن يطلب إليه العودة للقاهرة ، والمحقق لهذا يرى فى السفير إلهه ، ويحاول إرضاءه بكل الوسائل حتى لا يفقد هذه الامتيازات وهذه المئات من الجنيهات ، وإذا تربى المحقق هذه التربية وهو يمثل الدرجة الأولى فى درجات السلم ، سار حياته على هذا المنوال محكوماً وحاكماً ولم يعد للمواهب قيمة على الإطلاق .

وزوجات أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى يتدخلن فى الأمور تدخلا سافراً ، وهن يقدمن الولاء كاملاً لزوجة السفير ، وإلا كان زوج من تتهمد على هذا الولاء عرضة لتقارير قد تسجبه للقاهرة . وفى خلال الفترة التى عشتها بإندونيسيا كانت هناك قوة أخرى تنافس قوة السفير هى مركز المحقق العسكرى ، ومن هنا كان هناك معسكران فى السفارة ؛ يتعاملان بحذر أو يتنافسان .

ويجيد أعضاء السلك الدبلوماسى الوسائل للكسب والاستيراد ، فما إن يصل الواحد منهم إلى مقر عمله حتى يتسائل عن الوسائل للحصول على سيارة بأيسر طريق ؛ وعن البلاد التى يستورد منها أفضل الأقمشة وأرخصها ؛ والتى يستورد منها الآلات الكهربائية والتحف والكريستال والسجاد ؛ وكيف يستطيع الحصول على سيارتين بدل سيارة ، والذي عنده ابنة فى عمر الزهور يسرع فيشتري لها كل جهازها من الخارج والذي يبنى

عمارة أو فيلا بالقاهرة يشتري الأحواض والأقفال والمقابض والبانيوات وتراه وهو يوشك أن يشتري الأسمنت والحديد •

وكثيرون من أعضاء السلك السياسى يسافرون بدون أسرهم لأن الأولاد ملتحقون بالمدارس والجامعات فى القاهرة ، ولكن هؤلاء كأنما يحسون بأنهم وفّروا لمبلادهم أجور السفر ، وهو شىء غير عادى ، وربما عند ذلك من الغفلة أو السذاجة ، ولذلك ترى هؤلاء يستدعون أسرهم لقضاء الصيف معهم ، وتتكلف الدولة آلاف الجنيهات من أجل شهر واحد أو أقل من شهر •

والزوجات غير متعاونات غالباً ، بل يتكون منهن جماعتان أو أكثر ، وحديث كل جماعة يتجه ضد الأخرى ، وفى بعض الأحيان تدور أحاديث تليفونية حافلة بالسباب والعدوان لأوى الأسباب ، والسيدة التى تعرف « خياطة » ماهرة لاتخبر الأخريات عنها ، والتى تتعرف على نوع ممتاز من القماش تخفى مصدره عن زميلاتها ، وعلى العموم فاهتماماتهن متشعبة ولكن قلّ جداً من بينها الاهتمامات التى تتجه لخدمه الوطن أو خدمة الدين •

وكان من بين الموظفين الكبار موظف محدود المواهب ، همته جمع المال ووضع مرتب على مرتب ليرتفع رقم حسابه من يوم إلى يوم ، وتكنت مرة أجلس معه ، وهو يكتب ما يسميه تقريراً ليرسله إلى القاهرة ، فدخل عليه رجل يطلب إذن دخول للقاهرة ، فصاح الموظف فيه قائلاً : إنك قطعت حبل أفكارى تعال غداً لأدرس طلبك ، واضطرت للتدخل ، فقلت لهذا الموظف بلغة عربية لا يعرفها الضيف : هل لك أفكار ذات بال تخاف عليها أن تنقل ؟ ووضحت له أنه يخدم بلاده بحسن استقبال أمثال هذا الرجل أكثر مما يخدمها بما يسميه « تقارير » وعلى ذكر التقارير أذكر أن أحد الملحقين كان يقتبس خبراً أقرب إلى التفاهة منشوراً على نطاق واسع فى جريدة يومية ويكتبه بخط يده ويضعه فى ظرف ويحكم قفله ثم يكتب عليه « سرى جداً » وهكذا انتقل الخبر الذائع على يد هذا الموظف إلى خبر سرى للغاية •

هذه لمحات قصيرة وسريعة عن حياة أعضاء السلك الدبلوماسى على العموم وإن كانت هناك قلة قليلة كانت تخاف الله وترعى الوطن بين هذا العطب المتفشى والانحراف المنتشر .

ماذا فعلت عندما انضمت لهذه الطائفة فى أكتوبر سنة ١٩٦٠ ؟

وماذا يمكن أن نقدم من مقارنات بين السنين الطويلة التى سبقت هذا التاريخ وبين الشهور التى جاءت بعده ؟

الإجابة عن هذا السؤال وذاك خطيرة للغاية ، لقد أمضيت أكثر ، من خمس سنوات فى اندونيسيا قدمت فيها الكثير مما يخدم دينى ووطنى ، فى الجامعات وبين الجماهير وعن طريق الصحافة والإذاعة حتى كان اسمى بدون مبالغة على كل لسان ، وهناك مثال واحد أقدمه محددًا ، ففى مرة دعيت لإلقاء محاضرة فى اجتماع حافل بجوكجاكرتا ، ولكن اليوم المحدد لهذه المحاضرة كان يوم عودة المحق العسكرى للقاهرة وهو « الأستاذ أحمد لحفى متولى » سفيرنا بعد ذلك فى لبنان . وكان الأستاذ لطفى متولى حديقاً لى ويتابع نشاطى فأثرت أن أكون فى وداعه وأعتذر للقائمين بأمر الحفل ، وقدمت اعتذارى مسيئاً وركبت القطار إلى جاكرتا على بعد حوالى خمسمائة كيلو متر ، وفى العاصمة ذكرت للأستاذ لطفى متولى الأمر فأثر أن أكون معه هذه الأيام القليلة الباقية له بجاكرتا ، وقال لتكن هذه إجازة من عملى المتواصل ، وفى اليوم التالى جاعنى الأستاذ لطفى متولى ومعه وفد كبير جاء من جوكجاكرتا ليرجوه أن يتدخل لأحضر هذا الحفل ، وقال لى سيادته : قم وعُدْ معهم فلا يمكن ردهم خائبين . وعدت مع الوفد إلى جوكجاكرتا لأحضر هذا الاجتماع وأتحدث فيه .

وكثيراً ما كنت وسيط صلح وخير فى المشكلات التى تدب بين موظفى السفارة ، فلما أصبحت تابعاً للسفارة تغير كل شئ :

صدرت لى تعليمات السفير صريحة بأنه لا بد من استئذان القاهرة قبلًا مزاوله المحاضرات والأحاديث التى ألقاها ، ولما ذكرت بأن الفرصة تفوت

لو أرسلنا للقاهرة من جاكركا وانتظرنا الرد ، تلقيت إجابة صريحة بأن هذا هو النظام ولا محيد عنه • وتوقف بذلك نشاطى تماماً •

وفى الصراع الداخلى الذى لم يكن يتوقف ، تطلعت هذه الجبهة لاجتذابى وحاولت تلك نفس الهدف ، وأردت أن أقف مستقلاً أو محايداً فسخطت على هذه الجبهة وتلك •

وأصدت السفارة تفسيراً يقضى بأن المركز الثقافى يتبع المستشار الثقافى بالسفارة ، وقبلت هذا التفسير ، فقد كان المستشار الثقافى زميلاً صديقاً ، وكان أسن منى وأقدم تخرجاً ، ولدن سرعان ما عاد فى إجازة ، وانتدبت السفارة شاباً صغيراً حدث الرتبة ليقوم بعمل المستشار الثقافى خلال غيبته ، فأراد هذا أن يمد سلكه إلى المركز الثقافى ••••• وأوان كثيرة قامت فى داريقى ، وأحسست أننى لم أعد أستطيع أن أؤدى واجبى ، ولم أكن حريصاً على المرتب الضخم الذى حدد لى فى وظيفتى الجديدة ، مادمت لا أؤدى عملاً يناسبه ، فذهبت للقاهرة أطلب الإذن بالعودة ، ودهش أعضاء السفارة من تصرفى ، فالعهد عندهم أن يتمسك كل شخص بهذا المرتب الكبير ، وإن يتحمل من أجله كل شيء ، ولدتى أم استأج ذلك وعدت للقاهرة فى أول يوايو سنة ١٩٦١ •

هل نغبط رجال السلك السياسى أو نشفق عليهم ؟

الإجابة التى أراها واضحة أمامى هى أن نشفق عليهم تماماً . إنها وظيفة الضياع ، ونصيب الأولاد من هذا الضياع كبير ، سواء تتركوا فى القاهرة أو اصلحوا ذويهم إلى الخارج ، وليس المال كل شيء ، ولعلما كان المال وبالأعلى جامعيه •

ولكن البلاد لا تستغنى عن السلك السياسى ، وعن التمثيل الدبلوماسى ، ولذلك لا بد من إعداد دقيق لهذه الدابقة حتى تعيش الودان ، وتعرف الإيثار ، وتدرك أن الذى يأخذ من عرق الفقير المصرى مئات الجنيهات كل شهر ينبغى أن يقدم لمصر ما يتكافأ مع هذا المرتب الكبير •

سوكارنو وحتّى :

لست أحب أن أصور كل ما أعرفه عن الزعيمين الإندونيسيين الكبيرين : سوكارنو وحتّى ؟ لأننى لا أريد أن أدخل فى نقاش داخلى إندونيسى حتى لا أمس شعور هذا الشعب المرهف الحس . وفى كلمة مجملة كان سوكارنو زعيماً شعبياً تلتف حوله الجماهير وتهتف له ، وكان أحياناً يرقص معهم ويغنى ، وهو يتحدث لبق وخطيب ماهر ، ولكنه للأسف تعاون مع الشيوعيين وفتح لهم باباً كاد أن يقضى على البلاد ولكن الله سلّم ، وثار عليه الجيش وانتزع السلطة منه ، واختفى الرجل حتى مات وكان حتّى رجل الخاصة ، رجل الفكر والمثل العليا ، عالماً بحتة ، كاتباً ومحاضراً عميق الفكر والمدرس .

وكان هناك الحزب الإسلامى (ماشومى) بقيادة الدكتور محمد ناصر ، وهو مسلم عميق الإسلام يحب الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وهو كاتب طلى العبارة ، له شخصية جذابة ، ولكن صلته وصلة حزبه بالرئيس سوكارنو لم تكن طيبة ، ويمكن أن نقول إنها تشبه صلة الملك فؤاد ، والملك فاروق بحزب الوفد وبالنحاس باشا رئيس هذا الحزب ، والنتيجة واحدة فى الحالتين ، فإن الصراع بمصر بين الملك والوفد قضى على الاثنين فى النهاية كالصراع بين سوكارنو وماشومى ؛ وإن بقى فى نفوس الأشياء والاتباع ذكريات وآلام .

إلى إندونيسيا مرة أخرى :

أمضيت فى إندونيسيا ست سنوات وعُدّت منها سنة ١٩٦١ ، وبعد عشرين عاماً أى فى سنة ١٩٨١ تلقيت دعوة من المملكة العربية السعودية لأستترك فى دورة تدريبية تعقد فى جاكرتا مدة شهر ، وقد فرحت بهذه الدعوة لأنها تعيدنى إلى وطنى الثانى ، وإلى الناس الذين أحببتهم وأحبونى ، وسرعان ما شددت الرحال وذهبت إلى هناك .

كان اسمى لايزال معروفا حتى للجيل الجديد الذى لم يشهدنى معلما ومتحدثا قبل سنة ١٩٦١ ، وكانت كتيبى فى مقارنة الأديان وفى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية يعاد طبعها ويتسع انتشارها ، ولذلك كانت جموع من المسلمين على حلة وثيقة بى ، وبدأت عملى فى هذه الدورة وجدت لى مريدين ليعملوا فى حقل الدعوة الإسلامية •

وقد توالى وفود الزوار الأصدقاء لتحييتى ، وقُدِّمت لى دعوات كثيرة للقاءات غير الدورة التدريبية فاستجبت ببسرور وبشر •

وكان الطلاب الذين تخرجوا على يدي إبان وجودى فى اندونيسيا من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦١ قد وصلوا إلى مناصب رفيعة بالبلاد ، وأصبح بعضهم قادة وعمداء ومن كبار الموظفين ، وقد أقاموا لى أروع حفل شهادته ونعمت به فى حياتى ، وكان الحفل عبارة عن عشاء فى بيت واحد منهم ، وقد حضره عدد كبير من طلابى السابقين ، ومعهم أبناءهم الذين أديبت أعمارهم فى مثل أعمار الطلاب حينما كنت هناك فى الخمسينات . وإذا كان الولد امتدادا لأبيه وأمه فقد استطعت أن أنسب أنثر الجيل الجديد لطلابى وطالباتى السابقين ، وامتد الحفل الى منتصف الليل ، وكان حافلا بالبهجة والسرور والمتعة ، وتخللت نفسى رجلا زرع زرعاً فى أرض خصبة واهتم بمزروعاته كل الاهتمام فأنت أكلها ، ولهذا نعمت بهذا الجمع وهذا الحفل كما لم أنعم من قبل •

نحن والشرق الأقصى :

هناك فى الشرق الأقصى ملايين المسلمين يعيشون فى إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند وبورما والفلبين •••••

وقد حمل أجدادنا الإسلام لهذه المناطق فى أول الأمر ، ثم ظهر من بين السكان الأصليين من حمل عبء نشر الإسلام وخدمته حتى أصبح المسلمون يكوّنون أغلبية بين السكان فى بعض البلاد ، كما أصبحوا أقلية بحسب

حسابها في بلاد أخرى ، أو أقلية تصارع لتحافظ على نفسها ، وأحياناً صاروا على قدم المساواة مع غير المسلمين من حيث العدد والنفوذ .

والمسلمون على العموم في هذه المناطق لا يزالون في حاجة ماسة لمزيد من التعرف على الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ويوجد هناك مسلمون بالاسم ويترجى أن يقدم لهم الإسلام بمبادئه وتشريعاته وأخلاقه ، ليتعمق هذا الدين في نفوسهم ونفوس أبنائهم ، والعجيب أنهم جميعاً يتطلعون لمصر في هذا المضمار ، يتطلعون لمصر كمركز قيادة فكرى للمسلمين جميعاً ، وإذا سألتهم عن تاريخهم الإسلامى تبين لك أنهم لا يعرفونه غالباً ، ويرقبون أن يكتبه لهم المؤرخون المصريون .

وأحب أن أعترف أن مصر — كغيرها من الدول المسئولة — لا تؤدي دورها في هذا المضمار كما ينبغي ، فالمبعوثون المصريون لتدريس الإسلام والحضارة الإسلامية قلة قليلة تختفى في هذا المحيط الصاخب ، وأكثرهم يقدّمون الدراسات العادية عن الإسلام كالفقه والتفسير والحديث ، ولا يعرفون الدراسات التى تتطلبها العصر الحديث كراى الإسلام في السياسة ، واتجاهاته الاقتصادية وتعليماته في الميدان الاجتماعى أو الأخلاقى والتربوى والعسكرى ، وتلك هى الفروع التى تشملها الحضارة الإسلامية والتى تعدّ منحة الإسلام لهداية البشرية .

وأكثر هؤلاء المبعوثين أو كلهم لا يعرفون مقارنة الأديان وهو العلم الذى يعد سلاح الداعية ، وبدونه لا يستطيع أن يشق طريقه بنجاح .

وفي كلمة موجزة ينبغى أن نوضح أن هناك فرقاً كبيراً بين الدعاة وبين المدرسين ، وأن هذه البلاد تحتاج لدعاة أكثر مما تحتاج لمدرسين ، فمدرسون يبدأ عملهم بعد نجاح الدعاة ، فإذا قدم الداعية الإسلام للضال واستطاع أن يجذبه لحوزة الإسلام ، بدأ بعد ذلك عمل المدرسين ليعلمّوا هذا المسلم كيف يصلى وكيف يصوم وكيف يؤدى مبادئ الإسلام ويلتزم بتوجيهاته ، أما الداعية فيعرف علوم المدرس معرفة تامة من فقه وتفسير وحديث وغيرها

من العلوم الإسلامية ، ولكن ينبغى أن يضيف لها علوم الدعوة ، وهى بالإجمال :

— لإجادة لغة من اللغات العالمية على الأقل ، ثم معرفة لغة القوم الذين سيقدم لهم الإسلام ويدعوهم إليه . ويمكن أن تكون معرفة الداعى بهذه اللغة معرفة محدودة ، لأن حياة الداعية بين القوم ستجعله يطور معرفته بهذه اللغة بسرعة .

— هناك صفات شخصية يتحتم أن تكون بارزة فى الداعية وفى قمتها الإيمان العميق بالعمل الذى يزاوله ، وإحساس أنه يريد أن يعاى من فخره وجهده لخدمة دينه ووطنه ، ثم وضوح الفكرة ، واللاقاة اللسان ، وإجادة الحوار والمناظرة ، ثم سماحة النفس ، واتساع الأفق ، وحسن العشرة ، ثم الكرم ، وسمو الخلق ، والتطور الفكرى . وسعة الإدلاع . وقبل هذا وبعده أن يكون قدوة حسنة للناس . وأن يجعل الآية التريمة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » نبراساً له ونسوءاً يهتدى بهديه .

— الدراسة العميقة لعلم مقارنة الأديان . ودراسة مقارنة الأديان ستضع أدينا على جمال الإسلام وعان الدور الذى يحمله اينهل به محاولات الأديان لهداية البشر ، وسيستفيد الداعية من « مقارنة الأديان » فى مواجهة المبشرين بالمسيحية أو البوذية ، فهؤلاء يعرفون الإسلام ويتلمسون ما يعتقدونه نقاط ضعف فيه ليهاجموه عن طريقها كتعدد الزوجات والطلاق وانتشار الإسلام بالقوة ، ولا يجوز أن يقف الداعية موقف المدافع فقط بل يجب أن يعرف كيف يهاجم أحياناً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تعرف على هذه الأديان ودرسها .

— الدراسة العميقة للحضارة الإسلامية بنوعها ، أى دراسة الحضارة التجريبية . وهى إبراز دور الإسلام فى العلوم التى كانت موجودة قبل الإسلام كترقية العمران وتحوير ما عرفه الناس فى جوانب الفكر البشرى من طب ورياضة وفلك وموسيقى وغيرها ، ثم دراسة الحضارة الإسلامية

الأصيلة التي جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كاتجاهات الإسلام في السياسة والاقتصاد ، وفي المجال التربوي والاجتماعي والعسكري ، تلك الجوانب الحضارية التي تُعَدُّ منحة الإسلام لهداية البشرية •

— التعرف التام على تاريخ المسلمين منذ مطلع الإسلام حتى الآن في كل البلاد الإسلامية مع تصحيح ما ازدحم به التاريخ الإسلامي من أخطاء ، وقد جاء الخطأ للتاريخ من مصادر متعددة لعل أهمها أن تاريخ بعض الدول كتب في عهد أعدائها كتاريخ الدولة الأموية الذي كتب في عهد الدول العباسية ، وكذلك كُتِبَ تاريخ بعض الملوك والعظماء في عهد قاتليهم أو منافسيهم كتاريخ الحاكم بأمر الله الذي قتلته ست الملك أخته بعد صراع طويل بين الاثنين ، وتاريخ الخديوي إسماعيل الذي كتبه الإنجليز أو من سار في فلكهم ، وتاريخ سني على الكبير لإمبراطور صغى العظيم الذي كُتِبَ في عهد أسكيا محمد الذي انتزع لنفسه السلطة بعد وفاة الإمبراطور ، والأمثلة كثيرة جدا على هذا النحو ، وقد صور هؤلاء الخلفاء سيرة السلف في أسوأ صورة ، فأزالوا حسناتهم ، وبالغوا في إبراز مساوئهم ، ونسبوا لهم الكثير مما هم منه أبرياء ، وقد حاولت في موسوعة التاريخ الإسلامي أن أصحح هذه الأوضاع وأحق الحق قدر الطاقة •

ومن أسباب شيوع الخطأ في التاريخ الإسلامي أن المستشرقين هم الذين كتبوه في مطلع النهضة الحالية ، فجاء أكثر ما كتبوه حافلا بالظلم بعيداً عن الإنصاف ، وللأسف كان المستشرقون هم أساتذة الجيل الجديد من المسلمين فتأثر بعض التلاميذ بأساتذتهم ، وبخاصة أولئك الذين لم يكن لهم باع طويل في الدراسات الإسلامية عندما أوفدوا إلى الغرب ليلتحقوا بجامعاته ، وكثيرا ما تقرأ لمسلمين فتحسب أنهم صدى لمستشرقين ، لعمق آثار هؤلاء في نفوسهم •

ذلك — بإيجاز — هو الزاد الذي يتحتم أن يتزود به الدعاة ، ولو كنا في عهد استعمار لقلنا لأن الاستعمار هو الذي يحول دون إنشاء معهد

أو معاهد للدعاة ، ولكن ماذا نقول الآن ولدينا عدد يفوق الحصر من الكليات والمعاهد العليا ، عدد يجعل من الصعب أن تحيط بأسمائها أو تعرف مدلولاتها ، ولكن ليس هناك معهد واحد للدعاة ، ومثل هذا المعهد سيقدم للدين الكثير ، ويقدم ألوانا من العون والتأييد (١) .

وفي ختام حديثنا عن الشرق الأقصى أرى من الخير أن أورد من الواقع حدثاً عشته يوماً من الأيام في صيف سنة ١٩٦٠ لعله يبرز للمسؤولين مسؤوليتهم أمام الله وأمام التاريخ .

كنت في طريقى من إندونيسيا للقاهرة ، وتوقفت الطائرة في بانكوك عاصمة تايلاند لنزول بعض الركاب وصعود آخرين وللتزود بما تحتاجه الطائرة ، وبعد فترة أعلن أن هناك عطباً خفيفاً يستدعى « قفلة غيار » من الخارج وأن الركاب لذلك سيمضون ليلتهم في تايلاند ، ومن عادة شركات الطيران أن تتبارى في إكرام الركاب في مثل هذه الحالة ، فسرعان ما أخذنا إلى فندق عظيم ، ثم أعدت السيارات الفاخرة لتقوم برحلات في العاصمة وغما حولها لنشاهد الأماكن الأثرية بالبلاد ، ولنتعرف على معالم الحياة في هذه المدينة ، ووزعت علينا كتيبات تبرز أهم هذه المعالم ، وكان من بينها مسجد ، وكان اليوم يوم جمعة ، وكنا قبيل منتصف النهار أى حوالى وقت الصلاة فطلبت من رائد الرحلة أن يأخذنى إلى المسجد ، فقد رأيتها فرصة لأرى المسلمين عدداً وفكراً ، وبعد قليل كنت في المسجد ، ولم يكن المسجد مزدحماً بالمصلين وخطوت في المسجد ، وبدأت أصلى ركعتين تحية المسجد ، وقد لاحظت أن بعض العيون بدأت ترمقنى ، بل رأيت غمزات وإشارات خفيفة أخذت تتجه لى ، فإن ملامح وجهى كانت تنبىء عن أننى غريب ، بل كانت تشير إلى أننى عربى ، فليست فى شقرة الغرب ولا سمرة الإفريقى ، ولم يبق إلا أن أكون عربياً ، والعربى بالنسبة لأهل الشرق الأقصى رجل جاء من أرض النبى ، وينتسب له بالدم والعنصر والجنس واللغة .

(١) أنشئت بعض معاهد الدعوة بعد ذلك ، وأرجو أن يكون لهذا الكلام نصيب فى انشائها .

وخطا نحوى شخصان واندفعا يسألان بإنجليزية ضعيفة ، وعربية ركيكة عن حالى ، فذكرت لهما أننى مسلم عربى مصرى ، وأستطيع أن أتحدث بالإنجليزية أو الاندونيسية أو العربية وتزايد عدد المحيطين بنا وبدأ حديث بيننا ، وأخبرتهم عن اسمى وعملى باندونيسيا ، ولم يكن اسمى غريباً عليهم فبعضهم سمعنى بالإذاعة أو سمع عنى من طلاب تاييلاند المسلمين الذين يتعلمون باندونيسيا ، وقفز سؤال مهم هو :

ألا تحب أن تخطب لنا الجمعة ؟

وبدون تفكير أجبت : نعم أحب ذلك •

وكانت هذه الإجابة تشبه تيار كهرباء انطلق فى الأسلاك ، فقد أصبح هذا حديث كل الناس بالمسجد فى لحظة قصيرة ، وهنا تقدم شيخ من علماء البلاد وقال إن خطبة الجمعة من الدكتور شلبى شئ يحتاج إلى تنظيم لابد من الأخذ به فوراً ، وأعلن أنه يقترح تأجيل الخطبة والصلاة ساعة لتتخذ الأهمية لذلك ، وقبل الجميع هذا الاقتراح •

وبسرعة كانت هناك سيارة تحمل مكبر صوت ينطلق فى الشوارع تعلن عن وجودى بالمسجد وأننى سألقى خطبة الجمعة وأؤم المصلين وأتحدث للمسلمين ، وفى نفس الوقت أتخذت الاستعدادات لإحضار مكبر صوت بالمسجد وخارجه وإعداد مترجم يعرف اللغة العربية يقف أدنى المنبر وأمامه « سماعة » وهناك سماعة أخرى أمامى فوق المنبر ، واتفقت مع المترجم على أننى سألقى خطبتى ، فقرة فقره ، وأتوقف عقب كل فقرة ليتترجمها ، ثم أستأنف كلامى •

وانهال الناس إلى المسجد حتى ضاق بهم ، فبسطوا البسط خارجه ، وحضر كثيرون من غير المسلمين ليروا هذا التجمع الهائل ، وأشرف البوليس بكل أدب وذوق على النظام •

ولم أجعلها خطبة جمعة على النحو المألوف ، بل انتهرتها فرصة لألقى محاضرة طويلة في مقارنة الأديان وماذا حقق الإسلام للبشرية من خير ، وذكرت فضل القرآن الكريم في تطهير تاريخ الأنبياء السابقين ، وكان تاريخ هؤلاء الأنبياء مشوهاً تماماً في الكتب المقدسة التي سبقت الإسلام بسبب تحريف هذه الكتب ، وتحدثت عن الحضارة الإسلامية بجانبها التجريبي والأصيل ، ورأيت دموع الناس تذرف وروحانياتهم تبرز ، وبعد الصلاة انطلقت أصوات ثرّجمت لى بأنك لو بقيت هنا فإننا ننشر بك الإسلام بسرعة ، بل وأقسم بالله على ذلك — لقد سمعت واحداً من غير المسلمين يقول :

ابق معنا ونحن جميعاً ندخل الإسلام • وأجبت بإجابة حزينة مريرة ولكنها كلمة حق ، قلت : إننى للأسف لا أضع الخطط ولكنى أنفذها ولست أستطيع أن أبقي ، فكل شيء مرسوم لى ولا بد أن أسير طبقاً لما هو مرسوم ، ووعدت أن أنقل رغباتهم لن يضع الخطط ، فأشعت فى نفوسهم الأمل ، وقد فعلت ، ولازلت أفعل ، ولكن الاستجابة كانت محدودة أو كانت غير موجودة ، وأرجو أن يتحقق فى المستقبل ما عجزنا عن تحقيقه فى الماضى •

وأرجو أن أقبر أن مال الكويت والمملكة العربية السعودية وغيرهما من دول البترول ينبغى أن يلعب دوراً فى هذا الشأن • ولو تعاون مال الأغنياء مع فكر المفكرين وإخلاص المخلصين لكانت النتيجة خير الجميع ورغاهية الجميع •

وقبل أن ندع الشرق الأقصى وتطلعاته للإسلام نورد فيما يلى ما نشرته صحيفة أخبار اليوم فى العاشر من فبراير سنة ١٩٧٣ عن رغبة أهل كوريا فى التعرف على الإسلام ، وفيما يلى هذا النص لعل فيه تذكرة لمن شاء أن يتذكر •

مسئول كورى يشرح

لماذا لم ينتشر الإسلام فى كوريا

المسلم الذى يزور جمهورية كوريا الجنوبية يلاحظ مدى اهتمام حكومتها بتشجيع الأديان • فليس هناك أى قيد على أى مواطن لاعتناق الدين الذى يؤمن به ، والمذهب الذى يتبعه •

وهناك نشاط كاثوليكي كبير • • هناك ٣٥٠ كنيسة • • وهناك مدارس ومستشفيات وملاعب رياضية وجامعات مسيحية فى كوريا الجنوبية التى يدين معظم سكانها بالبوذية •

أما النشاط الإسلامى فقد اقتصر حتى الآن على أربعة آلاف من المواطنين فقط •

والفرصة سانحة لنشر الإسلام فى كوريا الجنوبية لأسباب كثيرة ، منها ان الرئيس الحالى بارك سنج هى مينادى بحرية الأديان • وعلى من يهمهم نشر الإسلام فى كوريا أن يتحركوا بسرعة فى عهد بارك سنج هى ، فربما يأتى بعده رئيس جديد للجمهورية الكورية ، تكون له اتجاهات دينية أخرى ، فتضيع الفرصة على المسلمين •

والكوريون يؤمنون منذ القدم (بهنانيم) وهى كلمة معناها الاله الواحد الذى لا شريك له ، وهذا أقرب ما يكون إلى الإسلام ، لذلك لن يجد المبشر بالدين الإسلامى صعوبة فى مهمته بين الكوريين •

والكورى الجنوبى لا يؤمن بالالحاد ، ولا يؤمن بالشيوعية ، ولا يؤمن بالمسادة البهتة • أن الكوريين يؤمنون بالروح وبالعقل وبالدين الصحيح • • والإسلام يملأ العقل بمبادئه ويسير مع الفكر والزمان والتطور •

وتسأل المسلمين في كوريا الجنوبية عن أسباب عدم انتشار الإسلام في دولة هتحت قلبها لكل الأديان هتسمع من يقول :

مطلوب إمكانيات مادية كاهية ، نريد مسجداً كبيراً في العاصمة سيول .
الأرض غالية الثمن ، ولكن هذه المشكلة حلها الرئيسى بارك سنج هى ،
عندما أهدى المسلمين قطعة الأرض ، وحتى الآن لم تتجمع الأموال لبناء
الجامع الكبير .

والمنح الدراسية التى تصل كوريا من الدول الإسلامية قليلة جداً
ويكفى أن تعرف أن عدد الكوريين الذين أرسلوا إلى الدول الإسلامية في
منح مقدمة من تلك الدول لاتزيد على ٢٩ طالباً خلال الـ ١٠ سنوات
الأخيرة .

الخطر على الأقليات الإسلامية بالشرق الاقصى :

يُثبت التاريخ بما لايدع مجالا للشك أن غير المسلمين عاشوا ويعيشون
في رحاب الإسلام في أمن وسلام ، وكانوا في كثير من الأحيان ينعمون
بالغنى والترف أكثر من المسلمين ، ولكن الأقلية المسلمة لاتنال الأمن مع
الأكثرية غير المسلمة ، وهذا ما يتضح لو تذكرنا مسلمى الأندلس والمسلمين
في الهند وفي إسرائيل . ومسلمو الفيليبين مثل صارخ في العهد الحاضر ،
وهذا يحتم علينا الجسد لنشر الإسلام في هذه المناطق لأن القوى المضادة
لا تكتفى بالتبشير بأديانها بل تسلك سبل الاضطهاد والعنف للقضاء على
المسلمين والنيل منهم . ويتحتم على المسلمين كذلك أن يتعاونوا ويردّوا
هذا العدوان .

وأرفع القلم تاركاً الحديث لشاهد عيان مسئول هو الدكتور محمود
حسن العروسى وكيل وزارة الخارجية المصرية ، وفيما يلى نص النقاش
الذى دار بينه وبين مندوب صحيفة الأهرام (الأستاذ شوقى مصطفى)

ونشرته هذه الجريدة في ١٩٧٢/٧/٢١ • ويتضح مما ورد في هذا النقاش من حقائق ، التزام المسلمين جميعاً برعاية هؤلاء المضطهدين ، والتزامهم بالعمل حتى لا يتسع نطاق هذا الاضطهاد فيمتد إلى مناطق أخرى ، وهاك هذا النص ، يقول الأستاذ شوقي :

أزمة الأقلية المسلمة في الفيلبين ارتبطت في أذهان الكثيرين على أنها مشكلة اضطهاد ديني يتعرض له أربعة ملايين من المسلمين يسكنون الجنوب ويتمركزون في مجموعة جزر ميندانا • وهذا الاضطهاد الديني من أهم الأشياء التي أثارت قلق كثير من الدول العربية حول مصير تلك الأقلية ، وذلك بعد أن اتخذت الأزمة صورة مسلحة ، وسقط الكثير من الضحايا • ولذا قبلت مصر وليبيا عرض الرئيس الفلبيني ماركوس لإرسال بعثة مشتركة تتقصى الحقائق وترفع مقترحاتها لحل المشكلة • وقد أعدت البعثة التي رأسها الدكتور محمود حسن العروسي وكيل وزارة الخارجية المصرية تقريرها بعد عودتها في الأسبوع الماضي من الفيلبين ، لعرضه على الرئيسين السادات والقذافي •

وقد قابلت الدكتور العروسي وبدأت حديثي معه بسؤال حول أزمة الأقلية المسلمة بالفلبين وهل لها جذور أخرى بجانب الجذور الدينية ؟

فأجاب سيادته : أساس هذه المشكلة أن منطقة ميندانا التي يسكنها المسلمون كانت منطقة مهمة اقتصادياً واجتماعياً ، بمعنى أن مشاريع الحكومة الفلبينية لتطويرها اقتصادياً كانت محدودة كما أن الخدمات الاجتماعية والتعليمية كانت قليلة ، فخريجو الجامعات من المسلمين قلة قليلة ، لأن مصاريف الجامعات باهظة ولا يستطيع أن يوفرها سوى الأغنياء من المسلمين وهم قلة ، أما الأحوال الصحية فهي سيئة للغاية ، وقد اعترف الرئيس ماركوس نفسه بأن ٦٠ في المائة من سكان هذه المنطقة لم يَرَوْا طبيباً في حياتهم •

وسألت سيادته : ولكن لماذا اتخذت المشكلة هذه الصورة العنيفة

حتى إننا نرى عصابات الكاثوليك المتطرفين تقابلها عصابات من المسلمين تحارب بعضها البعض وتنشيع جواً مفزعاً بين السكان ؟

فأجاب : إن السبب المباشر لذلك — إذا تركنا مسألة التعصب الديني، جانباً — هو مشكلة الأرض ، فلأرض في تلك المناطق غنية وخصبة وأمطارها وفيرة ، وأهم منتجاتها الأرز والموز والمانجو وجوز الهند والأناناس ، ويقال إن بها بعض المعادن التي لم تستغل بعد ، ولسوء الحظ فإن نظام ملكية الأراضي في تلك المناطق أحدث اضطراباً كبيراً ، ففي الماضي كان السلطان يمتلك الأرض وما عليها ، ومع تفتيت الملكية واختفاء الأقطاع تدريجياً ، كان الكاثوليك يقومون بتسجيل الأراضي لدى الحكومة ، أما المسلمون بسبب الجهل والتواكل فلم يهتموا بتسجيلها على أساس أنهم يعيشون عليها منذ مئات السنين . ومنذ عام ١٩٧٠ بذل بعض الملاك من الكاثوليك مجهودات كبيرة للاستيلاء على الأراضي بمساعدة عصابة إرهابية تسمى « إيلاجاس » أو « الفئران » وظلت تطرد المسلمين من أراضيهم بالإرهاب وحرقت المساجد ، وقد حرق حتى الآن حوالي مائة مسجد ورأينا بأنفسنا بعض المسلمين الذين قطعت آذانهم اليمنى وأصابهم وخاصة بين الصغار إمعاناً في الإرهاب ، وهكذا كانت مشكلة الأرض ومشكلة التعصب الديني توأمين متلازمين بالفلبين .

ومن ناحية أخرى فإن الزعامات الإسلامية في تلك المناطق ليست متحدة ، فبعضها يؤيد الحزب الوطني الذي يرأسه ماركوس ، وبعضها يؤيد الحزب الجمهوري المعارض ، وقد أدّى ذلك إلى إضعاف وحدة المسلمين وعدم وقوفهم في جبهة واحدة للمطالبة بإصلاح أحوالهم .

وعدت أسأله : ألا ترى أن حرق المساجد وقطع الآذان والأصابع يعتبر مؤسراً عنيفاً للاضطهاد الديني ؟ وما رأيك فيما يقال من أن هناك عملية إبادة للمسلمين ؟

فأجاب : إن المعلومات المتوفرة لدى الحكومة تشير إلى أن هناك عناصر

تسللت إلى المنظمات الكاثوليكية المتطرفة مثل منظمة « إيلاجاس » بقصد إحداث الذعر بين المسلمين وطردهم من أراضيهم حتى تضطر الحكومة إلى إرسال قوات إضافية لحماية السكان ، الأمر الذي يترتب عليه خلو منطقة لوزون التي تقع فيها العاصمة مانيلا من قوات الأمن ، الأمر الذي يسهل معه بدوره استيلاء هذه العناصر على السلطة ، وقد اعترف الرئيس ماركوس بأن المنطقة المسلمة متخلعة ولكنه رفض فكرة الاضطهاد ، وفي رأيه وحسب مشاهداتي ليس هناك إبادة للمسلمين ، ولكن هناك ذعر وخوف بين المسلمين لأن عدد المسلمين اللاجئين الذين اغتصبت منهم أراضيهم أخذ في الازياد ، وثمة شعور من الخوف بالنسبة للمستقبل ، وإذا لم توقف الحكومة عصاة إيلاجاس — وهذا ما وعدتنا به الرئيس ماركوس — وإذا لم تختلف الفروق الاجتماعية ، فسوف ينقلب الوضع الحالي إلى حرب دينية ، وربما كان حرق المساجد وقطع الأصابع والآذان هو بقصد التخويف ، هذا في الوقت الذي يثبت فيه إن كنيسة واحدة قد أحرقت من جانب منظمتي « البراكودا » و « القمصان السوداء » المسلمين ، وقد تشأت هاتان المنظمتان كإجراء مضاد لمنظمة « إيلاجاس » وقد قُتل أفرادها بعض الكاثوليك المتطرفين أخذاً بالنار فقد قُتل أكثر من ألف مسلم .

— هل تعتقد أن الإجراءات التي تتخذها حكومة الفلبين حالياً تعتبر كافية لوقف هذه الأعمال واستتباب الأمن هناك ؟

.. لا أعتقد أن الحكومة الفلبينية فعلت ما يكفي وهي تقع عليها مسؤولية حماية أرواح المواطنين ، وطالما كانت هناك أرواح تقتل وأموال تسلب فهناك مسؤولية على الحكومة ، وقد تحدثت مع وزير الحربية وقلت له إن عدم كفاية إجراءات الأمن قد يرجع إلى أن بعض جزر المسلمين نائية ، ولكنه أجاب إننا نتحكم تماماً في جميع أنحاء البلاد ، وفي رأيه أن الحكومة يجب أن تسعى كحل « للآزمة إلى إقرار النظام وحماية الأرواح والضرب بيد من حديد على منظمة « إيلاجاس » بإقرار الأمن في تلك المناطق سيسمح بعودة الأهالي المسلمين إلى أراضيهم التي هجروها خوفاً

والتي اغتصبت اغتصاباً • وعلى المدى البعيد يتعين بذل مجهودات منظمة لرفع مستوى المعيشة في تلك المناطق المتخلفة فقد هالنا ما رأيناه من فقر وجهل ومرض بين المسلمين هناك •

— كيف تستطيع الدول العربية أن تساعد المسلمين في الفلبين ؟

• • للأسف ليست هناك أية سفارة عربية سوى سفارة مصر • والمبعوثون الدينيون هم من الأزهر فقط ، وفي الواقع يجب زيادة عدد المبعوثين من الأزهر ، وإعطاء مزيد من المنح الدراسية للمسلمين في الفلبين للدراسة في القاهرة والعواصم العربية ليس فقط في الشؤون الدينية ، ولكن في مجالات الزراعة والهندسة للاستفادة بهؤلاء في المشاريع الزراعية المختلفة ، مثل إقامة السدود والقنوات وتنظيم شؤون الري • وقد ذكر لي أحد المحافظين المسلمين هناك أنهم لا يريدون طعاماً بل أجهزة ومعدات زراعية لتطوير أراضيهم ، ومن الضروري إقامة اتصال دائم مع حكومة الفلبين المتابعة ما وعدنا به الرئيس ماركوس من أنه سييذل مجهودات كثيفة لإصلاح الأمور في تلك المناطق البائسة •

* * *

تقارير من إندونيسيا عنى :

ولنعد إلى إندونيسيا أكبر دولة إسلامية بالشرق الأقصى أو بالعالم الإسلامى كله ، والتي تشمل عدة جامعات إسلامية يفد لها الطلاب من جميع ربوع المنطقة • أعود لها لأقرر أنها كانت — كما قلت من قبل — كريمة معى ، معترفة بالجميل ، ومن الوفاء لها أن أسجل هنا تلك التقارير الرقيقة التي أرسلت لأولياء الأمور بمصر عن جهودى هناك ، أسجلها هنا لتبقى لا دليلاً على عملى ، بل دليلاً على الخلق الطيب الذى يمتاز به هذا الشعب الكريم الذى لا يضيع عنده معروف •

R. H. MUCH ILJAS
MENTERI AGAMA R.I.
DJAKARTA

DJAKARTA. _____

(شمسکر وتقدير)

يسرني في اللحظة التي أودع فيها سعادة الأخ الكريم الدكتور أحمد شلهي
أستاذ الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالكلية الإسلامية بجكجا كرتا
والمتقرب من جامعة القاهيرة للتدريس في الجاهليات الإسلامية باندونيسيا
أن أقدم شكرى وتقديرى على الجهود الطيبة التي بذلها سعادته في الحقل
الثقافى والعلمى طيلة الثلاث السنوات التي قضاه في اندونيسيا، والتي كان فيها
مثال النشاط والعمل المجدى .

إننى إذ أذكر له ذلك مع مزيد الفخر والإعجاب، أتفنى له أطوار السيرة
قائمة مهمته، كما أسأله تعالى أن يجعل الفوز حليفه، وأن يحسنه بعونه وتوفيقه

٥٥ في القعدة ١٤٧٧

جاكرتا ١٢ يونيو ١٩٥٨





MENTERI AGAMA RI
DI JAKARTA

في خلال هذا الاسبوع به ادر الاستاذ الدكتور احمد شلبي اندونسيا
عائدا الى الجمهورية العربية المتحدة بعد ان اتم بنجاح رافع ست سنوات
اساندا للتاريخ الاسلامي والحفارة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية

اننا نستعرض الجهود الكبيرة التي بذلها الدكتور شلبي لخدمة الاسلام
والسليدين في بلادنا فنجد من الحق ما لنا ان نشأه نيقا على هذه الجهود
وان نشكو عقيقتنا الجمهورية العربية المتحدة على ندبه للعمل بجامعاتنا ولا نزال
نأمل مزيدا من الوقت من الدكتور شلبي يواصل فيه جهوده ويستمر في خدماته .

وهذا التقرير الموجز انما هو اعتراف بالجهد الكبير للسيد الدكتور على محاضراته
الخاصة والعامه للطلاب والباحثين في جميع ريف اندونيسيا موكدة لك على كنيسته
التي نشرها لخدمة الثقافة في اندونيسيا .

والله المستعمل ان يجزيه خير جزاء

ساكرتا في ٢٧ يونيو سنة ١٩٦١

وزير الشؤون اندونيسيا



تقرير

الاستاذ الدكتور احمد علي نعل منصب استاذ التاريخ الاسلامي
والعقارة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية هذه سنة جنوات
من اول مارس سنة ١٩٥٥ الى آخر ابريل سنة ١٩٦١ وبالاضافة الى
التاريخ الاسلامي والعقارة الاسلامية فقد ساعد الدكتور علي في تدوين
عدة مواد اخرى من اهمها اللغة العربية وآدابها وصناعة الادب والتاريخ
التصريح الاسلامي وغيرها .

وقد شارك الدكتور علي في تنظيم الجامعة والتفريع ستامبها
وهيئة التدريس بها . وكان في ذلك مرجعا هاما لكثير من المسؤولات والقيادات

وفي خلال هذه السنوات طاف الدكتور علي باهم حوز اندونيسيا وزار
الجامعات والمعاهد والهيئات والتي عددا كثيرا من المحاضرات التي كانت
تثار اهتمام الجماهير والمحاكمة والادلة

وقد نشر الدكتور علي عددا كبيرا من الكتب احيد طبع كثيرا
عدة مرات . وعالجت موضوعات كبيرة الاجمعية في اوقات التمرور ووضعت
وكب المبالاة العلمية بالاندونيسيا الى الامام . ومن هذه الكتب المجموعة
الرائدة التي الفتها لتعليم المسلمين اللغة العربية في احدى الطرق .

ثم هناك الكتب المفيدة التي نشرها لخدمة المؤسسات الاسلامية والتي
الجل عليها . الجهور بنفسه واهتمام

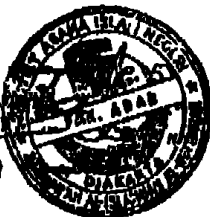
وكانت سلسلة الدكتور علي بتلاميذه وزملائه مستمرة للخدمة
تلك بحسب الجميع وبحسب الجميع .

واستنادا ان الجامعة الاسلامية والكتب الاندونيسية لا يزال
في حاجة لمزيد من جهود الدكتور علي . ومن اجل هذا التفرغ
الجامعة على الوزارة تجده لديه موالفة الوزارة واصدرت قرارها بذلك
ولمن تأكد ان يكون من الممكن موالفة الجهات المسئولة بالجمهورية
العربية المتحدة على هذا التجديد بوزارة الاسلام والمسلمين في اندونيسيا .

ولتتم هذا التقرير بتكر الجمهورية العربية المتحدة هوما
والمواصلة الاسلامي ووزارة التوجيه والتعليم لخدمة خاصة على العمل
الذي اسدى لبلادنا يريد الدكتور علي لفسل هذه الوظيفة كما تذكر
مزيد التثنية والتقدير ذلك المون الكبير الذي حصلنا عليه من الدكتور
نيلين داعين الله ان يحسن جزاه على ما قدم من جدير .

والله المستعان .

كليه الآداب
رئيس الكلية
مستشاري السيد القلي



في إدارة الوافدين والمبعوثين

عدت من إندونيسيا إلى أروقة وزارة التربية والتعليم المركزية كما كانت تسمى آنذاك (يوليو سنة ١٩٦١) ولم يكن لى ماضٍ فى العمل بالوزارات ولذلك أحسست أننى غريب فى هذه الوزارة على الرغم من أنها ترعى العلم وتنشر المعرفة ، ذلك لأن مجالى بها يوم عدت لم يكن فى قاعات المحاضرات أو دور العلم ، إنما كان فى المكاتب والشئون الإدارية ، ولكن لم يكن من ذلك بدءٌ على كل حال ، بيد أن وكيل الوزارة أدرك صلتى بالخارج طالباً وأستاذاً فعرض علىّ وظيفة « مدير مساعد » بإدارة الواهدين والمبعوثين فقبلت ، وكان مدير هذه الإدارة من الضباط الذين يباشرون ألواناً من النشاط فلم يكن وجوده بالإدارة منتظماً ، ولذلك ألقى علىّ

أكثر العبء •

والحقيقة أن الفترة التى أمضيتها بهذه الإدارة كانت — على قصرها — مفيدة جداً وتجربة جديدة علمتني من شئون الإدارة ما لم أكن أعلم ، مما سأقص هنا طرغاً منه •

اتخذتُ فى أول صلتى بهذا العمل خُلُق الجامعة ، ففتحت بابى لكل من أراد لقائى ، واتصلت بالواهدين اتصالاً مباشراً ، وظننت أننى بذلك فتحت فتحاً مبيناً لأقضى على الروتين ، ولأبت فى المسائل بسرعة وبدون وسائط ، ولقد نجحت الخطة فى أول الأمر ، ولكن ما إن عرف ذوو الحاجات أو مدعو الحاجات هذا التصرف حتى انهالوا علىّ أفواجا ، فأصبحت حجرة مكتبى أشبه بركن من سوق مزدحمة بالناس ، ولم أكد أبداً فى قضية حتى يقفز صوت من هنا أو هناك بمظلمة ، وأدركت أن هذه السياسة ستعطل العمل بدل أن تنجزه ، فعدت إلى الطريق المتبع ، أقفلت بابى وأصبح على الحاضرين أن يمرؤا بسكرتير ليُدخلهم واحداً بعد واحد •

وقد ساءلت نفسى : لماذا لم تنجح خطتى الأولى بمصر مع أنى رأيتها ناجحة فى بلاد كثيرة ؟

والإجابة هي المركزية الصارخة التي تعيش في بلادنا ، فتجعل رئيس المصلحة له يدٌ في كل شيء ، ولا يتم شيء بدونه ، بل تجعل الوزير نفسه يضع إمضاءه على حركات النقل والاستقالة لمدرس أو مدرسة من مئات الآلاف الذين يعملون بهذه الوزارة .

لقد كان معي في هذه الإدارة أقسام كثيرة لمختلف الجامعات والمعاهد ويشرف عليها موظفون لهم درجة طيبة من الثقافة والخبرة ، ولكن الروتين أو اللوائح كانت تحتم أن يتشركوني في كل شيء على الرغم من رغبتى في التفرغ لدراسة القضايا الكبرى التي تهتم الوافدين والمبعوثين .

وبهذه المناسبة أذكر أنه كان من قرينتنا عامل من عمال «القناة» الذين ألحقهم الدولة بالعمل بالوزارات عقب القرار الذى اتخذ آنذاك بعدم التعاون مع سلطات الاحتلال ، وألحق هذا العامل بالمطافئ بالقاهرة ، ولجأ لى لأحاول نقله إلى محافظة الشرقية ، وقد أدهشنى أن وجدت أن وكيل وزارة الداخلية لابد أن يوقع على قرار هذا النقل .

يا لله ! ! كيف نشغل وقت وكيل الوزارة ووقت موظفى مكتبه بنقل عامل لا هو فى العير ولا فى النفير .

وفى هذا العام (١٩٧٣) تقدمت مشرعة اجتماعية بمدرسة إعدادية بطلب لجامعة الإسكندرية لتلتحق بعمل بها ، ووافقت الجامعة ، وبدأ شوط طويل لتوافق وزارة التربية والتعليم ، ووافق وكيل الوزارة بالمحافظة التي تعمل بها المدرسة ، ثم اتضح أن الوزير نفسه لابد أن يوافق على ذلك ، وأن الخطوات التي تمر بها هذه المسألة طويلة ومعقدة مما جعله صرف النظر عنها أيسر من تتبعها .

ومعنى هذا أن الروتين الذى عانيت فى مطلع الخمسينات وأنا أحاول نقل العامل ، وعانيت وأنا مدير مساعد للوافدين والمبعوثين لايزال باقياً حتى كتابة هذه السطور ، ولابد من قوة حاسمة لوضع حد لهذا اللغظ .

وأخذت أباشر غبطي عن طريق الشكرتير ، ولكن ذلك منحني خبرة جديدة. أيضاً ، فإن واحداً من الوافدين للإفريقيين حاول أن يدخل حجرة مكتبي دون أن يأخذ دورهما عن طريق الشكرتير ، ومنعني عامل الباب من الدخول ، فطرح أو غضب رفة وبسخت الصوت فخرجت إليه وجاوت التفاهم معه ولكن صوته كان أعلى من صوتي ، وبدأ كأنه يهدد بالاتصال بالهيئات العليا لأنني لا أريد مقابلته ، وقلت له في هدوء إنني سأتصل بالهيئات العليا قبله لأحتكم لها ، وأدرك أن تهديده سيطره به ، فترجع وأخذ يعتذر ، واندعشت إذ يقف الضيف من صاحب الدار هذه الوقفة ، وأحسست أننا ندلل بعض هؤلاء. ونعطيهم أكثر مما يستحقون ، وقد كنا في إنجلترا نتعلم على حساب أمتنا ومع هذا كنا نعترف بالجميل نحو أساتذتنا ونحو الشعب الإنجليزي كلما أكرم وجودنا .

ربما يخطر بالبال أننا ننتفع هؤلاء سياسياً بطريق أو بآخر ، ولكن العجيب أن السنين تمر ، وقد مضى على هذه الحادثة حوالي عشرين عاماً ، ولا أزال أرى هذا الرجل في القاهرة حتى يبدو أنه استطاب الإقامة هنا ، ومعنى هذا أنه لم يتنقل أفكارنا لبلاده ، ولم يقيم بأي لون ينفعنا من الدعاية بين ذويه ، وأصبح قاهرياً ، ولو عاد لبلاده لكان فيها غريباً .

إنني أدرك فائدة الوافد للبلاد التي يتعلم بها وتربطه روابط وثيقة بأهلها ، روابط ثقافية واجتماعية ، ولكني أقرر أن من الضروري أن نحسن اختيار الوافدين ، بأن يكون خلق الوفاء والولاء واضحاً فيهم ، وأن يكونوا من عناصر صالحة ، لها ببلادها كيان ، وأن يكونوا من الأذكاء الموهوبين الذين يغرس فيهم غرس العلم فينمو ويزدهر ، ينفع الواحد منهم به أهله ، وينشر من فكرنا وثقافتنا ، ويكون حلقة اتصال بيننا وبين بلاده . ولكني أقرر للأسف أن هذا النوع لم يكن كثيراً بين الوافدين .



ولم تطل بهذه الإدارة مدتى ، كانت فقط بضعة شهور ، أحسست خلالها بأنى لا أقوى على العمل الإدارى ، فاشتدت شوقى للجامعة ، ففى رحاب الجامعة حياتى ونعيمى ، وبدأت أحاول الوسائل التى تنقلنى من جديد إلى حيث أحب أن أعيش ، كما سنرى فى الشوط التالى من أشواط رحلة الحياة .

العودة للجامعة

العودة أو اللاعودة :

بعد كل هذا التطواف طيلة ثماني سنوات خارج الجامعة بما فيه من جهد وما حقق من خير ، آثرت أن أعود للجامعة مرة أخرى ، فالجامعة لى كالهواء بالنسبة للانسان ، وكالوطن بالنسبة للغريب الشريد ، ولكن العودة للجامعة كانت عملاً متعذراً إلى حد كبير ، فقد كنت أشغل حينذاك الدرجة الثانية وعلى وشك أن أنال الأولى بوزارة التعليم العالى ، وكان سلم الوظائف أمامى مفتوحاً ، وكانت درجة الدكتوراه التى أحملها ، والمؤلفات التى كتبتها ، والتجارب التى خضتها ، تفتح أمامى سبل التقدم ، وكان إخلاصى للعمل واضحاً ، وجّدى فيه متصلاً ، مما بشر بمستقبل مشرق فى حياتى بالوزارة لو بقيت بها ، ولكن ذلك لم يصرفنى قط عن الرغبة فى العودة للجامعة ، ولكن كيف السبيل للجامعة ؟ وإلى أى الوظائف سأقدم ؟

إن إعلانات كانت تنشر من يوم الى يوم عن وظيفة أستاذ مساعد أو أستاذ ، ولكنى كنت أدرك أن هذا النشر عمل ظاهرى ، وأن هناك مستحقاً بالجامعة استوفى المدة وتعتبر هذه الوظيفة فى الواقع أملاً أو قل حقاً له وإن كان القانون القديم يحتم الإعلان عنها ، فليس من اللائق أن أتقدم لهذه الوظيفة محاولاً أخذها من مستحق يترقبها .

بقى التقدم لوظيفة مدرس التى يكثر أن يعلن عنها وليس لها مستحق بالجامعة ، ولكن التقدم لوظيفة مدرس كان تصرفاً لا يقبله لى كثير من الناس ، فقد تقدمت* بى السن ، ووصل زملائى فى الجامعة إلى وظيفة أستاذ ، وكان مرتبى بالوزارة يعادل مرتب الأستاذ وفى قبولى لوظيفة مدرس صعوبات اجتماعية واضحة ، وصعوبات مالية ، إذ كان يتحتم تبعاً للقانون المعمول به آنذاك أن يضيع جزء كبير من مرتبى لآخذ فقط مرتب المدرس ، وكانت نهاية مربوطه أقل بكثير من المرتب الذى أتقاضاه ، ثم كيف أدخل هذه الوظيفة من الدرجة الثانية أو الأولى ، وقد دخلتها من قبل من الدرجة السادسة ؟

ومرّخ فى بعض الرفاق يحذّرون من قبوله وظيفة مدرس بالجامعة

ويصوّرون لى مدى الخسارة الاجتماعية والمادية التى ستتزل بى ، ولكنى فى الحقيقة لم أتردد يوماً واحداً فيما اتجهت إليه ، فقد كانت الجامعة كل حياتى وكل مجدى ، وكنت أحس أن علىّ رسالة كمعلم لا بد أن أقوم بها .
وكمؤلف لا بد أن أوّديها ، ولا وسيلة لتحقيق هذه الرسالة إلا فى الجامعة .

وإذا كان بعض الرفاق قد حذّرونى من العودة للجامعة وشجعونى على البقاء بالوزارة ، فإن الجماهير العريضة فى العالم العربى والإسلامى وقفت موقفاً مضاداً ، وقفت تدفعنى للجامعة دفعاً ، وذلك بإقبالها على كتبى إقبالاً فاق كل أملى ، فأخذتُ أجزاء موسوعة التاريخ الإسلامى وغيرها من الكتب التى كانت قد ظهرت لى تنفذ جزءاً بعد جزء وكتاباً بعد كتاب ، وأحسست بالمسئولية أن أسير فى إخراج باقى أجزاء موسوعة التاريخ وباقى الأجزاء من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وسلسلة مقارنة الأديان ، ولا يمكن السير فى إخراج هذه الكتب فى غير رحاب الجامعة .

وحزمت أمري ، واتجهت إلى رجل يتحتم علىّ أن أذكر اسمه هنا ، هو أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ، وكان آنذاك عميداً لكلية دار العلوم . وعرضت عليه الأمر ، فرحب بى ، وقال : هذه كليتك وهى ترحب بك ، ولما أثّرت فى جلستنا المشكلات الاجتماعية والمادية ، قال أحد الحاضرين إن معيداً بالجامعة يفضل أية وظيفة أخرى ، وشجعنى آخرون بأن مكانتى الاجتماعية لن تتأثر بكونى مدرساً أو أستاذاً ، فاستخرت الله ونقدمت ، ومن الحق أن ننسب الخير لذويه فنقرر أن مساعدات جمة وواسعة بذلها أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس وأيّده فيها أعضاء مجلس الكلية وأساتذتها ، لينواجهوا بها اعتراض الدكتور ضياء الدين الرئيس رئيس قسم التاريخ آنذاك الذى عارض بشدة عودتى للجامعة دون سبب ، غفر الله له .

وعندما خطوط الخطوة الأولى فى فناء كلية دار العلوم للمرة الثانية تحسست ترابها بغبطة ، وقبّلت هواءها ، ومسست جدرانها وأثاثها برق ،

وقلت لنفسى : الآن أعود من جديد إلى كليتى وجامعتى ، أخدم بالحب كله ، وبالإخلاص كله ، ما وسعنى السبيل •

والحق أشهد أن الزملاء — على العموم — لم يعاملونى قط فى أقل من مستواى الطبيعى ، وكانوا يقدّموننى على أنفسهم مقدرين ظروف الأحداث المتى مضت ، ولكن حدث مرة أن أُعِدَّ حفل بالدار فى مناسبة من المناسبات ، وكان اسمى بين أسماء الذين سيتحدثون فى هذا الحفل ، ووضع اسمى فى القائمة قبل اسم زميل كان يشغل وظيفة أستاذ مساعد وكنت لا أزال مدرساً ، فاحتج هذا الزميل على أن ترتب الأسماء ليس طبيعياً ، وأثار احتجاجه عاصفة من الضحك ، وقال له الزملاء : إنه الدكتور شلبى بمكانته العلمية وتاريخه • ولكنه أصر على أن النظم الجامعية هى هى ، وبلغنى الأمر فترفقت فيه ورجوت القائمين بالأمر أن يكون اسمى آخر الأسماء ، وتمسكت بذلك ، وكان ما أردت ، وربما نالت كلمتى كثيراً من الحظوة لدى السامعين •

أقصد من هذه القصة أن أذكر أن بعض متاعب قابلتنى ولكنها كانت أقل كثيراً من الراحة النفسية والنجاح العلمى الذى صادفته • وربما كان لهذا الوضع أثره الكبير الذى دفعنى لمزيد من الصراع لأحقق لنفسى تعويضاً يتناسب مع الحياة الجامعية ، فصدر الجزء تلو الجزء من موسوعة التاريخ الإسلامى ، وظهرت كل أجزاء موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وكل أجزاء سلسلة مقارنة الأديان ، وانتشر كتاب « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » فى كل الأرجاء ، وتُرجم الكثير من مؤلفاتى إلى لغات متعددة ، وعرفت الإذاعة والتلفزيون والصحافة والمجلات طريقها لى ، وانتهال الخير من كل اتجاه •

على أن الزمن مرّ ، وأصبحت أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً وتحقق
لى من الأهداف أكثر مما كنت أطمع فيه ، والشكر لله واهب النعم ..



وفي الجامعة مشكلات اجتماعية كبرى ، مشكلات تعيش فيها ومشكلات
تنبع منها ثم تورق وتنمو خارجها ، وسنعيش مع مشكلات الجامعة في
الصفحات التالية ، ونذكر هنا أننا استبعدنا من هذه المشكلات ما سبق أن
كتبناه مما عالجه التشريع الجديد الذي قضى على آفة الكراسى بالجامعة ،
وقضى على رئيس القسم الخالد ، وقلل من دكتاتورية الحياة في الجامعة ،
وجعل أعضاء هيئة التدريس يختارون العميد كما يختار أهل القرية عمدتهم
وأعضاء النقابة نقييهم .

ومع أن الكاتب ضنين بما يكتب ، ويرى في الأوراق التي تحمل
فكره قطعا من قلبه ، فإننى نحيت هذه الأوراق جانبا لأن الهدف من
هذا الكتاب هو محاولة الإسهام في تطوير الحياة ، فإذا حُلّت مشكلة
فمن الأولى أن نتطلع لسواها ، وألا نطيل الوقوف عندها بعد الحل .

والآن هيا بنا لنعيش مع بعض مشكلات الجامعة :

الجامعة والمجتمع

عشت في جامعة القاهرة فترتين تفصل بينهما ثماني سنوات ، امتدت الفترة الأولى من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٤ وبدأت الفترة الثانية من سنة ١٩٦٢ ولاتزال حتى كتابة هذه السطور في صيف ١٩٨٢ .

والذي عاش في الجامعة حياته متصلة ربما لا يدرك الفرق بين زمن وزمن أو ربما لا يحس الفرق ، لأن التطور البطيء لا يلتفت النظر ، كما يحدث بالنسبة للطفل الذي ينمو يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة وأهله لا يحسون بذلك ، ولكن الذي يراه بعد غيبة يدرك هذا النمو بوضوح عند اللقاء الثاني .

والجامعة في نظري من ناحية صلتها بالمجتمع تختلف اختلافاً واضحاً في الفترة الأولى عنها في الفترة الثانية ، ففي الفترة الأولى كانت الكلية مَعْبُوداً لنا ، وكنا نمضي فيها أوقات فراغنا في لذة بالغة ، وكانت الصلة بين الأساتذة وبعضهم والبعض قوية عميقة ، وكان التزاور كثيراً بين أعضاء هيئة التدريس ، وكان بالكلية سيارة واحدة يملكها أحد الأساتذة ، وكنا نسميها سيارة الكلية ، فمن حق كل واحد أن يركبها في حدود الطاقة .

وكان للكلية نشاط يتصل بالعالم الخارجي ، ويتميز في المناقشات ونتعرف على مشكلات الطلاب ونحاول حلها ، وكانت لنا رحلات وحفلات توثق الصلة بين الطالب والأستاذ ، وكنت أعرف طلاب الفرق التي أدرس لها جميعاً ، أعرف أشكالهم وأسماء أكثرهم ، وظروف عدد كبير منهم ، وكان الحب متبادلاً ، وإجلال التلميذ لأستاذه قوياً .

وكان للكلية نشاط يتصل بالعالم الخارجي ، ويتميز في المناقشات العلنية لرسائل الماجستير والدكتوراه التي كانت تجذب عدداً ضخماً من الجماهير ، وفي المحاضرات العامة التي كان يقوم بها الأساتذة من الكلية أو يُدعى لها أساتذة من خارجها ، لكما كانت تتمثل في الإسهام في المقالات

والأبحاث التي تنشر بعدة صحف ومجلات ، وفي المساعدة في كثير من ألوان النشاط الذي يصل مجتمع الجامعة بالمجتمع خارجها .

وهكذا — بإيجاز — رأيت في الفترة الأولى نشاط الأساتذة داخل الجامعة وداخل المجتمع ، وبعبارة أخرى رأيت مجتمع الجامعة صحيحاً طيباً ، ورأيت صلة الجامعة بالمجتمع قوية عميقة .

ولما عدت للجامعة بعد غيبة ثمانى سنوات رأيت كل شىء قد تغير تقريباً : رأيت صراعاً يدور في طبقة هيئة التدريس بدل التعاون الشامل .

ورأيت انفصالاً بين هيئة التدريس من جانب والطلاب من جانب آخر .
ورأيت عزلة إلى حد كبير بين الجامعة والمجتمع .
ورأيت الحياة الروحية في المجتمع الجامعى تختفى أو تذبل .
لماذا ؟ وما الذى قاد لهذا المصير ؟

إن الأسباب التى أدت لذلك متعددة ، بعضها صنعناه بأنفسنا .
وبعضها جاء عفواً ، وتكاثفت هذه الأسباب وتعاونت لتتال من الجامعة وتضعف من رسالتها .

وأخطر ما عانىناه من هذه الأسباب أن الثورة دفعت بعض الطلاب لينتسبوا إلى اتجاهاتها السياسية ، وأشيع أنهم يقدّمون التقارير عن أساتذتهم ، ولقد سئل أحد أصحاب النفوذ عن ذلك فأجاب بالإيجاب وقال : « اللى فى رأسه بطحة يحسس عليها » وكان معروفًا عن بعض الطلاب أنهم يستطيعون الدخول على الوزراء دون كبير عناء .

ولم يكن هؤلاء الطلاب محدّدين ، وهذا جعل الشبهة تمتد للكثيرين .
مما أدى إلى قطع العلاقة الروحية بين التلميذ وأستاذه ، ومما زاد الطين بلة ، أن أشيع أن بعض الأساتذة لهم صلة بالمخابرات العامة ، وهذا قطع الوشائج بين الزملاء ، وأصبح الواحد يتحاشى زميله ويحتاط إذا تحدث إليه .

وكثرت أعداد الطلاب بالجامعة كثرة بالغة مما جعل من المستحيل أن تستوعبهم أسر ، أو يتعرف عليهم الأساتذة ، أو يجرى معهم حديث اجتماعي .

وجاءت لعنة الإغارة إلى الخارج ، وأنا أسميها لعنة مع ما تؤديه من خدمات لمصر وللدول العربية والإسلامية ، وسبب ذلك أنها صرفت الأنظار عن الداخل ووجهتها إلى الخارج ، وأصبح المدرس أو الأستاذ يحسب بدقة المدة الباقية له بمصر ليُصرَّح له بالخروج للعمل بالأقطار الإسلامية أو العربية ، وأصبح بقاءه بمصر ليس إلا استعداداً للسفر ، أو بلغة أخرى أصبح عمله بالخارج هو الأصل ، وعمله بالداخل ضرورة حتى يحين موعد السفر .

ودخل هيئة التدريس أناس ليخرجوا في العام التالي معارين منها إلى الخارج ، وتستطيع كل كلية أن تقدم كشفاً عجيباً عن بعض الزملاء الذين ساحوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن مدة بقاءهم بالجامعة لم تكن إلا راحة ، أو هدنة قصيرة بين رحلتين .

وفي كثير من الحالات طرق الأساتذة أبواب السفارات يطلبون العمل ، وكثيراً ما عوملوا بطريقة لاتناسب مستواهم ، وأذكر مرة أنني تلقيت برقية من إحدى السفارات العربية تستدعيني في وقت مجدهم لمقابلة بعض المختصين بها تمهيداً لأن أطلب للعمل بالقطر الذي تمثله هذه السفارة ، ولكن ظروف حياتي بالقاهرة : كتبي وأولادي ، وقبل كل شيء أو بعد كل شيء القناعة التي عرفناها من ريفنا الطيب ، كل هذا جعلني لا أحب الإغارة إلى الخارج ، فانتهزت هذه الفرصة لأثار لإخواني الذين كنت أعرف أنهم يعاملون معاملة أقل من مستواهم ، فكلفت زوجتي أن تتصل بالسفارة لتخبر الملحق الثقافي أن الموعد الذي حدد في البرقية لا يناسبني ، وأن تحديد موعد لا يكون من جهة واحدة وينبغي أن يتم بالتفاهم معي ،

وتمّ بناءً على ذلك تحديد موعد جديد ، وفي الموعد ذهبت إلى مبنى السفارة فحاول البواب أن يمنعني ، فأفهمته بأنني حضرت بناءً على برقية وموعد محدد فأدخلني ، وذهبت لمدير مكتب الملحق الثقافي ، فطلب مني أن آخذ دورى مع الجالسين ، فنظرت حيث رأيت طابوراً طويلاً من الزملاء ينتظرون المقابلة ، فأحسست بالخجل ، وقلت للموظف : إنني حضرت بناءً على موعد محدد وساعة هي الآن ، فأخبرني مَن استدعاني بذلك ، ففعل . ودخلت ، واعتذرت . عن عدم رغبتى في السفر ، وأستطيع أن أصور — لولا عدم الرغبة في السير خلف التفاصيل — مدى انفعالات الاحترام وحركات التقدير التى ظهرت على اللجنة مع كلمات الاعتذار التى كنت أقولها ؛ لقد اعتدل من كان متكئاً ، وعثر على مكانه الطبيعى مَن يحس بالشموخ والكبرياء بسبب حرص المصريين على أن ينالوا الاعارة .

على أن الأساتذة معذورون تماماً في حرصهم على السفر ، ويكفى أن يعرف القارئ أن مرتب المعار يصل إلى حوالى عشرة أمثال مرتبه بمصر ، فالمدرس الذى يعانى ضنك الأربعين جنيهاً بمصر يتقاضى في بعض البلدان ما يعادل خمسمائة جنية ، هذا عدا السيارات الفارهة والحصول على كل شيء بأيسر طريق .

وارتفعت تكاليف الحياة بمصر ارتفاعاً باهظاً ، فأتجه الأساتذة إلى الكدح المضى لتحقيق لقمة العيش ، وقبلوا انتدابات رخيصة السعر قاموا بها لتساعدهم في حياتهم ، ويكفى أن نعرف أن من الأساتذة من يسافر كل أسبوع إلى أسبوط أو الإسكندرية لإلقاء محاضرتين مكافأتهما جنيهاً قليلة ، وفي الرحلة كثير من العناء وضياح وقت طويل ، ولكنها سبيل للحصول على هذه القروش البسيطة ، والمهم هنا أن الكدح من أجل لقمة العيش قلل الصلة بين الأستاذ ومجتمع الجامعة وبين الجامعة والمجتمع العام .

والمأمول أن نتحاشى هذه العيوب كلها لتعود الجامعة مناراً يهـدى طلابها ولتتمدد أشعته إلى الخارج وهـاجة بهيـجة .

وقد عالجت التشريعات الجديدة التى صدرت فى صيف ١٩٧٢ بعض العيوب التى أشرنا إليها فى الجامعة ، ويبقى أن نقترح حلولاً لما تبقى من مشكلات فى المجال الذى تدارسناه فى الصفحات الماضية ، وهذه الحلول هى :

أولاً : لا يجوز أن تصبح عضوية هيئة التدريس بالجامعات معبراً للإعارة إلى الخارج ، ويتحتم على من يدخل عضواً بهذه الهيئة أن يبقى بمصر مدة لا تقل عن ثلاث سنوات قبل أن يعار للخارج .

ثانياً : فيما يتعلق بالقبول بالجامعات يتتبع التنظيم التالى :

(أ) المهوبون فقط هم الذين تفتح لهم أبواب الجامعات ويفسح المجال لسواهم فى الأعمال المختلفة بحيث يوجهون حسب استعداداتهم إلى الحرف والفنون المتنوعة بعد الحصول على الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية . ويفتح طريق الترقية أمام من يتبرز نجاحاً فى حياته العملية من هؤلاء .

(ب) تحدّد كل كـلية من كليات الجامعة العدد الذى تقبله بناء على استطاعتها من جانب ، وعلى حاجة الدولة والتزاماتها من جانب آخر ، بحيث يجد كل من يتخرج من الجامعة عملاً ينتظره دون الوقوف فى الطابور الطويل لانتظار لفترة من القوى العاملة التى توزع المتخرجين ، لا للحاجة إليهم ، بل رحمة بهم ، وبحيث يختفى ما نشاهده من نقص فى المدرسين بالمدارس وفائض فى كثيرين من المتخرجين سواهم .

الرشوة ٠٠٠ وفي الجامعة

إذا دَخَلْتَ الرشوة مكاناً أسرع له الانهيار ، وإذا دبَّت بارض جاء على أثرها الضياع والانحلال ، وإذا اقتحمت دولةً ولَّى عنها الأمن والخير والرفاهية .

وقد وقف الإسلام من الرشوة موقفاً حاسماً ، وندد بمرتكبي هذا العمل القبيح ، قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم » (سورة البقرة الآية ١٨٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « الراشئ والمرتشئ في النار » . وقال : ما فشت الرشوة في قوم إلا أخذوا بالرعب .

وبلادنا الحبيبة تعاني كثيراً من الأدواء الداخلية والخارجية ويقف العدو الشرس على أبوابها يهدد ماضيها التليد ، وعنصرها الطيب . وخيراتها الجمّة ، وتعاين كذلك مشاكل اقتصادية واجتماعية ولكن أخطر ما أخافه عليها هو الرشوة ، وكنت بطبيعة سنّ وثقافتى الدينية ومكانتى في المجتمع أخاف الرشوة ولا أفكر في أن أقدمها لتسهّل لى أى عمل من الأعمال ، ولكننى لاحظت أن بعض حقوقى تعطل ، وأن أمور غيرى تيسّر . فبكوت ذلك لرقيق كان يباشر مشروعاً كالذى أباشره ولكن دون عناء . فأوصانى بأن أقدم بعض المال لشخص معين . فصرخت فيه : إنى أخاف ذلك ؛ أخاف الله وأخاف الشخص نفسه أن يدعى أننى أقدم له رشوة . فأجاب قائلاً : عن خوف الله كلنا نخافه ، ولكن ذلك للضرورة ، وأما الشخص فأنا به قمين ، وأكد لى أنه سيرحب بما يقدم له ولن يغضب .

ولم أستطع أن أستجيب لنصيحة صديقى ، وآثرت أن أخطو إلى منتصف الطريق ، فاصطنعت مناسبة خاصة وقدمت له ما يسمى « هدية » فقبلها عن طيب خاطر ، ومنذ ذلك الوقت وهو يبذل أقصى الجهد لتيسير أمورى في ذلك المجال .

وهكذا اتخذت^١ الرشوة اسماً جديداً خداعاً هو « الهدية » وأحياناً سيمت « عمولة » ولا تغيّر هذه الأسماء من الواقع شيئاً ، إنها رشوة بلاشك مهما كان الاسم الذى يطلق عليها ، وقد أدرك الفكر الإسلامى اتجاهات التحايل للحصول على رشوة بغير اسمها ، فاتجة الفكر الإسلامى إلى تحريم الهدايا للعمال ، قال عليه السلام : هدايا العمال غلول (أى خيانة) وقد وضّح الرسول أن الهدايا للعمال أو الولاة يقتصد بها شىء من ورائها ، فقد ولى^٢ عليه السلام رجلاً من الأزد ليجمع الزكاة ، فلما عاد وأخذ يقدم ما جمعه من مال للرسول ، احتجز بعضه وقال هذا أهدي لى : فقال الرسول ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلى ؟ فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا (١) .

ومما فعله الفكر الإسلامى للقضاء على الرِّشَا التى تُقَدَّم باسم غير اسمها أن^٣ منع الحاكم وأعوانه من أن يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشترين ويقول عمر بن عبد العزيز فى ذلك : تجارة الولاة مفسدة ، وللرعية مهلكة (٢) .

وهناك لافتة توضع فى أكثر الجمعيات الاستهلاكية ، وقد كتب عليها « ممنوع إعطاء البقشيش » وقد اعتاد الناس أن يقرأوا ما بين الكلمات وأن يتجاوزوا المدلول الأبله لهذه العبارة وأصبح معناها هو « قدّم البقشيش تجد ما يسرك » وقد طفت بلاد أوروبا الراقية ولم أجد مثل هذه اللافتة ، مما جعل هذه العبارة ونظيراتها مشجعاً على عكس ما كتب عليها ، وتسرب هذا الاتجاه إلى كل الأشياء المناظرة ، فعلى الشاطيء لافتات تمنع لعب الكرة ولكن اللعب يدور تحت هذه اللافتات ، وتنتشر الصحف أن لعب الكرة بالشوارع ممنوع فيسرع الصبيان للشوارع يحتلونها ويوشكون أن

(١) ابن تيميه : السياسة الشرعية ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٣ — ١٠٠ .
وانظر دراسة شاملة عن هذا الموضوع فى كتاب ، السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف .

يمنعوا المرور بها أو أن يسيئوا للمارة • وفي الحقائق لاقتات بالمحافظة على النظافة ويتجه الاهتمام — فيما يبدو — إلى محاربة النظافة حيث توضع هذه اللافتات ••••• وهكذا •

ولنعد إلى الرشوة لنقرر أنها إذا اقتحمت الجامعة تربت وتطورت مع أجيال الشبان ومع مرور الزمن ، وإذا عشت في هذا الجو المقدس أفرخت وتكاثرت بشكل سريع وواسع ، ذلك لأن طلاب اليوم هم موظفو الغد ، وجاملو راية الحركات الوطنية والفكرية ؛ وإذا عرفوا الرشوة واستساغوها نشروها في مدى وجيز بكل الأرجاء ، وإذا أعطوا الرشوة اليوم قبلوها غداً وكانت الكارثة •

هل عرفت الرشوة طريقها إلى الجامعة ؟

لست أدري • ولكنى أذكر من دنيا الواقع أمثلة محددة ، رجاء أن يكون لها أثرها في تصفية جو الجامعة المقدس •

أشرف على رسالة للماجستير لطالب مصرى يعمل بالخارج ، وتدور المراسلات بينى وبينه عن بعض نقاط العمل العلمى ، وقد زارنى في إحدى إجازاته وسألنى عما إذا كنت أحتاج لشيء من الخارج ، وقبلت السؤال ببسر ، لأننا للأسف نحتاج إلى بعض الأشياء من الخارج ، وليست هذه الأشياء — للأسف مرة أخرى — موجودة في القاهرة التى كانت في يوم من الأيام موئلاً لطلاب كل الحاجات من مختلف الأقطار العربية والشرقية • ونماذج هذه الأشياء معروفة والحاجة إليها مأساة ، ومع هذا فقد ذكرت لتلميذى أننى أحب أن أعيش في أى بلد كما يعيش أهله وألا أتطلع إلى ما عند الآخرين ، وتبعاً لذلك لم يأخذنى الشوق إلى « الملوخية » وأنا بانجلترا ، ولا إلى « الفسيخ » وأنا بإندونيسيا ، ومع هذا الاتجاه فهناك أشياء لا غنى عنها ولا بديل لها عندنا ، ومثال ذلك بعض الأدوية البسيطة التى لا بديل لها هنا مثل دواء « أدكسولين » وثمنه خمسة عشر قرشاً وأنا محتاج له لالتهاب يظهر في سفتى أحياناً وليس له بديل ، ومثل قطع غيار

للسيارة لامناص من الحصول عليها من الخارج ، وأعطيت تلميذى مبلغاً من المال مقدماً يكفى لشراء ما طلبت ، وهددته أنى لن أقول عن مطالبى إلا إذا أخذ المال ، فأخذه ، وتفضل فأرسل لى ما طلبت ، وكتب لى بعد حين يسأل عما إذا كنت أريد شيئاً آخر لأنه أوشك أن يعود فى إجازة للقاهرة ، فطلبت إليه أن يرسل لى أولاً كشف حساب دقيق عن الصفقة الأولى ، واجابنى بأنه يرجو « الانفتاح » فى هذه المسائل لأن مرتبه يصل إلى خمسمائة جنيه ، ومطالبى بسيطة جداً ، ويرجو عدم « التدقيق » فكتبت إليه إننى قررت أو أوقف التعامل المادى نهائياً بينى وبينه فكتب لى يعتذر ، وأرسل الكشف المطلوب .

وطالب آخر ريفى يبدو على مظهره أنه إلى الفقر أقرب منه إلى الغنى ، قال لى مرة : إن والده يريد زيارتى . ودهشت لهذا الطلب ، فليس بينى وبين والده أية صلة ، ولم أره فى حياتى ولا مرة واحدة ، ومع هذا فقد رحبت بلقائه كخطوة ريثما أفكر معه فى سبب هذا اللقاء . وأحسست بما يسميه الصحفيون « الحاسة السادسة » بأن فى الأمر شيئاً ، ولكنى لم أشأ أن أصرح له بشئ ، بل اتخذت طريقاً غير مباشر فذكرت لهذا الطالب قصة الطالب السابق الذى وقع فى خطأ لم أغفره له ، وارتبك الطالب الريفى ، وصرح بأن والده كان ينوى أن يحضر لى بعض منتجات الريف . وصرخت فيه احذره ، وذكرت له أننى فلاح ، ويرد لنا من الريف كل ما نحتاج إليه من منتجات الريف ؛ وكان طالباً ساذجاً فألح فى هذا الموضوع ، مما جعلنى أقسم له أن ذلك لو حصل فإن ما يسميه هدية مع ماكتبه من الرسالة سيرسل للجامعة فوراً مع اعتذار عن عدم الاستمرار فى الإشراف عليه .

وطالب سورى لم أره فى حياتى ، اتصل بى تليفونياً متوسلاً للقائى بزميل كريم هو الأستاذ أنور الجندى ، وجاء الموعد ولم يحضرا ، وبعد حوالى ساعتين اتصل بى هذا الطالب تليفونياً من بيتنا القديم إذ لم يعرف أننا انتقلنا إلى بيت آخر ، وقال إنه فى الطريق ، وأنه جاء وحده

لعذر طراً على الأستاذ أنور + وقلت له أن عندي عملاً بالتليفزيون الآن وإننى للأسف لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وسألته إذا كانت له حاجة أستطيع أن أقضيها له ، فقال لى إنه يريد أن يسجل معى رسالة للماجستير ، فاعتذرت بأن عندي عدداً لا أستطيع الإشراف على أكثر منه ، ونصحتة أن يطرق باب زميل آخر ، وذكرت له أننى فى المستقبل إذا تخرج بعض طلابى أمكن أن أفكر فى الإشراف عليه ، وانتهت المكالمة التليفونية .

وبعد قليل اتصل بى أقاربى الذين يسكنون فى المسكن الذى كان يتكلم منه الطالب السورى ، وقالوا لى إن الطالب ترك عندهم « لفّة » وإنهم رفضوا أخذها ، ولكنه تركها وأسرع ، وقد بذلت جهداً كبيراً لإعادة « اللفة » إلى هذا الطالب الذى ظن أننى أقبل هذا المنكر .

وهذه الأحداث المتكررة جعلتنى أصرخ : هل أخذت مرة « رشوة » .
فشاع ذلك عنى وراح الطلاب يتقربون إلى بالرئسا ؟

وأجبت نفسى بأننى لم أقبل قط أية رشوة تحت أى إسم وأى ظروف .
فلماذا إذن يقع ذلك معى ؟

وسألت بعض الزملاء عن ذلك فطمأنونى بأن ما حدث لى حدث لغيرى ، وأن ذلك أصبح عادة منتشرة .

ولست أدرى بعد ذلك إذا كانت هذه « الهدايا » عرفت طريقها للجامعة وأن الطلاب تكلموا بها مع بعضهم البعض ، فراح كل منهم يفتخر بـ ذمة أستاذه بهذا الثمن الرخيص .

وقد أثرت حديثى هذا فى أمكنة أخرى ، وتساءلت عن السر فى هذا الاتجاه ، وحاول بعض السامعين أن يهوّن على الأمر وأن يوضح لى أن هذا الذى أشكو منه شائع فى كثير من الأوساط تحت أسماء مختلفة ، وذكرنى بعض الزملاء بالدعوات التى توجه لكبار الناس هنا وهناك

لزيارة بعض الأقطار وإلقاء محاضرة أو اثنتين هناك ، والتكريم الواسع والمكافآت الباهظة التي تدفع لهؤلاء ، ويحدث في إثر ذلك تسهيلات لأبناء هذه البلدان أو تيسيرات مختلفة مما يوحى بأن المحاضرات الميمونة لم تكن كل شيء ، وقد أحس بعض كبار الزائرين بما تحمله هذه الهدايا من معانٍ فرغضوا تسلمها ووجهوها للدولة ولم يأخذوها لأنفسهم .

تلك صيحة اكتفيت فيها بالحديث عن نفسى وعن تجاربى دون أى تلميح أو تصريح بغيرى ، وأرجو أن يقطع دابر هذا الوباء ، وألا يخدعنا أى اسم يحمله ، فقد قُدمت هدية لعمر بن عبد العزيز ، فرغض قبولها ، فقال له مقدمها : إن الرسول قد قبل الهدية . فأجاب عمر : هي لرسول الله هدية وهي لنا رشوة . أى أن الرسول معصوم عن الانحراف عن الحق بسبب الهدية ، فالهدية ستظل هدية بالنسبة له ، ولكننا غير معصومين عن ذلك ، وستنقلب الهدية إلى رشوة معنا ، وذلك قول في منتهى الحكمة .

واعتقادی ان الرشوة بكل أسمائها ينبغي أن تعد جريمة كبرى يتجه القانون لبيان خطورتها . وللتحذير منها ، وينزل بمرتكبها أقصى عقاب .

مشكلة الكتب الجامعية من زوايا لا يعرفها الناس

الحديث عن الكتب الجامعية حديث قديم متجدد ، وقد أصبحت مشكلة الكتاب الجامعي مشكلة عويصة ، يمكن القول إنها استعصت على الحل إلى درجة كبيرة ، وكل الناس يذكرونها دون أن يستطيعوا أن يصفوا لها العلاج الشافي ، وسأحاول هنا أن أصور هذه المشكلة تصويراً حقيقياً . وأن أصف لها العلاج ، فأنا — كأستاذ وكزميل لأساتذة ومدرسين عديدين — أعرف عنها الكثير ، وأستطيع تشخيصها بدقة ، والتشخيص الدقيق يقود غالباً إلى العلاج الصحيح .

ولنبداً بسؤال جريء هو : هل كل أعضاء هيئة التدريس بالجامعات عندهم موهبة التأليف ؟

والإجابة الصريحة الجريئة هي بالنفي دون شك ، فالمدرس شيء ، والمؤلف شيء آخر ، وقد يكون المدرس مؤلفاً ، وقد لا يكون . والجيل الذي سبقنا من الأساتذة ، عبّرُوا حياتهم العلمية مدرسين بالجامعة وأساتذة ، وكانوا موفقين في وقفاتهم بالمدرجات وقاعات المحاضرات . ولكن الكثيرين منهم لم يدوّنوا شيئاً ، أو كتبوا كتابات قليلة ، وأسماء هؤلاء معروفة بوضوح في المحيط الجامعي .

وفي الخارج يُمضى الأستاذ عمره كله يحقق فكرة أو يبيّن بحثاً ، فلاهتمام متّجه" للكيف ، وإذا استعرضنا الأساتذة الذين درسنا عليهم في الخارج نجدهم جميعاً من هذا الطراز مثل برفسور لويس ودكتور ريس وبرفسور أربري .

وكثيرون من شيوخ الأزهر عبروا القرون وعاشوا يعلمون ما كتبه السابقون ، وقلّة من أمسك منهم بقلمه ليكتب كتاباً أو مجموعة من الكتب .

وفي ضوء هذا الوضع لم تكن هناك مشكلة للكتاب الجامعي ، لا من حيث تأليفه وجودته ، ولا من حيث بيعه وتوزيعه •

وعندما بدأ التأليف في الجيل السابق اتجه المؤلفون إلى الفكر العام ، وكان هدفهم خدمة العلم ، ولم يكونوا يكتبون — في الغالب — للطلاب ، وإنما للمكتبة العربية وللمثقفين على العموم ، وتحت هذا الشعار ظهرت مؤلفات أحمد أمين وطه حسين وأحمد الشايب ، وكان الإقبال عليها من خارج الجامعة أكثر من الإقبال عليها من الجامعة ، وبخاصة أن بعض كتاب ذلك الجيل لم يكونوا من أساتذة الجامعات مثل عباس العقاد والمازني وهيكل وتوفيق الحكيم وسواهم ، وأقبل الناس عليهم إقبالا كبيرا •

وتطورت الأمور في الجامعة وأصبح التأليف ونشر المؤلفات أساساً للترقية ، ودخل عالم التأليف فئات من المدرسين والأساتذة المساعدين والأساتذة راضين أو كارهين ، ولا شك أن هناك كتباً رائعة وأبحاثاً ممتازة أخرجها الزملاء هنا وهناك ، غمّلت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ، واستحق مؤلفوها التقدير والإعجاب ، ولكن بجانب هذه المؤلفات ظهر إنتاج فيج " كتيب " فقط لتحقيق الترقية ، وهنا أقف وقفة لأذكر بصدق بعض مظاهر هذا اللون من التأليف ليعرف المسئولون والقراء أصل مشكلة الكتاب الجامعي •

مرّة بنا مرة ونحن جلوس زميل من الزملاء ، ورأينا يتجه للمكتبة بحماسة ، فنأديناه ليجلس معنا ، فأجاب : آسف ، إني ذاهب لأؤلف كتاباً لأن موعد الترقية قد أوشك أن يجيء • وهكذا اتجه هذا الزميل ليؤلف كتاباً بالضبط كما يذهب الإنسان إلى مطعم ليتناول الغذاء أو إلى النادي ليستريح •

ولابد أن نتخيل مدى مالهذا الكتاب من جودة إذ ألّف في مثل هذه الظروف •

هل هذا النوع من التأليف قليل ؟ ويمثل أصحابه قلة بين أعضاء هيئة التدريس ؟

الإجابة بالنفي ، وحسبك أن تعود إلى إحصائية لتدرك فيها أن أكثر ما يخرج أعضاء هيئة التدريس يظهر قبيل الترقية بفترة وجيزة ، بل يقدم بعضهم أجزاء من الكتاب قبل أن يتم طبع الكتاب ، أو يقدمه مجزءاً (ملازم) قبل أن يتم تجليده •

وفي ظروف كثيرة تحين فرصة أو فرص للترقية في وقت غير متوقع ، كالتى تحين عند كتابة هذه السطور (يوليو سنة ١٩٧٢) إذ جعلت مدة خمس سنوات كافية للأستاذ المساعد ليقدم إنتاجه ليصبح أستاذاً ، وكانت المدة قبل ذلك سبع سنوات ، فقد اتجه الأساتذة المساعدون الذين أمضوا الفترة اللازمة ليؤلفوا بعض الكتب حتى يتقدموا مطالبين بالترقية ، واتجهنا نحن إلى حثهم لإعداد أنفسهم لهذه الفرصة ، ولولا هذه الفرصة لتوانوا وتمهلوا في التأليف •

وعندما يصل عضو هيئة التدريس إلى نهاية السلم أى إلى الأستاذية نجده يستريح من هذا التأليف أو التكليف ، وقل أن ينتج شيئاً بعد ذلك • وأعود فأكرر ما سبق أن أشرت إليه من أن موهبة التأليف موجودة عند كثيرين من الأساتذة ، وأن هؤلاء يؤلفون خدمة للحركة العلمية واستجابة لدافع داخلي علمي ، ولكن حديثنا هنا عن التأليف الذى يكتب للترقية أساساً ، وما أكثر هذا النوع •

وعلى هذا فالجامعة لا تكتفى من المدرس بالتدريس وإنما تطالبه بالتأليف ، وعلى المدرس أن يؤلف طائعاً أو كارها •

ثم تبدأ خطوة أخرى بعد التأليف هي خطوة النشر ، فمن الذى سينشر هذا الكتاب وينفق على إخراجه ؟ ولنتذكر أن متوسط تكاليف نشر الكتاب هي تقريبا ألفان من الجنيهات ثمنا للورق والأكليشيات وأجرة الطباعة • من الذى سيدفع هذا المبلغ ؟

الحقيقة الواضحة هي أن المؤلف أو مدرس الجامعة يواجه من الناشر سؤالاً روتينياً هو : هل هذا الكتاب مقرر ؟

فإذا كان الكتاب مقرأ قبله الناشر دون تردد ، والمتزم المؤلف بتدريس مادته وتقريره على الطلاب •

وإذا لم يكن الكتاب مقرأ فلا سبيل لنشره ، أو أن السبيل لنشره خستيل للغاية وبخاصة للمدرسين الذين لا يزالون في أولى درجات السلم ولم تشتهر أسماءهم بعد •

حتى المؤسسات العامة التي يمكن اعتبارها حكومية مثل دار المعارف تسأل هذا السؤال ، فإذا كان الكتاب مقرأ عرف طريقه للمطبعة دون توان ، وإن لم يكن مقرأ فأحسن ما يواجه به الكتاب هو الإحالة إلى لجان الفحص وقد يترفض دون إحالة إليها ، ولجان الفحص قد ترفضه وقد توصي بطبعه فإذا أوصت لجان الفحص بنشره فإنه يأخذ دوره بين مطبوعات الدار ولا يدري أحد متى يجيء هذا الدور •

والكتاب المقرر يكوّن أحياناً مأساة ، فقد يكون ضحلاً ، وقد يكون في موضوع غير مهم ، ولكن التدريس يخضع له فلا يصبح المنهج هو أساس التدريس ، وإنما يصبح الكتاب هو الأساس •

ولست أستطيع أن أذكر نماذج من هذه الكتب ، وفي ذهني منها عشرات النماذج ، لأن كتابي هذا لم يكتب ليشتهر بأحد وإنما ليسهم في إصلاح الأحوال •

وفي كثير من الحالات يخسر المؤلف مبلغاً مالياً إن نشر الكتاب على نفقته وذلك حيث تكون الأقسام قليلة الطلاب كقسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب ، حيث يمكن عدد الطلاب على أصابع اليدين ، وحيث يقل العدد ببعض الكليات ، فقد كانت كلية دار العلوم خلال سنوات كثيرة ، قليلة العدد مما لا يساعد على توزيع الكتاب توزيعاً معقولاً •

وعلى هذا فمشكلة الكتب الجامعية لا تمس الطلاب فقط ، ولكنها مشكلة يعاني منها الفكر ، ويعاني منها الأساتذة ، فالفكر الرفيع يعاني من غيظ التأليف الذي يصنع من أجل الترقية لا من أجل خدمة العلم ،

وهو لذلك لا يجد وسيلة للانتشار إلا عن طريق الطلاب الذين يرتبط نجاحهم بمطالعة هذا الكتاب .

والمدرس بالجامعة ضحية أيضاً من ضحايا الكتاب الجامعى ، ضحية وهو يعانى من أجل التأليف لغرض الترقية ، وضحية وهو يلتزم بتوزيع هذا الكتاب تبعاً لوعده ضرورى قدمه للناس ، وضحية وهو يقف أمام لجان الضرائب تحاسبه بعنف وتطلب منه نسبة كبيرة مما ترى أنه حصل عليه من ربح فى بيع الكتب ، وهنا يتساءل المؤلفون ، وبعضهم يكتب فى الذمّة ، وبعضهم يكتب فى الطب ، وبعضهم يكتب فى السياسة والآداب والأديان والتاريخ والحضارة ، هؤلاء جميعاً يتساءلون : لماذا يعفى مؤلفو الأغاني ومؤلفو الأفلام والتمثيليةات من دفع الضرائب على ربع صافي أرباحهم وما أكثر هذه الأرباح ؟ ولا يعفى من ذلك المؤلفون فى العلوم والآداب والاجتماع ؟ ألا تقف الذمّة والفكر السياسى والعلمى أو ما مائل ذلك موقف المساواة مع الأغنية والفيلم والتمثيلية (١) ؟

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى هى أن القوانين الجامعية ترى التأليف معياراً يقاس به عضو هيئة التدريس ، وهذا يسلمنا إلى مجموعة من الأسئلة هى :

- ١ — هل حقيقة يدل التأليف على مكانة المعلم العلمية ؟
- ٢ — وهل حقيقة لا يرقى إلى الدرجة الأعلى إلا من أسهم بأبحاث وكتب منشورة فى خدمة العلوم والمعارف ؟
- ٣ — وهل فحص الإنتاج يتم بطريقة دقيقة فينال كل ذى حق حقه ؟

فى الإجابة عن السؤال الأول نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن جودة التأليف لا تدل على براعة المؤلف كمعلم ، فكثيرون من المؤلفين يضيّقون بالوقفة فى المدرج ، وقد يعجزون عن السيطرة على جماهير الطلاب ، أو تكون أصواتهم غير قوية وكذلك كفاءة المعلم لا تستلزم

(١) كان هذا التصرف المشين فى عهد عبد الناصر ، وقد صححت هذه الأحوال بعده .

مهارة في التأليف ، فقد يكون المعلم قادراً على فهم الفكرة من مراجعها وقادراً على نقلها إلى الطلاب ، ولا يستلزم هذا ملكة اقتراح مشكلة لم تكتب من قبل ، وإعداد مراجع لها ، ووضع خطة لبحثها إلى غير ذلك مما يتطلبه التأليف ، ولعل حاجة الجامعة إلى مدرس أشد من حاجتها إلى مؤلفين ، أو قل بوجه الدقة إن الجامعة إذا احتاجت إلى مائة مدرس مثلاً فإنه يكفيها عشرة من المؤلفين .

وفي الإجابة عن السؤال الثاني أقول في إصرار إن الإجابة بالنفي ، وإن الناس جميعاً يرقون ، وأننا نغير في التقرير لنجعله صالحاً كجواز مرور للدرجة الأعلى ، وأن أقصى ما تستطيع اللجان عمله هو التسويف قليلاً ، أو طلب مزيد من الأبحاث أو تأجيل سنة ، ثم تكون الترقية ، ولو لم يخسف شيء ذو بال إلى ما قدمه عضو هيئة التدريس من قبل ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول أن يقبل شخص ما عضواً في هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه ، ثم يركن على الرف ، ويسبقه من كانوا بعده ، ليس هذا معقولا ولا واقعاً ، فواقع الجامعة يقرر أن الصف يمشى كطابور الجند ، ولو أصبح اللاحق سابقاً لحصل صراع ما أجدرنا أن نتحاشاه .

اللجان الدائمة للترقية :

وفي الإجابة عن السؤال الثالث تجدنا وجهاً لوجه أمام لجان الترقية وبخاصة ما يسمى اللجان الدائمة ، والحديث عن هذه اللجان طويل ومريع ، وقد تعرضت الصحف لها بكثير من النقد ، وأحصت عليها صوراً عجيبة من الانحراف ، وسأنقل هنا مذكرته جريدة الأخبار يوم ١١ من إبريل سنة ١٩٧٣ عن إحدى هذه اللجان ، يقول المحرر الأستاذ محمود عارف :

« شهدت قاعة لطفى السيد بجامعة القاهرة حدثاً لا يتكرر كثيراً . . . فقد أصدر مجلس الجامعة برئاسة الدكتور حسن إسماعيل رئيس الجامعة قراراً بإجماع الأصوات بترقية اثنين إلى وظيفة أستاذ مادة الكيمياء ، وهما الدكتوران : انجيل حبيب وجمال مصطفى بكلية الطب وترقية الدكتور

سُعد الزنفلى إلى وظيفة أستاذ بكلية الصيدلة ، وذلك على خلاف ما قررتة
اللجنة العلمية .

« ولقد جاء إجماع مجلس الجامعة بأحقية الثلاثة فى الترقية بعد أن
تبين المجلس أن هذه اللجنة وقعت فى تناقض خطير مع نفسها . فهى توافق
على ترقية البعض وترفض الآخرين رغم أن أبحاث الفريقين واحدة . .
ونظرت أبحاثهم التى تقدموا بها للترقية فى فترات ليس بينها فاصل
زمنى كبير . . فقد عقدت اللجنة اجتماعاً فى يناير والثانى فى مارس من
العام الحالى .

« إن الأصل فى اللجنة العلمية أيا كان تخصصها إنها أعلى سادسة
علمية ؛ كلمتها هى القانون وأعضاؤها قضاة يحكمون بين الناس بالعدل .
لا تستهويهم الأهواء ولا تغريهم المنافع المتبادلة .

« ولكن ما حدث أمر يؤسف له ، لأن الأستاذية تسمو على الأحقاد .
وتعفى عن ارتكاب صغائر الأمور ، فهى رائدة تضيف ولا تهدم ، تشرى
الحياة الجامعية بالعلم النافع والخلق القويم . . ولا يكفى أن يرفض مجلس
الجامعة قرارات هذه اللجنة ، بل ينبغى أن يكون هناك الثواب والعقاب .
هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن المجلس الأعلى للجامعات يبحث إعادة
تشكيل اللجان العلمية فى جميع التخصصات ، فهل لنا أن نطلب إعداد
صيغة قسم يؤديه أعضاء اللجان الجدد أمام رئيس المجلس الأعلى
للجامعات قبل توليهم مسئولية هذا العمل الخطير . وهذا أمر ليس
بجديد ، فهو نظام معمول به فى النيابة والهيئات القضائية » .

وكلمة الأستاذ محمود عارف قوية وصريحة لا تحتاج لمزيد من البيان ،
ولكنها تفتح لى الباب لتقديم دراسة تحليلية دقيقة عن أسباب هذه
« المزالق » التى تعرضت لها هذه اللجان .

وكلمة مزالى هذه مقتبسة من حديث صحفى آخر نشره الدكتور

عبد المغنى خلف الله الأستاذ بجامعة القاهرة بجريدة الأخبار في ١٩٧٣/٤/٢٥ يتحدث فيه عن مزالق بعض اللجان ونقاط الضعف فيها .

ولا بد أن الدراسة التي أقدمها هنا ترتبط باللجنة الدائمة للتاريخ ، فمعرفتي بها أوسع وصلتني بها أعرق ، ولى معها تجربة تدعو للدهشة ، وأنا أشير لهذه التجربة وأنا أستاذ وقد وصلت إلى أرقى درجات السلم ، ولكنى أخاف على الأجيال القادمة أن يكون مصيرها في أيدي هذه اللجنة .

وعندما أتعرض للحديث عن اللجنة الدائمة للتاريخ أجد غيضاً من المعلومات التي لو درست لأمكن أن يتغير وجه هذه اللجنة ، والمعلومات عندي على كل حال ، وأنا مستعد للدلاء بها لو اتجهت العناية لتصحيح الأوضاع في هذه اللجنة ، وأكتفى هنا بالقليل من القول حتى لا ننشر على العالم أخطاء تردى فيها بعض من تلعب بهم الميول على نمط ما روته كلمة الأستاذ محمود عارف .

وخلاصة ما أذكره هنا هو :

- ١ — هناك تعصب واضح لمعهد ضد معهد في هذه اللجنة .
- ٢ — هنا أريد أن أقول إن اللجنة إما أن نصفها بأنها لا تقرأ الإنتاج الذي يتقدم لها أو أنها لا تفهم ما تقرأ ، فليختر أعضاء هذه اللجنة أى الطريقتين أيسر لهم ، وعندى الأدلة واضحة ومحددة على هذا القول .
- ٣ — في حالات معينة استبعدت اللجنة ترجمات قام بها المؤلف من اللغة العربية إلى لغات أجنبية ، بحجة أن الأصل العربى قدم لترقية سابقة ، ونسيت اللجنة أو تناست ، أن النقل إلى اللغة الأجنبية عمل قائم بذاته ، فالترجمة من اللغات الأجنبية أو إليها عمل علمى يحسب للمؤلف أو المترجم .
- ٤ — في حالات معينة استبعدت اللجنة طبعات جديدة بها زيادات مهمة بحجة أن الكتاب قد قدم لترقية سابقة على الرغم من تنبيهها إلى التطور الكبير في الدراسة في الطبعات الجديدة التي حدثت بعد الترقية السابقة .

وأساس العناية الذى ترزح هذه اللجنة تحته هو انتقال الأمر من الرعيل السابق إلى الجيل الجديد ، فيوم أن كان أساتذتنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة والمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة وأمثالهم يحكمون علينا كانت النزاهة طابع الحكم ، ولكن الأمر قد تغير يوم ضمت اللجنة زميلاً سبق إلى الأستاذية فُضِّمَ إلى اللجنة وأصبح يحكم على زميل له تأخر عنه عاماً أو عامين • وربما كان هذا أقدم منه تخرجاً أو أكبر منه سناً ، وفى هذا الجو ظهرت المنافسة بل الأحقاد •

ويندهش القارئ عندما يرى هذه اللجنة تجيز من لم تعرف المكتبة العربية له مؤلفاً واحداً ، وتعرقل أو تحاول أن تعرقل من شهدت لهم كل الأوساط العلمية فى الداخل والخارج بالكفاءة ، ومن أثروا المكتبة بمؤلفات عديدة ظهرت طبعات متعددة منها •

وكلمة أخيرة عن هذه اللجان فإن عضويتها خالدة تقريباً ، ومعنى ذلك أن العضو فيها يتحكم فى الطابور الذى يقف خلفه لأنه لابد لهذا الطابور أن يمر عليه ، وليس هذا التحكم ظناً بل هو واقع تؤيده شواهد محددة • وفى كلمة أخيرة أقترح أن يوقف نشاط هذه اللجان ، وأن تتوَلَّف لجان خاصة لكل حالة ، لعلنا نقضى على هذا السيف المصلت على جماشير المثقفين •

عودة لمشكلة الكتاب الجامعى :

ولنعد لمشكلة الكتاب الجامعى لنقرر أن التأليف للترقية حَرَمَ المجتمع الجامعى من التأليف الهادىء الهادف المتمهل الذى لا يرمى إلا لخير الناس وخدمة العلم •

وفى ظل هذا التأليف المرتبط بالترقيات اختفى التأليف الجماعى أو قل ، وعن طريق التأليف الجماعى كان يمكن أن تزود المكتبة العربية

بطلاقاتٍ يكمل بعضها بعضاً ليكون العمل في مجموعِهِ ذخيرة علمية مفيدة ، فلو أن أساتذة التاريخ عَنُوا بكتابة التاريخ واتجه كل منهم لكتابة حقبة تخصصه ، لتكون من العمل الجماعي موسوعة ضرورية دقيقة في أقصر وقت ممكن ، ولو فعل ذلك أساتذة الفلسفة والقانون وغيرها من العلوم لعاد ذلك بالخير على المكتبة العربية وعلى المثقف العربى ولكن ذلك لا يتم في ضوء الوضع الحالى ، لأن التوقيت الزمنى لا يوافق الجميع ، ولأن الاهتمامات مشتتة ، والعمل الفردى هو هدف الترقية الفردية ••

اقتراحات لحل مشكلة الكتاب الجامعى :

لقد وعدنا في مطلع هذه الدراسة أن نصف العلاج لهذه المشكلة ، فماذا عندنا لها من علاج ؟

والإجابة جريئة نسجلها في النقاط التالية :

أولاً : ينبغى أن نتذكر تماماً أن التأليف الحالى — بشكل عام — لم يخدم الفكر ، ولا يدل على نبوغ المدرس ، وإسهامه في خدمة الثقافة محدودة للغاية ، فينبغى أن يتوقف الالتزام به ليصبح التأليف بدافع الرغبة لا بدافع الترقية ، وهو بهذا سيقبل قلة ظاهرة ، وبالتالي سيزول عبء التكليف بشراء هذه الكتب •

ثانياً : كل الناس في مختلف الأعمال يرقون لمناصب دون تأليف بل بإجادة العمل الذى يوكل لبعضهم ، وإذا كان لابد من أبحاث علمية فينبغى أن تكتفى الجامعة بتقديم هذه الأبحاث مخطوطة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة ، وتقوم الجامعة بنشر ماتراه ممتازاً منها ، وهذا أيضاً سيزيل الكثير من الكتب التى تخلق مشكلة الكتاب الجامعى •

ثالثاً : تهتم الدولة اهتماماً جريئاً وواضحاً بحل مشكلة مرتبات أعضاء هيئة التدريس ليُنَحَّى الكتاب تماماً من أن يكون مصدر رزق ، وسنتكلم بعد قليل عن الشكوى المالية لأعضاء هيئة التدريس •

رابعاً : يتوقف طبع المذكرات توقفاً تاماً ، فأكثرها للاستهلاك المحلي ولا يليق بالجامعة .

خامساً : وللمحافظة على المستوى العلمى للجامعة يوجه أكبر اهتمام لاختيار أعضاء هيئة التدريس من أول درجات السلم فلا ندع فرصة للتسلق والتسلل ، ويكون ذلك باختيار المعيدى من بين العشرة الأوائل لكل فرقة ، والتعرف على قدراتهم خلال عملهم بالدراسات العليا ويمكن الاستغناء عن أى واحد لا يثبت كفاءة ممتازة خلال هذه الدراسات ، وإذا دخل المعيد هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه ترك له التأليف ليكون منطقة حرة بالنسبة له ، ويرقى بعد مدة معينة إلى أستاذ مساعد ، ثم بعد مدة أخرى إلى أستاذ ، على أن يكون للتأليف ميزة خاصة يحصل عليها من يؤلف شيئاً ذا بال ، فقد يسمى مدرساً متخصصاً ، ويكون للتخصص علاوة مالية كذلك التى تخصص لرئيس القسم تشجيعاً على التأليف الراقى الذى لا يلجأ له إلا الموهوبون ، وتظل هذه العلاوة تصرف للتخصص مدة ثلاث سنوات مثلاً ثم تقطع إلا إذا قدم عملاً جديداً فيه إبداع وموهبة .

وبمناسبة الحديث عن تربية المعيدى ليصبحوا أعضاء بهيئة التدريس ، أقرر أن من الضرورى أن نلاحظ فى توجيههم مواهبهم الذاتية وما بهم من حس وذوق حتى يصبح مدرس الأدب أديباً ، ومدرس العروض شاعراً ومدرس البلاغة بليغاً فصيحاً ، فبعض الدراسات تحتاج مع الاطلاع والبحث إلى حس وذوق وموهبة خاصة .

سادساً : يقرر القسم المنهج الذى يدرس ، ويوصى بكتاب من اثنين أو من ثلاثة ليستعين به الطلاب ، سواء كان مؤلفو هذه الكتب ضمن هيئة التدريس أو خارجها ، ويتحتم على من يقوم بالتدريس أن يلم بالمنهج كله فى محاضراته ، ويحدد ثمن مناسب لكل ملزمة من الكتب المقررة وعدد مناسب من الم لازم لكل ساعة من ساعات الجدول ، ويمكن أن

يكون ذلك في حدود ثلاثة قروش للملزمة ، وعشرين ملزمة للساعة من ساعات المحاضرات النظرية ، وفي الدراسات العملية ينظم ما يقابل ذلك .

سابعاً : تسهم أطراف متعددة في تيسير الكتاب للطلاب بوجه عام وللفقراء منهم بوجه خاص ، وأقترح لذلك أن يسهم المؤلف بنسبة مئوية من الثمن تخصص للطلاب جميعاً باعتبار الكتاب يباع منه عدد كبير ، فكأنه يباع بأسعار الجملة ، وتكون هذه النسبة بين ٢٠ ٪ و ٢٥ ٪ وتسهم الكلية بمبلغ تشتري به نسخاً تعادل ٥ ٪ من عدد الطلاب ، ويمكن أن يسهم صندوق الطلبة والحكومة أو الحكم المحلي بمبالغ مماثلة ، وتعار هذه الكتب للطلاب الفقراء بطريق المشرف الاجتماعي الذي يعرف هؤلاء الطلاب والطلالبات .

ثامناً : يتم الاتفاق مع المؤلفين على عدم إجراء تغيير ذي بالٍ عند إعادة الطبع إلا كل سنتين ، بحيث يمكن الانتفاع بالنسخ المعارة لدفعتين من الطلاب ، مع ملاحظة أن استعمال هذه الكتب مدة عامين سيقضى عليها تقريباً ، فلا بأس من تجديد الطبع مع الزيادات وتجديد الشراء على هذا النسق .

ولعلنا بذلك نكون قد وصفنا الحل الصحيح لمشكلة الكتاب الجامعي ، وأوقفنا سيل الكتب التي ليست إلا معبراً للترقية ، وهو معبر يخلق مشكلات جمة في نواح متعددة . والله الموفق .

استاذ الجامعة وشكواه المالية

الحديث عن شكوى أساتذة الجامعات من قلة مرتباتهم حديث مشهور .
ولكن ما جذور هذه القضية ؟ وما مدى العناية الذى يقاسيه هؤلاء ؟

أريد هنا أن أعرض هذه القضية بدقة ، فهى فى الحق ليست قضية الأساتذة وإنما هى قضية رأى العام ، قضية عشرات الآلاف من البيوت التى تتطلع لتلحق أبناءها كل عام بالجامعات ، ولكنها قلما فكرت فى الأساتذة الذين سيتلقون أبناءهم هناك ، وهذا فى الحق يسجل عتبا على رأى العام ، ونقدأ لتفكيره ، فكيف تحرص الأسرة بمختلف الوسائل لينال ابنها درجات عالية فى الثانوية العامة حتى يلتحق بالجامعة . ولا تفكر إطلاقاً فى الجامعة التى ستتلقى هذا الابن ؟

هل الجامعة بناء شامخ يضم الأولاد ولا شئ بعد ذلك ؟

إن المربين يقولون إن الجامعة أستاذ وطالب ومنتبة ومعمل . وليس البناء الشامخ وقاعات المحاضرات إلا تحسينات أضافها التقدم المادى . وكان سقراط يعلم مريديه تحت ظلال الأشجار ، وكانت مساجد المسلمين تجذب العلماء والطلاب ، وطالما أخرجت للعالم خيرة العقول فى مختلف العلوم .

ويحدثنا التاريخ أن خلفاء المسلمين كانوا يضيفون الهبات والمرتبات على المعلمين بشكل وصل أحيانا إلى حد الخيال ، فقد كان المأمون فى بيت الحكمة يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص . فالذى يترجم كتاباً يأخذ ثقله ذهباً ، ولم تكن الكتب تكتب على أوراق ، وإنما على سعف النخل والقماش وأحيانا على قطع من الحجارة ، وهذا يدلنا على الأجر الضخم الذى كان يناله المترجمون والمفكرون ، ويحكون من الجاحظ أنه دخل البصرة مرة ، ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة . فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ هتبسم الجاحظ وقال :

أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأنصرفت عن البصرة وكأن لى فيها ضيعة لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد (١) .

ومعلم الجامعة ليس ككل المعلمين ، لأنه يعطى من عقله ، ويعرض قبله ، ويشكل المادة من جديد ، فهو لا يعلم كتاباً وضع له ، ولكنه يتحرك داخل المادة بفكره ، ويقترح ، ويضيف ، ويبتكر ، وهو يعيش مع الأبناء في مرحلة خطيرة ستبقى آثارها في نفوسهم بعد التخرج ، وهو يتلقاهم وثقافتهم عامة فيمنحهم التخصص الذى سيظل معهم طيلة العمر ، فدوره في تكوين الشباب خطير ، وحقه على الدولة عظيم .

وللأسف لم يتجه رأى العام للتفكير في حياة الأساتذة والمدرسين في الجامعات ، مع حرص الرأى العام أن يلقي بأبنائه في أحضان هذه الجامعات ، وتصوّر معى أن جامعات العالم — وهى في أشد الحاجة إلى الأساتذة — جذبت علماءنا ومفكرينا وأغرتهم بالمال الوفير والراحة الجمّة فأخذتهم إليها ، فإلى من ستلقى الأسر بأبنائها ؟

بل هناك ما هو أشق من ذلك ، فقد اتجهت الحكومة إلى إصلاح مرتبات الأساتذة ، وصرّح رئيس الحكومة أن مرتبات الأساتذة تختلف عن سواها من المرتبات ، فقد بقى « كادر » الجامعة حيث وضع من أمد بعيد ، وتطور « الكادر » العام ، وكان لابد من أن تمتد يد الإصلاح إلى مرتبات أساتذة الجامعات ، واقترح رئيس الحكومة إصلاحات مرضية إلى حد ما ، ولكن للأسف وجِد من الآباء من يعترض على هذا الاتجاه الإصلاحى في اجتماع المؤتمر القومى (يوليو سنة ١٩٧٢) وحاول بعضهم غمز هذه المحاولة أو عرقلتها .

(١) معجم الآباء ج ٦ ص ٧٠ — ٧٦ .

وبعد هذا العتب الذى نوجهه للرأى العام نعود للمسألة لنتدارسها ،
ولنعرضها بدقة على الرأى العام ، ليعرف عنها ما لا يعرف .

من هم أساتذة الجامعة ؟

المدرس بالجامعة له تاريخ طويل قبل أن يصل إلى هذا المنصب ؛ إنه
ذلك الذى كان صبيّاً يكدح ، ويعمل أكثر من سواء من التلاميذ ، وكان
يحرص على كل حصة وعلى كل درجة ، وكان بالتأكيد من أوائل الناجحين
وكثيراً ما كان أولهم ، وخاض مراحل التعليم على هذا النمط ، وفى اليبساس
أو البكالوريوس كان أول الناجحين أو من أوائلهم المعدودين .

ولهؤلاء الأوائل طموحهم وحقوقهم ، إنهم من الخامات الطيبة التى
تعتر بها الأمم ، وتتلقى الجامعة هؤلاء الممتازين لتبدأ معهم شوطاً جديداً
من البحث والدراسة ، فإذا كان المتخرجون الآخرون قد أخذوا يجنون
بالليسانس أو البكالوريوس نتائج نجاحهم ، فإن الأوائل الذين أخذوا
معيدين بالجامعة راحوا من جديد يكدحون ويذاكرون ويعيشون فى المكتبات
والمعامل عدة سنوات تحت ضنك شديد ليحصلوا على درجة الدكتوراه ،
وأكثرهم يترسكون إلى الخارج فى بعثات ليحصلوا على الدرجات العليا
منها ، وهناك فى الخارج تصرف لهم مرتبات تتناسب مع البلاد التى يتعلمون
بها ، وقد كنت طالباً بجامعة كمبردج بانجلترا ، وكانت تصرف لنا مرتبات
سخية ، وكان هناك كذلك مرتب خاص للملابس يُصرف لنا مرتين فى العام ،
ومبلغ يصرف كل عام لشراء الكتب والمراجع ، وكان متوسط ذلك حوالى
مائة جنيه استرلينى شهرياً ، وهو كما قلت مرتب سخى بالنسبة لنا ، هذا
بالإضافة إلى الرحلات العلمية الداخلية والخارجية التى تتحمل الدولة
تكاليفها .

وهناك عيون مفتوحة تتطلع لطلاب الدراسات العليا بالخارج ، وهناك
إغراءات واسعة تُعرض عليهم ليعملوا بالخارج عقب تخرجهم ، وكثيراً
ما نجحت هذه الإغراءات فبقى أعضاء البعثات بالخارج ولم يعودوا إلى

مصر عقب حصولهم على الدكتوراه ، والذي دفعهم إلى ذلك ليس فقط ما تعرضوا له من إغراء مادي وأدبي ، بل ما كانوا يعرفون أنه سيكون مآلهم عندما يعودون إلى مصر ، فقد كانوا يعرفون أن الثلاثين جنيهاً أو الأربعين في انتظارهم ، وأن نصفها يدفع إيجار مسكن ولا يتسع النصف الباقي لتكاليف المواصلات والملابس ، أما المراجع والدواء والطعام فلا يبقى له في الميزانية نصيب .

ومع هذا فالكثيرون منهم يعودون حباً في الوطن ووفاء له ، ورغبة في خدمة الأجيال التالية ، وأملًا في تحسن الأحوال ، ولكن الحقيقة المرة طالما صدمت بعضهم لفقد توازنه عندما فقدت الميزانية توازنها ، وكثيرون منهم لم يستطيعون الزواج ، والمتزوجون لم يستطيعوا أن يرعوا زوجان وأبناءهم ، وبخاصة أن هؤلاء الأولاد بعضهم ولد ونشأ في أوروبا وأمريكا وذاقوا — لا أقول الترف — ولكن طعم الكفاية ، فلم يكن من السهل أن يعيشوا في الحرمان . وأرجو أن يقنع القارئ بأن الدكتور المدرس في الجامعة يقتضيه هذا المركز أن يسكن سكناً ملائماً ، وأن يلبس ويطعم هو وأولاده في مستوى لائق ، وأن يكون في ميزانيته نصيب للمراجع والدوريات وبعض الأجهزة التي لا تقوم حياته العلمية بدونها ، والتي يثبترى أكثرها من الخارج ، وبما يسمى العملة الصعبة ، فإذا لم نحقق لأستاذ الجامعة هذه الضروريات فإنه لن يؤدي عمله كما ينبغي .

وقبل أن أسترسل أقف وقفة قصيرة تصّور من الواقع مصير نماذج من الزملاء ، حاولوا أن يعملوا بمصر ولكن قهرتهم الأحداث .

كان لنا زميلٌ عاد من أرض الشمال ، وكان قبل عودته يسكن مع أسرة عميدها يشتغل « قبطان » إحدى البواخر التجارية ، وفي مصر بدأ الزميل يتقاضى الثلاثين جنيهاً ، وحاول أن يجد مسكناً فسمع عن المئات أو الآلاف التي تدفع مقدماً أو ... وراح يسكن في فندق فلم يكف مرتبه أجراً للفندق ، وعاش في دوامة هائلة ، وفي يوم تلقى خطاباً من عميد الأسرة

التي كان يسكن عندها يقول له إن باخترته ستمر ببورسعيد في يوم هذا .
ويطلب الرجل مقابلته للاطمئنان عليه .

وشدّ الزميل رحاله إلى بورسعيد للقاء الرجل ، وعلى ظهر الباخرة
سأله الرجل عن أحواله ، فوصفها الزميل إليه . وذكر له ما يعانيه في
حياته التي لا يبدو أنها ستصل إلى الاستقرار ، قال له الرجل : وماذا
يرغمك على هذا العناء ؟ قال الزميل : وكيف الخلاص منه ؟ وحينئذٍ تلقى
الزميل إجابة غيرت مجرى حياته ؛ فقد قال له الرجل : ابق حيث أنت
على ظهر الباخرة ، وعد إلى رخاء العيش الذي ألفتته بالشمال . والتقطت
أرض الشمال هذا الزميل كنزاً من الفكر والأمل نظير مطالب الحياة
العادية .

وعندما كنتُ طالباً بجامعة "مبردج" ، إن معي زميل اسمه سعد
وهو أيضاً من أبناء المعادي وكان تخصصه بعيداً عن تخصصي ، كنت أدرس
في مجال الدراسات الإسلامية ، وكان يتخصص في النبات ، وبعد أن حصل
كل منا على درجة الدكتوراه سافر هو إلى أمريكا ليعمل هناك ، وعدت أنا
للقاهرة وللثلاثين جنيهاً ، أو بالخبط (سبعة وعشرين لا غير) وحدث أن
عرّضتُ عليه إحدى الكليات الأمريكية أن يعلم بها اللغة العربية .
على أن تدفع له مرتباً ضخماً يزيد عن المرتب الذي يتقاضاه كمختص
في النبات والتربة ، ولكنه اعتذر ، وقال : لست متخصصاً في اللغة العربية .
فتلقى عاصفة من الضحك ، وقيل له : ألا تستطيع أن تقرأ الصحف العربية
بلهجة عربية أصيلة ؟ ولما أجاب بالإيجاب . قالوا له : هذا نل ما يعزينا .
ومع هذا فقد آثر زميلنا أن يبقى حيث يقضى تخصصه ، ولم يكن في حاجة
إلى المال الزائد ليغريه بالتحول إلى مدرس لغة عربية ، وقال للمسؤولين :
إنني أستطيع أن أكتب لزميل متخصص في اللغة العربية ، والدراسات
الإسلامية ليحضر لكم ، وذكر اسمي لهم ، فرحبوا بي ، وقالوا في هذه
الحالة يصبح المرتب أكبر وأكبر .

وكتب لي صديقي سعد بذلك وذكر الرقم الذي يُسجل للعب ، ونحن

جذورى كانت قد تعمقت بمصر ، وكنت أجد فيها كفايتى غلم أوثر هراقها •
وعدد كبير من الزملاء سافروا فى صيف من الأصياف للخارج ، ومن
هناك أرسلوا استقالاتهم للجامعات واستقروا فى أعمال تدبر عليهم ربخاً
وغيراً ، وفرشوا بذلك من ضنك العيش الذى لاقثوه بمصر •

ولست أحب أن أسترسل فى ذكر هذه النماذج ، فهى أشهر من أن
نطيل عندها الوقوف •

على أن أساتذة الجامعات عندنا لديهم فرص لا تتوافر لسواهم ،
فالجامعات العربية كلها تقريباً تتطلع إليهم ، وطلبات الإعارة كثيرة للغاية ،
ونقتضينا مسئولياتنا العربية والعلمية أن نحقق لهذه الجامعات حاجتها
ما استطعنا ، لنبنى معها مستقبل أمتنا العربية ، والإعارة — كما أشرنا من
قبل — انتقل بمرتب المدرس أو الأستاذ إلى حوالى عشرة أمثاله بالقاهرة
مع كثير من التسهيلات فى نواح مختلفة ، وعندما يعود المدرس من
الإعارة تواجهه من جديد نفس الصدمة التى واجهته وهو عائد من البعثة •

كلمة مهمة نعترض بها حديثنا عن أساتذة الجامعات المصرية بمناسبة
الإعارات لنتكلم عن قدرنا كدولة تنتج الرجال وتعددهم ثرواتها إذا
أنتجت الدول الأخرى مختلف الصناعات أو المعادن ، فقد حققت مصر
استقلالها كله أو أكثره عن تركيا من مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأت
المدارس فالجامعات والمعاهد ، وخطت فى سبيل التقدم والمعارف خطوات
واسعة ، وعندما حصلت الدول العربية الأخرى على الاستقلال لم تجد
غير مصر ملجأ لها لتستعير منها المعلمين والمفكرين ليسهموا مع إخوانهم
العرب فى بناء دولهم وحضارتهم ، وقام المصريون بهذا الدور بنشاط
ملحوظ فى مختلف البلاد ومختلف الميادين الفكرية • وهكذا كان لبلادنا
الشرف أن أنتجت الرجال الذين حملوا المسئولية العلمية فى البلاد العربية ،
بل حملوها إلى البلاد الإسلامية كذلك ، ثم تعدوا هذا النطاق إلى دول
أخرى فى أوروبا وأمريكا اعتمدت على أبناء مصر فى دراسات مختلفة ،
وبخاصة فى الدراسات العربية والإسلامية •

وهكذا ينبغي لنا أن نتذكر دائماً أن لدينا طاقات من الرجال يمكن أن نفيد بها ونستفيد ، ويتحتم أن نعنى بهذه الطاقات لتظل لنا وتنفع سوانا .
وآلا نهملها فنتركنا إلى وطن غير وطنها الذى نشأت فيه •

هذا وسيظل الأستاذ المصرى نموذجاً لا يباريه سواه فى نشاطه ومواهبه التى اعترف بها الجميع •

ولنعد لمرتب المدرس أو الأستاذ بالجامعات المصرية لنذكر أن بعض يعارون للجامعة الأمريكية فى قلب القاهرة ، وليس فى الإغارة للجامعة الأمريكية بالقاهرة اغتراب أو بعد عن الأهل والوطن ، ومع هذا فالمرتب يقفز قفزة واسعة فيصل أو يقرب من مرتب المعار للخارج ، مما يجعل المقارنة عسيرة بين الأستاذ بجامعة القاهرة ، وزميله الذى جذبت الجامعة الأمريكية بميدان التحرير •

ونقطة أخيرة نختم بها حديثنا هى : مامرتب الأستاذ العراقى فى جامعات العراق ؟ والأستاذ السورى فى جامعات سوريا ؟ والأستاذ السودانى فى جامعات السودان ؟

لقد عملنا مع هؤلاء فى بلادهم ، وكانت مرتباتنا كمعارين مغتربين قريبة جداً من مرتباتهم فى بلادهم ، حتى فى البلاد التى لم يتدفق فيها البترول كالسودان • ولا داعى لأن نذكر فى هذه المقارنة مرتبات الأساتذة الإنجليز والأمريكان لأن الخيال لا يلعب بعقولنا ، ولأن أهدافنا قومية وطنية أكثر منها مادية ، وكل ما نطلبه أن نحقق لأنفسنا وذوينا ضروريات الحياة بيسر لنتفرغ للمهمة الكبرى التى تتطلب لها عشرات الألوف من الأسر كل عام •

الدراسات العليا بالجامعة

الدراسات العليا تكوين جديد للإنسان الجامعي ، وهذا التكوين يتخذ وسائل جديدة غير تلك التي كانت تتبع مع الطلاب قبل الحصول على الليسانس أو البكالوريوس ، فالطلاب في فرق الليسانس و البكالوريوس يتلقى محاضرات تشرح له المناهج المختلفة ؛ وفي كثير من الأحوال تتجه للاتساع أكثر من اتجاهها للعمق ، ولكن الحال يختلف في الدراسات العليا ، فليس فيها محاضرات ، وإنما فيها إرشاد وتوجيه ، فالوجبة لم تعد تُقدّم للطالب ، وإنما عليه أن يُعِدّها هو بإرشاد أستاذه ، والفكرة لم تعد تُلقي له وإنما عليه أن يبحث عنها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر تتجه الدراسات العليا للعمق واقتراح المشكلات وحلها أكثر من اتجاهها للاتساع والتعميمات ، فمرحلة الاتساع والدراسة العامة يفرض أن الطالب قد انتهى منها في فرق الليسانس أو البكالوريوس .

ففى فرق الليسانس يقود الأستاذ السيارة وعليه كل مسئوليات الركب ، وفي الدراسات العليا يدرب الأستاذ مريده على القيادة وعلى التزاماتها بإشرافه وإرشاده حتى إذا نجح قادها بنفسه بدون مرشد .

تلك هي الدراسات العليا كما تعلمناها وكما أوضحناها في كتابي « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وهذا يجعل مهمة الدراسات العليا صعبة ويجعل الذين يستطيعون حمل أعبائها من الطلاب قليلين .

والدراسات العليا أساساً تتجه للمعيدين لتكوين الجيل الجديد الذي سيجمل عبء العمل في الجامعة بعد الجيل العامل ، وتوضع الوثائق والمكتبات والمعامل في خدمة هذا الهدف ويكون مع المعيين أفراد آخرون من الموهوبين الذين يحاولون الحصول على الدرجات العليا ليكونوا أقدر على حمل المسئوليات بالقطاعات المختلفة بالدولة ، فهم هدية الجامعات للمجتمعات ، ليحملوا لها أحدث ما أحرزه العلم من تقدم وكشف ، حتى يشير العمل في ضوء العلم ، فيتحقق بذلك ما يقوله الإمام الغزالي :

العلم بدون عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون •

وأساتذة الجامعات يبذلون جهداً ضخماً لا يعرفه الكثيرون ويشرّفون على طلاب الدراسات العليا ، فكثيراً ما يساعدونهم في اختيار موضوع البحث ، وموضوع البحث نواة لعمل يمكن أن يقوم به الأستاذ لنفسه وينسب له ، ولكنه يؤثر به تلميذه ومريده ، ثم يساعد في تخطيط البحث ورسم معالمه الكبرى ، ولا يدرك إلا العارفون مدى الفرق بين تخطيط وتخطيط ، وفي كلمة موجزة هناك تخطيط يجعل تنفيذ العمل عسيراً أو مستحيلاً وتخطيط آخر يجعل التنفيذ يسيراً وسهلاً ، ودور الأستاذ في التخطيط واسع إذ أن الطالب قليل الدربة في هذا المجال ، وليست له تجارب تساعد لوضع خطة حكيمة •

ويسير الأستاذ مع الطالب بعد ذلك يرشده إلى المراجع أو يمدّه بها ويمنحه كثيراً من فكره وآرائه لتبدو في النهاية منسوبة للطالب ، وكثير من الحق قطع من قلب الأستاذ ، وعندما يكتب الطالب أجزاء من رسالته يتناولها الأستاذ ليقراها ويراجعها ويرشد الطالب إلى التحقيق والتمحيص والزيادة والحذف ، ويضطر الأستاذ آنذاك يترك عمله هو ، وكتبه التي تنسب إليه لينجز عمل تلميذه ، إن الإشراف على رسائل الدراسات العليا نوع واضح من الإيثار ، يقدمه جيل إلى جيل خدمة للعلم وللإنسانية •

ماذا يأخذ الأستاذ نظير ذلك ؟

الإجابة أنه لا يأخذ شيئاً ، بل يعطى من وقته وجهده وفكره ويعطك عمله ، ولا أحد يدري بذلك تقريباً ، ومع هذا فالأساتذة راضون ومقبلون على هذا العمل ، وهم يطلبون الجزاء من الله ، ويأملون أن يكونوا بذلك قد أدوا حق الوطن •

ولكن لنا وقفة مع الدراسات العليا ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار .
فالقانون يبيح للطالب الذي يحصل على تقدير « جيد » في الليسانس أو

البكالوريوس أن يتقدم للالتحاق بأقسام الدراسات العليا ، واعتقادي أن الحصول على جيد ليس كافياً على الإطلاق ، وما أجددنا أن نعطي الحق لذويه ، وأن نقرر أن الدراسات العليا ينبغي أن تكون للموهوبين فقط ، أي يتحتم أن يكون هؤلاء حاصلين على تقدير « جيد جداً » أو « ممتاز » وبهذا نريح ونستريح ، فهناك طلاب طموحون ولكن لا ينبغي طموحهم على أساس سليم ، ويدفهم هذا الطموح للالتحاق بالدراسات العليا مع تقدير « جيد » والحق أقول أن هؤلاء يتعثرون دائماً ، وأكثرهم يفشلون ، والذين يتمون دراستهم قل أن ينتجوا عملاً ذا بالاً •

وهناك اقتراح نثبته هنا ، وهو تقليد متبع في بعض جامعات العالم ، وذلك أن كل قسم من الأقسام يقترح كل عام موضوعات محددة للدراسة ، وتوزع هذه الموضوعات على المعيدين ، وما يتبقى منها يختار له أكفأ المتقدمين للدراسات العليا من خارج الجامعة ، ونحن بهذا نتحاشى رسائل كثيرة لا تضيف جديداً مهماً للفكر العلمي أو الأدبي •

وكلمة أخيرة عن مناقشة الرسائل ، أثبت فيها ملاحظة تحققت لدى من طوله الخبرة ، هي أن مناقشة الرسائل لا تُعَدُّ في الواقع امتحاناً للطلاب ، ولكنها في كثير من الأحوال « استعراض عضلات » يقوم به بعض المتقدمين ليثبت به مقدرة خاصة ، أو ليغمز به زميله المشرف على الرسالة ، وهذه الاتجاهات يتحتم أن تتوقف ، وأن تكون المناقشة موضوعية لا غير ، ثم إن المدة التي تقضى غالباً في المناقشة وبخاصة في الرسائل النظرية طويلة للغاية ، لأنها تمتد إلى خمس ساعات أحياناً أو أكثر ، وهي مملوءة بالهجوم والنقد ، ويحس المستمع أن الإعياء أصاب الطالب الذي يتناوب المهاجمون أدوارهم عليه ، ويجلس هدفاً لحراهم طيلة هذه المدة : ثم تكون النتيجة منحه أسمى التقادير ، والذي نراه أن المدة ينبغي ألا تتجاوز الساعتين في الماجستير والثلاث ساعات في الدكتوراه ، وأن يجعل المتحن هدفه إثارة أهم النقاط التي تحتاج إلى مزيد من الإيضاح أو الشرح ، لا أن

يستعرض صفحات الرسالة صفحة تلو صفحة ، ثم يتحتم أن يكون التقدير
مناسباً للمناقشات التى دارت حول الرسالة .

والمأمول بهذا أن تكون الدراسات العليا أعظم جدوى للطلاب
والجامعة والمجتمع .

وبعد ... لقد وقفنا مع الجامعات ومشكلاتها وقفة طويلة تستحقها
منا هذه الجامعات التى ترعى الفكر وتنمى العقل ، ولعلنا بذلك قضينا بعض
الحقوق لهذه المنارات العظيمة .

في السودان

الروابط بين مصر والسودان :

ارتباط مصر بالسودان ارتباط وثيق ، خلقتة الطبيعة ، وعززه التاريخ ، وقواه الدين والدم واللغة ، ومن المبعث أن توجد توافع للفضل بين مصر والسودان ، فإن الإحساس العميق بين المصرى والسودانى ينتصر دائماً على الدوافع الشريرة ، ويعيد الحب والود بين الشغبين ، أو قل بين الشعب الواحد الذى انتصر أعداؤه مرة فقبسوه شعبين ، وكلما أدرك هؤلاء الأعداء أن وسائل التجمع ستكتسحهم وتقضى على مؤامراتهم ، كلما أدرك هؤلاء الأعداء ذلك شددوا من قسوتهم ، وزادوا من الحواجز التى وضعوها بين الشمال والجنوب ، ولكن ذلك كله إلى حين ، ولن يستطيع العشب الحفيلى أن يقف فى وجه التيار الجارف .

وقد كان من وسائل الدوافع الشريرة لتجزئة الوطن الواحد ، أن أخفوا تاريخ جنوب الوادى على شماله ، وكان عيباً واضحاً أدركناه ونحن طلاب ووعيناه ونحن مدرسون وأساتذة ، فقد اتضح لنا أن تاريخ السودان لا ينال حقه من الدراسة ، وأن المصريين يعرفون من تاريخ فرنسا وإيطاليا وإنجلترا أكثر مما يعرفون من تاريخ السودان ، وإذا جهل المصريون ذلك فإن جهل العرب كان أشد وأشم .

ولم يقنع الاستعمار بهذه التعمية ، بل راح يذيع غمزات تثير جزءاً من الشعب على جزء آخر ، وتصوره فى صورة تزيد من القطيعة .

من أجل هذا رحبتُ بالدعوة التى وُجِّهت لى سنة ١٩٦٦ لأشغل منصب رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية ، وكان مدير الجامعة هو الأستاذ الدكتور كامل الباقر ، والدكتور الباقر صديق قديم زاملنى فى الدراسة بكلية دار العلوم ، وزاملنى فى الدراسة بإنجلترا ، وعرفت فيه صفات جمة تجذب للتعاون معه ، عرفت فيه تنوع المواهب وعمق الإخلاص ، وعرفت فيه العروبة الأصيلة والثقافة

الإسلامية الرفيعة ، ولهذا رحبت بهذه الدعوة واستجبت لها على الرغم من أنني كنت قد عقدت العزم عقب عودتي من رحلتي الطويلة بإندونيسيا ألا أرتبط بزيارات طويلة أخرى في أية جامعة ، ولما خطر ببالي هذا العزم قلت لنفسى : إننى فى السودان لن اكون غريباً ، وإن انتقالى من جامعة القاهرة إلى جامعة أم درمان ليس إلا إنتقالاً من مدينة إلى مدينة داخل الوطن الواحد فى أضيق حدوده ، واستقر الرأى على السفر .

وكان مما قوى الاتجاه للاستجابة أننى أردت أن أدرس المنطقة التى كنت وصلت لها فى دراستى بموسوعة التاريخ الإسلامى ، وهى المنطقة التى تقع جنوب صحراء إفريقيا ، والتى خصصت لها الجزء السادس من هذه الموسوعة ، فقد أيقنت أن هذه الرحلة ستتيح لى دراسة السودان وأنا بين أهله ، وأن أجمع مزيداً من المراجع عن هذه المنطقة لا تتوفر فى القاهرة ، وربما استطعت أن أنتقل من السودان إلى سواء من الأقطار الإسلامية حوله ، وقد حققت هذه الرحلة كل هذه الأهداف أو أكثرها .

وكان هناك سبب آخر قوى عزمى للسفر للسودان ، ذلك أننى كنت دائماً أحلم بجامعة إسلامية بقلب إفريقية ، فالبلاد الإسلامية بقلب إفريقية لم تنتشر بها الحضارة الإسلامية بعد ، ولا تزال فى حاجة إلى مزيد من الدراسات الإسلامية ، والبلاد غير الإسلامية المجاورة للأقطار الإسلامية تحتاج إلى من يقدم لها دعوة الإسلام ، فإن خريطة الإسلام تتصل بشعوب لادينية وينبغى أن ننقذ الناس من اللادينية أو من البدائية ونجذبهم إلى عبادة الله ، وكانت أحلامى تمتد فتصور لى أن جامعة إسلامية فى أم درمان ليس من البعيد أن تفتح لها فروعها هنا وهناك على الحافة التى يلتقى بها المسلمون بسواهم لتكون هذه الفروع مشاعل إسلامية على الطريق .

وفى جو هذا التفاؤل والأمل أعلنت استجابتى ، وبدأت أعد العدة لأرحل إلى الجنوب .

ذهبت إلى قريتى لأودع أهلى ، وبقيت بينهم بضعة أيام ، ولما عدت

للقاهرة راعنى أن عرفت أن رجال الشرطة يدقون بابى من حين إلى حين ، وأنهم تركوا إخطاراً لى بأن أذهب لوزارة الداخلية فور وصولى ، ولكنهم مع هذا يعاودون التردد على المنزل للتأكد من عودتى من الريف ، وليعيدوا التأكيد بضرورة الذهاب لهذه الوزارة دون تأخير . وأسرعت للذهاب بين الدهشة والقلق ، وهناك استقبلنى ضابط صغير الرتبة ، وسألنى :

هل تريد أن تذهب إلى السودان ؟

أجبت — وقد عرفت أن الموضوع يتصل بهذه الرحلة — : لا ، لا أريد .

لعماد يقول : عندنا أوراق من جامعة القاهرة تقرر أنك تريد الذهاب للعمل بجامعة أم درمان .

فأجبت : السؤال واضح وإجابتى عليه واضحة . لا أريد الذهاب لجامعة أم درمان وأنا مستعد أن أكتب لك بذلك الآن .

— إذا كنت لا تريد الذهاب فلماذا كتبت لنا الجامعة بذلك ؟

— اسأل الجامعة ؟ أو افترض أننى كنت أريد ثم عدلت عن رأىى .

وهنا دخل ضابط أكبر سناً وأعلى رتبة ، وتعرف على وجهى من برامج التليفزيون التى أقدمها ، فرحب بى بحرارة طيبة ، وطلب لى بعض المشروب ، وسأل عما جاء بى إلى مكاتبهم ، فقلت له : كأنك ترى أن الحضور إلى هنا فيه شئ من الشبهة !! وضحكنا وأصبح الجو ودياً جميلاً ، وأطلع على الأسئلة والإجابات فقال : ما هذا ؟ ، وأجبت بأن الرحلة إلى السودان إذا كانت ستتلتزم أن ترسل أفواج الشرطة إلى بيتى عدة مرات خلال الأيام الماضية ، وإذا كانت الرحلة إلى السودان ستتلتزم الحضور إلى هنا وتستدعى هذا الاستجواب ، فإن فى يدى أن أعذر عن عدم القيام بها وكفى الله المؤمنين القتال . وذكر الضابط الأول أننى كنت قد فصلت من الجامعة ، وأن هذا يستدعى بعض الإجراءات للسماح بالسفر ، فقلت

له : كان الفصل من الجامعة سنة ١٩٥٤ ، ونحن الآن سنة ١٩٦٦ ، وفي خلال هذه السنين الطويلة عينت بوظيفة ديپلوماسية ، وعدت للجامعة ، وأسندت لى كثير من الأعمال الهامة ، فهل لايزال الفصل من الجامعة يلاحقنى ؟

وانتهت هذه الجلسة بالتراضى ، وشددت الرحال إلى عملى الجديد .

وفى السودان التقيت بأهلى ورغافى ، وتحقق لى واقعياً ما كنت أفكر فيه ، الدم العربى ينساب فى كل وجه ، واللغة العربية الفصحى غالبية باهرة ، والإحساس برباط الود متبادل ، وتأثر بعض الناس بدعايات الاستعمار موجود ، ولكن غير منتشر ، وكان علينا أن نزيله ، ورب الدكتور كامل الباقى هفافة شفاقة سمحة ، مع ذكاء نادر وعلم وفير ، ونائب المدير غصيلة الأستاذ مجذوب مدثر ثروة هائلة من العلم والخلق ، وأغاب الموظفين أصدقاء ودودون ، والطلاب كلهم إقبال وأمل . فى هذا الجو الحافل أمضيت عاماً وبعض عام ، وأمضيت هذا الوقت فى الجامعة وفى المجتمع ، علمت فى الجامعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكان إقبال الطلاب عظيماً يدعو للبهجة والأمل ، ولقد حاولت أن أسكب لهم نفسى وأضع بين أيديهم معارفى ، وقد تلقوا بغبطة وشغف ما وضعته بين أيديهم ، حتى ليتمكن القول إن الدراسة التى شرحناها كانت أطول من الزمن الذى قضيناه معاً .

أما مع الجماهير فكانت لى جولات فسيحة واسعة ، فقد كانت الهيئات والمدارس تدعونى لحاضرات عامة فى المناسبات الإسلامية داخل الخرطوم وخارجها ، وكنت ألبى هذه الرغبة بكل ترحاب ، وأقدم لكل جيل وكل جماعة ما يتناسب مع فكرها وثقافتها ، وقد نظمت الجامعة دراسات لهيئات مختلفة ، وكنت أشارك فيها جميعاً ، فرجال الصحافة والإعلام قدمنا لهم دراسات مختلفة اشتركت فيها بنصيب كبير ، والأئمة ورجال الوعظ أعدت

الجامعة لهم حلقات دراسية قدمت فيها لهم الكثير عن الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكذلك فعلنا مع أمناء المكتبات ، وغيرهم ، وهذا جعل الجامعة مشعل نور للمجتمع كله .

الاستعمار والتبشير :

وقد خلق الاستعمار في السودان مشكلة كما خلق مشكلة في كل مكان نزل به ، فالأكراد في العراق ، والإسلام والمسيحية في لبنان ، وزنوج الجنوب في السودان ... ولولا الاستعمار ما وجدت هذه المشكلات ، والاستعمار يَبْقَى في يده هذه الورقة ليلعب بها عندما يحتاجها ، فإذا لم يحتج إليها أهملها وألقى بها بعيداً ، ولما تم للسودان استقلاله ، وحسب أن الأمر أصبح بيده ، وحاول أن يلعب دوره الحر في السياسة العربية والإسلامية والمعاوية ، حرك الاستعمار هذه الأداة . والذي يتتبع تاريخ التبشير في إفريقية وآسيا يدرك أن المبشرين فشلوا تماماً في نشر المسيحية عن طريق الكنيسة أو عن طريق التبشير المجرد ، وهنا تحركت العقيلة الاستعمارية فاقترحت طريقاً للمبشرين لينالوا بعض النجاح . وكان أن أسلمتهم زمام التعليم . وتركزت لهم ثستون المدارس . ثم أسلمتهم زمام الصحة وتركزت لهم الإشراف على المستشفيات ، والطفل ضعيف المقاومة والريض ضعيف المقاومة كذلك ، وبهذا استطاع المبشرون أن ينفذوا إلى نفوس الصبيان والمرضى وأن ينشروا المسيحية بينهم ، وأن يتخذوا من هؤلاء أعواناً لهم عن طريق وضعهم في وظائف حساسة عندما يشبثون أو يصحثون .

وعندما أراد السودان أن يتحرك بحرية تامة أثار المستعمرون أدواتهم في جنوب السودان ضد الحكومة الشرعية والحكم الوطني ، وقادت المدارس والمستشفيات وخريجوها هذه الثورة ، فاضطرت الحكومة أن تؤمم المدارس والمستشفيات وأن تشرف عليها بإشرافاً مباشراً ، وأدرك المبشرون بذلك أنهم فقدوا الحصون التي يحتمون بها ، فثارت الكنائس على هذا القرار ،

فأملت الحكومة الكنائس وأعلنت أنها ستشرف عليها وتعيّن بعض المسيحيين السودانيين لقيادتها ، وزادت الثورة اشتعالا ، واتخذت الغابات مقراً لها ، واستعانت بعصابات المرتقة •

والمهم أن تصرف الاستعمار في السودان طيلة الفترة الاستعمارية حال دون انتشار الإسلام واللغة العربية بالجنوب ، بل أضعف الدين وقضى على ما كان معروفاً من اللغة العربية كما فعل بالنسبة للغة العربية في الجزائر . وكانت النتيجة أنني لم أجد أمامي بجامعة السودان أى طالب من أبناء الجنوب ، وكانت هذه مأساه طالما تحسرت عليها •

ولا تزال هذه المشكلة تعيش حتى الآن ، والإسلام لا يعرف تفاضلاً عن طريق الجنس ، وفي أحضانه التقت كل الأجناس والألوان ، ولعل ذلك يهيئ مستقبلأ أحسن لهذه المشكلة الخطيرة •

وقد حصل لى موقف فى الجامعة يستحق الذكر ، فقد كانت جامعة أم درمان تعتمد اعتماداً رئيسياً على المصريين ، وكنا بها نمثل حوالى تسعين فى المائة من أعضاء هيئة التدريس لمختلف فروع المعارف ، وظهرت فى الجو الحزبى همسات تتساءل :

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس التاريخ الإسلامى ؟

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس كذا وكذا •

وأراد الأستاذ الدكتور كامل الباقر — وهو عالم حصيف ذكى مخلص — أن يقضى على هذه الهمسات بطريقة عملية ، فدعا السيد الاستاذ الصادق المهدي لزيارة الجامعة وكان سيادته قد استقال حديثاً من رئاسة الوزراء ويقف قائداً للمعارضة التى تتبنى مثل هذه الهمسات ، وحضر رئيس الوزراء السابق ومعه بعض وزراء وزارته ، وكنت ألقى محاضرتى للفرقة الثانية عندما سمعت دقات على الباب ، ثم انفتح الباب عن هذه النخبة الكبيرة من

القادة ، واستقبلتهم بسرور ، وعرضت أن يتفضلوا بالجلوس معنا ردحا من الزمن ليروا طرقنا الحديثة في تدريس التاريخ الإسلامى ، فوافقوا •

واندفعت أعرض رموس مسائل عن مقدمات التاريخ : مجال التاريخ الإسلامى ، فلسفة التاريخ ، مناهج التاريخ ، تفسير التاريخ ، الالتزام فى التاريخ *****

ثم انتقلت لعصور التاريخ الإسلامى فوضعتها عصراً بعد عصر . وأبرزت ضرورة أن تشمل الدراسة الدول المنسية فى التاريخ وهى تلك التى تقع جنوب الصحراء الأفريقية أو فى جنوب شرقى آسيا •

ثم انثنييت للحديث عن الحضارة الإسلامية مبينا أنها تشمل نوعين هما الحضارة الفكرية والحضارة التجريبية ودور الإسلام فى كل منهما •

والتقطت السودان لأبين الدور الذى يمكن أن يقوم به فى خدمة قضاياها وخدمة القضايا العربية والإسلامية بإفريقية بسبب موقعه كهمزة وصل بين العرب والزنج •

وفى دقائق محدودة كنت قد استوعبت الخطوط البارزة للتاريخ الإسلامى كله ، ووفقتنى الله فى ذلك العرض أروع توفيق ، فخرج هؤلاء القادة وهم يقررون أن قلة من الناس تستطيع أن تدرس التاريخ الإسلامى على هذا النحو ، وخفتت الأصوات التى كانت تتهاوس ظانة أن من اليسير أن يستبدل بالمصريين غيرهم •

الدول العربية ونكسة ١٩٦٧ :

وموقف آخر ضخم عانيناه فى هذه الفترة ، وكان للسودان فيه موقف مشرف يذكر بكل خير ؛ ففى صيف سنة ١٩٦٧ حصلت الهزيمة المريعة التى مئينا بها ، وانقضت علينا هذه الحثالة البشرية تعربد وترمجر ، وكانت من قبل كالقثران تعيش فى الجحور ، فهبت كالعاصفة تغال منا وتسيطر على

على أرضنا وتهزم جيشنا ، لأن ساسة هذا العهد الأسود وجَّهوا كل اهتمامهم ضد الشعب ، وعفلوا إلا عن مصالحهم الخاصة ، وقد عانينا شر عناء من هذه الهزيمة ، ولكن أكبر نصيب من هذا العناء حل بالمصريين الذين خانوا يحملون بالبلاد العربية ، فاندثر بسبب هذه البلاد العربية ترى مصر ملزمة بأن تدافع عن العرب وتنتصر ، وترى أن على مصر أن تعاني الجوع والحرمان لتعد الجيوش وتشتري الأسلحة ؛ وأن عليها أن تنتصر ؛ فإن انهزمت فالويل لها ، ليس من اليهود فحسب ، بل من العرب ، الذين يتحتم أن يعيشوا في ترف العيش ، وأن تريق مصر الدماء والمال لتضمن السلامة لهؤلاء المترفين •

لقد عرفت في التاريخ الوسيط جماعات الأحابيش التي كانت تكثر بالمال لتدافع عن قوم أو تشترك في الدفاع عنهم • وعرفت في التاريخ الحديث جماعات المرتزقة التي تقوم بنفس الدور • ويذكر التاريخ الوسيط والحديث أن هذه الجماعات كانت إذا هزمت وسقط منها عدد من القتلى في ميدان القتال ، فإن الأمم التي أكثرتها كانت تتقدم في الحال لتقدم لها تعويضات باهظة ولتشجع هؤلاء على استعادة مكانتهم ليستأنفوا تنفيذ الدور الذي عهد لهم به •

لو كانت قوى مصر من المرتزقة لاستحقت من العرب عندما انهزمت أن يقدم لها العرب التعويضات والتشجيعات الوافية • ولكن جنود مصر يحمون العرب بلا مقابل ، والويل لهم من العرب إن فشلوا في الحماية •

إنه قد رُنا ، ونحن نرضى نستعد للكفاح وأن ننفق عليه قوتنا ونؤثره على حاجات أنفسنا ، وأن نسقط في الميدان ، ونهب من جديد حتى نعلو كلمة الله ، وليعش في الترف من يحب أن يعيش ، وليلازم الامبالاة من يحب اللامبالاة ، فلميادين القتال رجالها ، ولتتع الحياة هواتها •

وأغلب الظن أنه لم يخطر ببال أحد من العرب أن العدو يتربص بهم جميعاً ، وأن هزيمة هيلق عربى معناه سير العدو خطىً أخرى للأمم

ليسيطر على مناطق عربية جديدة ، فتخطيط العدو بعيد المدى ، وأطماعه تتصل بمناطق الثراء والمال بالوطن العربى .

كان على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يلتزموا بدخول المعركة بعد أن ضعفت مصر عن احتمالها في تلك الفترة ، وأن يقفوا في صف واحد أمام اليهود ، ولكن الذى حصل أنهم وقفوا في صف واحد ضد مصر ، وأنزلوا سخطهم بالمدرسين المصريين والأطباء والمهندسين الذين يعملون ببلادهم ، وكم لاقى هؤلاء المكافحون من عدوان العرب عليهم ، ذلك العدوان الذى شمل السخرية والكلمات البذيئة والتهمج القاسى .

ماذا كان موقف السودان من هذه الأزمة ؟

الحق أن موقف السودان كان نبيلاً النبيل كله ، كريماً إلى أبعد حالات الكرم ، لقد قاسمونا مرارة الهزيمة ، وأحسست بالجرح ينساب في نفوسهم كما كنا نحس به وكانت كلمات العزاء والأمل دستور هؤلاء القوم الكرام .

لو كنت في أى بلد عربى وجرى لى ما جرى للزملاء لهولت عائداً لبلادى كما فعل البعض ، ولكنى في السودان لم أحتج إلى ذلك ، وهذا الموقف كان عظيم الأثر في نفسى ، وأنا الآن أنقله من جنبات النفس إلى الكلمة المكتوبة الخالدة .

قضية الاعارة للخارج :

وهذا الموضوع يشدنى للحديث عن موضوع آخر ، ذلك هو قيمة المعلم المعار من قطر إلى قطر ، وأقرر أنه لا يعرف مايعانيه المعار الغريب إلا المعار الغريب نفسه ، وقد مررت بهذه التجربة مرتين ، مرة في إندونيسيا وأخرى في السودان ، مع أنى كنت موفق الحظ في المرتين فالشعب في إندونيسيا ، وفي السودان يعرف الرسالة الضخمة التى يحملها المعار

ويعده رسول الفكر ، ترك الأهل والوطن لينقل فكره وتجاربه إلى الآخرين ، فهو بذلك يقدم تضحية تفوق كل تضحية ، وليس هناك أى جزاء مادي يعدل ما يقدمه هذا المعلم ، والتاريخ يذكر أن الخليفة المأمون كان يقدم للمترجمين والمؤلفين بدار الحكمة وكرّن أعمالهم من الذهب الخالص ، ولكم تردّد خازن بيت المال في ذلك مرة لأن أحد هؤلاء قدم أعماله العلمية مكتوبة على أشياء ثقيلة الوزن ، صاح به المأمون : أعطه دون تردد ، فإننا نأخذ منه الباقي ونعطيه الفاني ، نأخذ دماء قلبه ونعطيه حطاما ، وليس هناك شيء يكافئ دماء القلوب •

وحسب من لا يدرك الصعوبات التي يعانيها المعار أن يتذكر أننا ونحن في الخارج مات أفراد منا وأعدناهم لمصر جثثا وكانوا قد ودعوها شبانا يفيضون بالحياة والحيوية ، وسقط آخرون مرضى وحملناهم إلى الطائرة ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة في جنبات الوطن ، ومرض آخرون أمراضاً بسيطة كالزكام مثلاً أو الصداع ، وعجزت كل الأدوية أن توقف هذا المرض . واضطر الأطباء أن يعلنوا أن الدواء الناجح أن يعود المريض لوطنه ، وعاد هؤلاء وعادت لهم الصحة عندما استنشقوا نسيمات الوطن •

وفي مطلع هذا القرن عندما أنشأنا الجامعات المدنية بمصر ، وفي منتصف هذا القرن عندما بدأنا حركة التصنيع ، والآن ونحن نبني جيشنا طبقاً للنظم العسكرية والأجهزة العسكرية الحديثة ، كان لابد أن نستعين بأعداد هائلة من الأساتذة والخبراء ، وقد دفعنا أضخم المرتبات لهؤلاء وأولئك ، وأحسننا معاملتهم إلى أبعد حد ، وحاولنا أن نجعلهم ينسون آلام الاغتراب ، وقد يكون لى أن أقدم هنا مزيداً من التفصيل باعتبارى أعيش في ضاحية المعادى التى تضم عدداً كبيراً جداً من هؤلاء الأساتذة والخبراء ، وأشهد أن سكان المعادى على اختلاف طبقاتهم يشتركون بطريق أو بآخر في تكريم هؤلاء الذين جاءوا من بلادهم لعوننا ونقل خبراتهم إلينا ، ترى ذلك في نادى المعادى الذى يترك المواطنون حقوقهم في الملاعب لهؤلاء الغرباء ، وتراه في المواصلات حيث يقدم المصريون ضيوفهم على أنفسهم ، وكذلك

ترى ذلك فى دور العلم التى يثلق بها هؤلاء الضيوف أبناءهم ، وفى المحال التجارية التى يؤمها هؤلاء لشراء مطالبهم ، وهيهات أن ترى أنانياً أو مستغلاً إلا فى القليل النادر مما يعد شذوذا لا تخلو منه أى بلد من البلدان •

على أن مصر لم تستقبل الخبراء والمعلمين فقط ، وإنما استقبلت آلاف الطلاب الوافدين الذين جاءوا إلى مصر يوم كانت وحدها موئل العلم فى العالم العربى وفى إفريقية ، وقد كنت أستاذ بكلية دار العلوم وبها طلاب من ست وأربعين جنسية عبر قارات العالم • ماذا فعلت مصر مع هذه الجيوش الجرارة من الطلاب ؟ الذى لاشك فيه أن مصر أحسنت الإحسان كله لهؤلاء ولا تزال تفعل ، وأعطيناهم من التسهيلات والمساعدات ما يحصل عليه الطلاب المصريون ، ولا تزال نخصهم بكثير من العون ، ليس ذلك من المن فى شىء ، فقد كنا نعتقد ولا تزال نعتقد أن مصر للجميع ، وأنها وطن لكل غريب • ومما يدل على ذلك أن كثيرين استوطنوا مصر نهائياً ، أو أطلالوا بها مدة إقامتهم ، أو سافروا وعادوا إليها ، وهذا شىء نفخر به ونعتز بالتمسك بحوافره •

ماذا تفعل الدول العربية أو بعضها بالخبراء والأساتذة المصريين ؟

لقد بدأت الدول العربية تنشئ المدارس والجامعات بعد استقلالها ، أى فى العقد السادس والسابع من هذا القرن ، ولم تجد الدول العربية غير مصر ملاذاً لها لتستعير منها مختلف التخصصات والخبرات ، وليست هناك دولة أخرى تنافس مصر فى إمكانها أن تعين أخواتها العربيات ، فالطبيب الإنجليزى أو المهندس الفرنسى لن يستطيع أن يؤدى عمله بسهولة مع جماهير أكثرها لا تجيد اللغات الأجنبية ، وقد حاولت بعض الدول العربية أن تستعير من الباكستان بعض الخبراء ، ولكن ظهر أن كل واحد من هؤلاء يحتاج إلى مترجم يلزمه • أما الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها فهى علوم تعدد وفقاً على الفكر المصرى الذى يجوب بها الأرض جميعاً لينشرها ويخدمها •

واستجابت مصر بكل معانى الكرم فأثرت الدول العربية بخير أبنائها ، نعم بخير أبنائهما ، فقد كنا نقوم بامتحانات لاختيار أحسن العناصر الراغبة فى السفر ، وتقدم هذه العنصر الممتازة للدول العربية ، ووضعنا أسساً للاختيار تجعل أعلى الكفاءات أحق بالسفر •

ولقد كان طبيعياً أن تشكر لمصر هذه اليد ، وأن تعترف هذه الشعوب العربية بفضل الإشاعات الفكرية التى يحملها المصريون إلى أبناء عمومتهم فى الوطن العربى ، وبخاصة أن الحاجة لاتزال ماسة وستظل ماسة جيلا وأجيالا ، وبوجه أخص فيما يتصل بحملة درجات الدكتوراه الذين يبدو أن مصر ستبقى المعين المهم أو المعين الوحيد لهم لمدة لا يمكن التكهّن بها •

هل شكرت الشعوب العربية مصر على موقفها الحافل بالإيثار ؟

وأنا أقول الشعوب وأعنى ذلك لأن عتبى متجه للشعوب ، ولأن الهيئات الرسمية بالبلاد العربية تقوم بواجباتهما على وجه مرض ولو لم يكن ذلك لتوقّفت هذه الإعارات ، أما الشعوب فنسمع عن معاملاتها للمعارين المصريين بما يدفع للاشمئزاز ، ويالھول ذلك إن كان صدقاً كله أو أكثره ، وقد ظهرت مع هذه المعاملة كلمات قاسية مثل التعيشش — الزحف المصرى •

ولقد سمعت عن مسئول مصرى كبير أحسن الله جزاءه ، أدرك ما يعانىہ المصريون فى موقف معين ، فهتف : إذا كان هذا إحساسكم نحو المصريين فنحن مستعدون أن نسحبهم لمصر فى الحال ، وبإلضخامة الفراغ الذى سيخلفه هؤلاء لو تم هذا التصرف ، وأعتقد أننا لانحب أن نفعل ذلك ، ولكن لانحب كذلك أن يساء إلينا •

موقف مصر من الدول العربية :

هناك فكرة خطرت ولا تزال تخطر ببال الكثيرين هي أن تتفرغ مصر لنفسها ردها من الزمن تعيد بناء الحياة المصرية والقرية المصرية والإنسان المصري ، على نمط ما فعل الاتحاد السوفيتي الذي أحاط نفسه بسياس أسموه حينذاك « الستار الحديدي » ولم يفتحه إلا عندما أعاد بناء نفسه في مختلف الميادين ، فخرج إلى الناس قوياً مارداً ، وعلى نحو ما فعلت الصين عقب ثورة ماو ، ولو فعلت مصر ذلك لحققت نجاحاً عظيماً ولقدمنت لها إمكانياتها وسائل لنهضة عظيمة .

ولكن هذا الاتجاه لم يؤخذ به ، فقد غلب التفكير الذي يرى أن وضع مصر بين الدول العربية لا يجيز لها أن تعرض عن العالم كما فعل الاتحاد السوفيتي ، وكما فعلت الصين ، وأن التزأم مصر نحو الدول العربية يحتم أن نقسم معها حلو الحياة ومرها ، وأن مصر لو أدارت ظهرها للدول العربية عشر سنوات أو عشرين سنة ثم عادت لتتجه لهذه الدول فقد لاتجدها ، فكثير من الدول العربية لا تقوى على مواجهة الحياة وحدها ، ولو وقفت وحيدة في الحياة فسيبتلعها التيار ، وبقيت مصر تعيش للعرب ، وكانت هذه تضحية وإيثاراً في دنيا نرجو أن تعرف التضحية والإيثار .

تحية إلى السودان في ختام حديثنا عن السودان ، لقد كانت السودان بلادى طيلة إقامتى بها ، وكان أهلها أهلى ، وإنى لأشيد بما نعمت به من ودء هناك خلال الفترة الخصبة التى أمضيتها مع الإخوة بجنوب الوادى .

إِسَات عامّة

مقدمة

في رحلة الحياة هناك نقاط متناثرة مهمة لا تدخل تحت موضوع واحد ، ولا تحتويها فترة واحدة من فترات هذه المرحلة ، وقد جمعت هذه النقاط تحت هذا العنوان العام « لمسات عامة » ، وسيرى القارئ مدى مال هذه اللمسات من أهمية لاني حياة صاحب الرحلة فحسب ، بل في حياة كل إنسان بوجه عام •

زوجة الكاتب

كثيرون من المؤلفين يصدرون كتبهم بإهداءها إلى الزوجة والأولاد ،
ذاكرين أن التفرغ لهذا الكتاب حرم الزوجة والأولاد من رعاية يستحقونها
وراجين أن يكون في إهداء هذا الكتاب لهم ما يعوّض هذا التقصير .

ولا شك أن كتبى طالما تسبّبت في حرمان زوجتى وأولادى من وقت
كان يمكن أن ينعموا به لو لم تستول دراساتى على وقتى وجهدى ، وطالما
فررت من أولادى لأخلو إلى قلمى وعقلى ، أو أبعدتهم عنى إذا حاولوا
أن يقتحموا على خلوتى ، ومع هذا فلم يخطر ببالى أن أهدى أى كتاب
من كتبى إلى زوجتى وأولادى ، وكنت أنظر إلى أى إهداء من هذا اللون
نظرة فيها شيء من الامتناع أو الدهشة ، فهذا الإهداء لن يعوّض الزوجة
ولا الأولاد شيئاً على الإطلاق . واعتقادت أنه شيء قام به شخص ثم
قلده آخرون حتى صار تقليداً أشبه بالروتين يقوم به بعض المؤلفين حتى
أولئك الذين لايسبب الكتاب لألهم أى لون من ألوان الحرمان .

وماذا يمكن أن ينال الصغير من سطور إهداء حملت اسمه ربما
قبل أن يعرف القراءة ؟ وماذا يمكن أن تنال الزوجة من هذه السطور ؟
ثم إن القارئ الذى اقتنى هذا الكتاب ، ماذنبه أن تطالعه الصفحة الأولى
بحديث المؤلف عن زوجته وأولاده ، وإذا صح أن هذا الإهداء يمنح
أى تعويض للزوجة والأولاد فأجدر به أن يكتبه المؤلف فى نسخة بخطه
يقدمها لزوجته وأولاده دون أن يجعل ذلك إعلاناً يفرضه على من لا تهمه
هذه القضية ، وبخاصة أن المؤلف ليس وحده الذى يحرم آله من
المتع بسبب عمله ، فكثيرون من الموظفين والعاملين يقاسمون نفس
التصرف بدرجة أو بأخرى .

ومن أجل هذا لم أكتب قط إهداء من هذا اللون ، وجعلت صلتى
مباشرة بالقارئ دون وسيط يقدمنى إليه أو قريب يستأثر بصفحة من

صفحات الكتاب ، ومن الحق أن أقرر أن زوجتى ترى هذا الرأى ولم تتوقع أبداً إهداء من هذا اللون .

ومن أجل هذا وجدت فى « رحلة حياة » فرصة لأتحدث عن زوجتى أو أتحدث إليها ، فهى شطر حياتى ، ولها دور مهم فى رحلة هذه الحياة ، والحديث عن زوجة الكاتب يستدعى أن أقص قصة تحمل المعنى الدقيق لطبيعة الكاتب وحقوقه ، فقد أحسست مرة باضطراب صحى فاتصلنا بعيادة الأستاذ الدكتور « أبو شادى الروبى » الأستاذ بكلية طب القاهرة ، وطلبنا من مساعد الطبيب أن يضع اسمى ضمن أسماء الراغبين فى أن يعرضوا أنفسهم على الطبيب ، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى العيادة تحسبى زوجتى ، وذكرت اسمى للممرض ومددت يدى بالأجر المحدد للكشف ، ولكن الممرض رفض أخذ الأجر وأسرع يخبر الطبيب بخضورى ، وسرعان ما حضر الطبيب بنفسه ورحب بى ودعائى إلى غرفته وتفرغ لى ، وأبدى سروره بلقائى ، قلت له : إن الممرض لم يأخذ أجر الكشف كأنه خدع بلقب دكتور وحسبى طبيباً ، وأنا لست بطبيب فأرجو أن تأذن له بتسلم المبلغ المحدد ، فابتسم الرجل وقال : ليس الأمر كما توقعت ، فنحن نعرف أنك لست طبيباً ، ولكنى أعرف قَدْرَكَ وأعدُّ من حقك على أن أشرف على صحتك وأعالجك . قلت له : إن دفع الأجر يشجعنى على العودة لك كلما أحسست بمرض ، ولكن الامتناع عن أخذ الأجر المحدد قد يخلبنى فلا أعود إليك إن احتجت إلى عونك ، فأجاب : ان أنت لم تحضر لى سعيت أنا إليك ، وأضاف إن الكاتب ثروة قومية ، ومن حقه على الأطباء أن يعنوا به ويحافظوا عليه .

تلك ومضة طيبة من الأستاذ الدكتور أبو شادى الروبى أحسن الله جزاءه ، ولكن كم من الناس فى المجتمع يحمل هذا الإحساس تجاه الكاتب ؟ وكم منهم يرى الكاتب على حقيقته ؛ عقلاً يشع للآخرين ويذبل وهو يضىء دنيا الناس وكم منهم يدرك العناء الذى يلاقيه الكاتب والمؤلف وهو يبحث

وينقد ويفكر ، ثم وهو يتعرض للنقد والهجوم بالحق وبغير الحق ؟ قلة قليلة من الناس تدرك هذا في الكاتب •

والأستاذ أنيس منصور كتب مرة ساخراً يروى أنه كان ينزوى بسيارته المتهالكة يوماً حينما وقفت بجواره سيارة فارهة أنيقة ، ثم أطلت منها غنانة (راقصة) وداعبته بسؤال مهم هو : أيهما أفضل الكتابة أو الرقص ؟ وابتسم الأستاذ أنيس منصور ، وقال مداعباً : وكيف لى بالرقص ؟ على أنه في أعماقه يقرر أن هذا هو قدرنا ونحن به قانعون •

ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات ظهرت في ميدان الغناء فتاة ، وقد رأيتها آنذاك عند بناء التلفزيون العربى ، كانت تركب سيارة تاكسى ، وكانت ملابسها عادية ومظهرها بسيطاً ، وقد رأيتها حديثاً فذُهِلْتُ ، إنها تركب سيارة فاخرة ، يقودها سائق مدرَّج ، يفتح الباب لها وينحنى ، وتلبس ملابس الأميرات أو الملكات • ولم أحسدها ولم أغبطها ، لأنى رضىت بقدرى وأخلصت الود لعملى ككاتب ومؤرخ ، وحسبى أن يوجد فى المجتمع قلة قليلة من أمثال الدكتور أبو شادى الروبى تعرف حق الكاتب وتكنُّ له هذا القدر من التقدير •

وإذا كان الكاتب قد رضى بقَدْرِهِ ، وآثر أن يطمع فى الخلود أو يحلم به ، وفضل ذلك على رفاهية الحاضر وترف العيش ، فأنتى له بزوجة توافقه على هذا الاتجاه وترضى بهذا المصير ؟ وبخاصة إذا اعترفنا بحقيقة لا بد من الاعتراف بها ، وهى أن الكاتب مرهف الحس يصبح أحياناً كالطفل يحتاج إلى من يدلُّه ويهدده ، وهو لا يخضع لقوانين الروتين التى يخضع لها باقى الناس ، يتففعه تفكيره فى قضية ما أن يغيب عن الوجود فترة لا يحتمل خلالها صخب الحياة ولا مطالب المرأة ، ويغرق أحياناً فى عمل فينسى كل ما حوله وكل التزاماته ، ويعجز أحياناً عن حل مشكلة علمية يتدارسها ، فينعكس ذلك على نفسه اضطراباً وقلقاً ، فإذا انتصر على مشكلة وجد لها حلاً فخرج ورقص ، وأنى للكاتب أن يجد له

زوجة تشاركه هذه الأحاسيس ، وتدله وتغفر هناته ، وترضى بأن تربط مصيرها فرحاً وحزناً بمشكلات الكتابة بدلا من أن تربطها بفخر الثياب ومطالب الحياة .

إن من العسير أن نجد زوجة من هذا اللون ، وأرجو ألا أكون بذلك قد باعدت بين الكاتب وبين الفتيات ، فمن الحق أن نقرر أن الكاتب عندما يجد الزوجة المناسبة يتخذ منها مصدر إلهام ، ويكتشف فيها مظاهر حسن يصعب على الآخرين كشفها ، ويضفى عليها من عبارات الحب سحراً تهيم به ، ويرى مطالبها قبل أن تراها هي ، ويسعد وهو يحقق هذه المطالب ، وسرعان ما تصبح من أسعد الزوجات وترى في الحياة بجواره أسعد حياة ، وإن كان بها نوع مما تراه الأخريات حرماناً وشظفاً ، وأشهد أن زوجتي (السيدة كريمة إمام) من هذا اللون وهي تبذل أقصى الجهد لتعاونني فيما ارتبعت به من أعمال .

إننى أستطيع أن أجزم أن بها استعداد الفنانة الكاتبة ، ولكن ذلك الاستعداد لم يوجهه التوجيه الصحيح في الوقت المناسب ، فوجدت في وسيلتها لتحقيق مأربها ، وهالها أن يكون زوجها كاتباً ، ومؤرخاً ناجحاً إلى حد معقول فراحت تصب نفسها لمساعدتى ما وسعته الحيلة ، حتى يمكن القول بصدق ودقة أنه لولا جهدها ما وصلت إلى ما وصلت إليه على الأقل من ناحية الكم .

لقد كانت تعمل مدرسة بالمدارس القومية يوم أن قدر لنا الزواج . وكنت أسمعها تتحدث عن تلاميذها بحنان وإعجاب ، وكانت تقص على أحداث يومها وحياة زميلاتهن ، وأدرك من قصصها شدة ارتباطها بعملها ، ولذلك ترددت طويلاً قبل أن أطلب منها أن تتفرغ لى وتدع عملها ولكن استجابتها لى كانت أسرع مما توقعت ، وقالت وهي توافق : اننى بذلك سأشاركك في أعمالك الكبيرة ودراسك العلمية والجامعية ، فكأنك تنقلنى (م ١٨ — رحلة حياة)

من العمل بهذه المدارس إلى حياة أرفع وأعلى • وشكرتها ، وبدأنا حياةً
أسريّةً متعاونة خصبة •

كنت أملئ عليها أكثر ما أكتب منذ ذلك الحين ، وكانت تُعيد لي
المراجع ، واضطلعتُ بتصحيح تجارب المطابع فكنتُ أقرأ التجارب مرة
واحدة للتحقيق العلمى ، أما ماعدا التحقيق العلمى من مشكلات فقد تركته
لها ، وأجادت حمل مسئوليته • وكنت أكتب للتليفزيون والإذاعة والمجلات
والصحف كتابة سريعة بقلم الرصاص ، ولا أراه بعد ذلك إلا منسقاً مرتباً
بأجمل خط وأدق نظام •

وقامت بدور السكرتيرة خير قيام وإن كانت لاتحب هذا اللقب ،
ولا أحبه لها ، فهى تتلقى المحادثات التليفونية وتأخذ مذكرة بها ، وتتصرف
بلباقة حولها •

وخطاباتى الكثيرة التى ألترم بكتابتها إلى المادحين أو الناقدين أو
الناشرين ، أملئها بسرعة خاطفة لأجدها بعد حين منسقة معدة للإرسال ،
وما علىّ إلا أن أوقع فى نهايتها ، وحتى هذا التوقيع أجادته ، فأصبحت
تقوم به ، ولم أخش ذلك ، إذ ليست لى ثروة ذات بال أخاف أن تتصرف
فيها بما يخالف رغبتى • وطالما استشرت فى بعض المواقف العلمية أو
الفكرية ، فأبدتُ رأياً حصيماً أخذتُ به ، وطالما قرأتُ لها ما كتبتُ أو قرأته
هى ماقتרכת تعديلات ذات بال فاتبعت رأياً ، وهناك حقيقة يتحتم إبرازها
هى أنها تحب هذا العمل ، فهى لا تؤديه كواجب ، وإنما كربة ، ولا أذكر
أنها ضجرت منه يوماً أو تكاسلت عنه • وفى كثير من الأحيان أكون
مشغولاً بمشكلة علمية تؤرقنى وتقض مضجعى ، وأحياناً ألتقط — وأنا
بالفرش — الحل لهذه المشكلة ، وهى تغط فى نوم لذيذ ، وأوقظها أو نتيقظ
هى عندما أضىء النور لأدون هذه الفكرة ، وتكتب عنى ما أريد بدقة
وحنان ، وهى تقول : 'أمل' ما تريد لعلك تستريح بعد ذلك فتنام •

وتنقلب زوجتي إلى طبيب ماهر عطوف عندما أشكو أى مرض ،
وتدفعنى للشفاء دفعا ، وأرانى مضطرا للإقبال على الشفاء إشفاقا عليها
وتهدئة لعواطفها الطيبة .

* * *

وبعد ، هل يجب القارئ أن تكون زوجته كزوجتى ذكية شديدة
الارتباط بزوجها ؟ لست أدري ماذا ستكون عليه إجابات القراء ، ولكنى
أذكر أننى قرأت مرة دراسة قامت بها إحدى الهيئات بإيطاليا فقد اتجهت
هذه الهيئة بسؤال إلى مئات الشابات اللاتى يتطلعن لفتى الأحلام ، وكان
السؤال هو :

ماذا تحبين فى زوج المستقبل ؟

طويلا أو قصيرا ؟

غنيا أو فقيرا ؟

وسيما أو عاديا ؟

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

متوقد الذكاء أو عادى الذكاء ؟

واختلفت الإجابات حول هذه الأسئلة ، ولكن فى السؤال عن الذكاء .
اتجهت الغالبية المطلقة من الفتيات لرفض أن يكون الزوج متوقد الذكاء ،
وعلن ذلك بأنه يتحسس كل شىء ، ويتعرف كل هفوة ، ويقدر الأمور
بدقة العبقرى فيحاسب بناء على تقديره ♦♦

وزوجتى فى الحق ذكية جدا ، وفيها مميزات الذكاء وسخافاتة ، أما
مميزاته فقد تحدثنا عن بعضها ، وأما سخافات الذكاء فمنها أننى لا أستطيع
أن أذمى عليها شيئا إذا أردت ذلك ، ومنها أن حاسة الشم عندها حادة ،

فإذا صافحتني امرأة تستعمل نوعا معينا من العطور عرفتته وتساءلت .
من أين هذا العطر إليك ؟ وهكذا بها نزوات الأذكياء كما أن بها مآثر
الذكاء .

ههـ استطيع أن أسترسل فأورد بعض المتاعب التي تثيرها زوجتي
أحيانا ؟ أغلب الظن أنني لا أستطيع ، فقد هددت^١ بأنها ستستعمل مقص
الرقيب وهي تعيد كتابة هذه السطور لتدفع بها إلى المطبعة ، ولذلك فمن
الأفضل ألا أستطرد في ذكر هذه المتاعب ، وإن كان من الحق أنها قليلة
جداً ، وليس لها ثقل يذكر عندما توضع في الميزان أمام الفضائل .

شيء مهم يتحتم أن أذكره ، هو أن للمرأة سلاحا تستعمله ضد
الرجل ، ذلك هو سلاح الدموع ، ولكن زوجتي عندها سلاح آخر أكثر
حدة ومضاء من سلاح الدموع ، ذلك هو المرض الذي يطرأ عليها بقسوة
عندما أغضبها ، فإذا حدث خلاف حول أمر ما وكنت صاحب حق سرعان
ما ترتفع درجة حرارتها ويسرع نبضها وتحمّر عيناها ، وأراني مضطرا
أن أبعد الغضب عني لأصبح طبيياً يقدم الابتسامة والدواء ، واعتقادي —
وأرجو ألا أكون مخدوعا — انها لا تصطنع هذا الاتجاه ، ولكنه سلاح
منحته لها الطبيعة لتنتصر به على^٢ كلما كان من الحق أن يكون لي شرف
الانتصار .



وبعد ، هذه لمحة عن زوجتي « السيدة كريمة إمام » لعلّي بها أكون
قد وفيت لها بعض دينها ، ولعلّي بها أكون قد عوضتها عن الكلمات التي
يكتبها بعض المؤلفين لزوجاتهم في صدر مؤلفاتهم ، ولعلّي بها أخيراً
أدفع عديداً من الزوجات لتعاون كامل مثمر مع الأزواج ، وأدفع الأزواج
إلى العرمان بالجميل .

أولادى

زينة الحياة ، وقطع من القلب ، قضت ظروف حياتى التى ذكرتها من قبل أن أعيش بمنأى عنهم عدة سنوات ، عندما كنت أعمل بإندونيسيا ، وكانت لقمة العيش تدفعنى للفرقة وحبى لهم يشدنى لأبقى بينهم ، ولكنى — من أجلهم — تغلبت على قلبى وسافرت وأطلت السفر ، فهم جديرون لذلك بكلمة منا فى رحلة حياتى •

ولهم فضل يتصل بالناحية العلمية ، فطالما عملوا لى ، نقلوا من مسوداتى بعض المقالات ، أو صيخوا تجارب الطبع ، أو عملت يدهم الصانع فى إعادة ترتيب مكتبتى ، نفى حالات كثيرة آخذ كتباً من رفوفها ولا أعيدها لمكانها ، وتبقى كذلك حتى تمتد أيديهم وبخاصة البنات للمكتبة بالترتيب والتنسيق والتجميل، وإن كانت دراساتهم وأعمالهم الخاصة تستغرق أكثر وقتهم • أما الأطفال من أولادى فكانت ابتسامتهم توحى بالكثير من الإلهامات والإشراقات ، وكان لهم فضل من الناحية الاجتماعية ، فطالما ألزمنى براحة كنت منصرفاً عنها ، ودفعونى إلى أن آخذهم إلى نزهة أو رحلة ما كنت أقوم بها لولا رغبتهم وإلحاحهم ، وبهذا كانوا يعيدون لى النشاط لأستأنف العمل برغبة أكد وعزيمة أقوى •

والأولاد امتداد للإنسان ، فهو يعيش فيهم بعد أن ينتهى عمره ، ومن أجل هذا أبذل أقصى الجهد لأعيش فيهم فى المستقبل أحسن مما عشت بنفسى فى الماضى ، وأريد كذلك أن أربطهم بجهدى وتجاربى التى تؤكد أن الإخلاص فى العمل وحب الوطن والوفاء للدين تؤتى ثمارها طيبة ناضرة ، وتنعكس على النفس راحة وعلى القلب طمانينة ، وعلى المال سعة ، فالإخلاص الجرم عميق الأثر فى حياة الإنسان •

يارب بارك أيامهم وألهمهم التوفيق ، واجعلهم امتداداً صالحاً يخدم الله ووطنه ودينه بكل أمانة وإيثارة ، مع الحب والتمنيات لسهير ورضيا وعادلا وعبير وحسام الدين ووسام •

صورة شبابى

لدينا صورة مكبرة بالمنزل التثقت لى وأنا فى سن الخامسة والعشرين ، وهى توشك أن تنطق بالصحة والقوة والأمل والجمال ، رآها رقيق لى فوقف أمامها مبهوراً ، وسألنى : كم تدفع لتعود لمثل هذه السن مرة أخرى ؟ وأجبت فى حزم : لا أريد أن أعود على الإطلاق لتلك السن ، هل تريدنى أن أصارع من جديد ، وأكافح من جديد ، وأسير من جديد هذه المسيرة الطويلة ؟ لا ، لا ، إننى لا أقوى على الصراع مرتين . ومرحباً بالشعر الأبيض وبحاضر الحياة ومستقبلها ، وشكراً لعصر الشباب الذى احتمل مختلف المتاعب ليوصلنى إلى ما أنا فيه ، على أن للتقدم فى السن ميزة كبرى ، فعلى الرغم من أن الصحة لا تساعد على العمل الطويل ، ولكن التجارب المليئة بالخبرات تجعل الوقت القصير يمنح من الإلهامات والفوائد ما لا يمنحه الوقت الطويل عند الشباب . فالشباب لا يزال الفراغ يملأ نفسه والأوهام تلفك عقله ، وإن أراد الشاب أن يتخلص من الفراغ والأوهام جدّ وكدح ليصل إلى غايته ، ولكنه سىرى نفسه آنذاك قد تقدم فى السن وتخلّى عن الشباب أو تخلّى عنه الشباب ، إنها سنّة الحياة .

قد يسخر الغنى من الفقير ، وقد يسخر الصحيح من العليل ، وقد يسخر الناجح من الفاشل ، ولكن من الخطأ أن يسخر الصغير فى السن من الكبير ، فكل شاب ليس له بحال من الأحوال — إن عاش — إلا أن يصبح كبيراً ، فهى خطوة لابد آتية ، وحسبك أن تستعرض ماضى حياتك ، وترى ما قدّمته للوطن والدين والانسانية من خدمات خلال هذا الماضى . وتسعد أو تبتئس وأنت تراجع هذا الحساب ، وسترى أن مساهمتك الواسعة فى هذه المجالات تمنحك قوة وسعادة أكثر مما يمنح الشباب لجماعات الشبان . إن من حق الإنسان وهو يتطلع إلى شِعره الأبيض وإلى الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه أن يتطلع كذلك إلى ما خلف من جهد وما أرسى من قيم وخدمات ، وذلك وحده هو المقياس الصحيح .

وفرة الإنتاج العلمى وتفسيره

ماذا قدمتُ للمكتبة العربية والإسلامية من ناحية الكيف ؟

ليس هذا موضوع بحث هنا ولكن البحث يدور هنا حول ما قدمتُ من ناحية الكم ، فهناك موسوعة للتاريخ الإسلامى ، وموسوعة للنظم والحضارة الإسلامية وسلسلة لمقارنة الأديان ، بالإضافة إلى كتب أخرى باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأندونيسية والماليزية وقد شغل هذا العدد من الكتب أذهان بعض الناس ، فراحوا يحدسون ويفكرون ، وربما وقف بعضهم مشدوها فاستسلم للظنون والخواطر ، متناسيا أن شيوخنا الأوائل كتبوا أضعاف ما كتبنا كما فعل الطبرى والاحفهانى وغيرهما •

وعلى كل حال فإننى هنا أقف لأضع التفسير الدقيق لهذا الإنتاج ، وأول تفسير أقدمه هو عملية الترتيب والنظام ، فمؤلفاتى ليست جزافا ، وإنما خضعت لسياسة طويلة المدى ، فمنذ بدأتُ أكتبُ رسالتى للدكتورة عن « تاريخ التربية الإسلامية » قبيل منتصف هذا القرن وضعت خطة طويلة لدراسة الحضارة الإسلامية التى تعد التربية الإسلامية جزءا منها ، وقسمت الحضارة إلى سياسة واقتصاد وتربية ونظم اجتماعية وعسكرية ، وأعددت حافظة خاصة « ملفاً » لكل موضوع ، وأخذت أقرأ عن التربية وأجمع المادة عنها ، ولكنى عندما أقابل أى اقتباس أو أى مادة عن السياسة أضعها فى الملف الخاص بها ، وكذلك أفعل مع الاقتصاد والنظم الاجتماعية والعسكرية ، فلما انتهيت من دراسة تاريخ التربية وجدت عندى مادة لا بأس بها عن الموضوعات الأخرى ولما انتقلت إلى السياسة أقرأ مراجعها وأدرس مصادرها قابلتنى نقاط مهمة تتصل بالاقتصاد والنظم الاجتماعية ففعلت بها ما فعلته من قبل ، وهذا وفكر الوقت توفيراً ملحوظاً • ومثل هذا حدث فيما يتعلق بالتاريخ والأديان •

وهناك نقطة مهمة ترتبط بهذا الموضوع هي أنني لم أعرف الراحة بين كتاب وكتاب كما يحدث لكثير من الزملاء الذين يؤلفون في موضوعات مختلفة ، فإن الواحد منهم ينتهي من موضوعه ، ثم تمر به فترة راحة قد تمتد شهوراً أو سنين ريثما يخطر بباله موضوع جديد ليبدأ فيه ، ولكنى كنت أنتهى من جزء لأبدأ في جزء آخر بعد راحة قصيرة أو — أحيانا — بدون راحة ، وكان هذا أيضاً من عوامل السرعة في الإنتاج .

وعامل آخر ساعد مساعدة فعالة على السير في التأليف بسرعة ، ذلك هو الإصرار على التضحية من أجل الهدف ، وذلك هو تطويع النفس على الحرمان من النتائج المادية والمعنوية السريعة رجاء الوصول إلى نتائج أوسع وأشمل مع مرور الزمن ، ولأضع هذا في حقائق محددة أذكر أن الإعارات للخارج لم تجتذبنى قط مع ما فيها من إغراء مالى ، وكنت أحيانا أطلب شخصياً فأعذر ، فقد كانت القاهرة مركزاً أساسياً لى في كثير من الأحيان بسبب وفرة المراجع وضرورتها ، وبسبب أن الأقطار الخارجية تستنفذ طاقة المعار لتستفيد منه أكبر فائدة ، وتقدم له ما يغريه بالعمل الإضافى الذى لا يدع نشاطاً للتأليف والتفكير . أما رحلتى إلى إندونيسيا فقد كانت لضرورة خاصة . وكانت رحلتى إلى السودان ذات هدف علمى واضح .

ويدخل في هذا النطاق موقفى من المحاضرات الإضافية أو المقالات التى تطلبها المجلات والصحف . فلم يجتذبنى هذا ولا ذاك مع ما فيه من فائدة سريعة لأنه استنفاد لجهد رأيت دائماً أن يوجه لخدمة المدى البعيد .

وعامل ثالث كان عظيم الأثر في الوصول لهذه النتيجة ، ذلك هو طواعية اللغة والقدرة على الأداء فإذا كانت عندى فكرة فإن نقل الفكرة إلى عبارات جميلة سهلة فمسترسلة كان دائماً يسيراً . والحق أن كثيرين من المؤلفين يجيدون الأفكار أو يسعون لإجادتها . ولكن قدراتهم اللغوية

محدودة للغاية ومعرفتهم بقواعد اللغة وأساليبها ضئيلة ومع ذلك لا يتجهون لرفع مستواهم في هذا المجال • وتراهم وهم يكتبون كأنما ينحتون من صخر • إن اللغة وسيلة ضرورية لمن يعاني التأليف ويمارسه وبدون السيطرة على اللغة يظل التأليف قاصراً •

والحديث عن اللغة العربية بالنسبة للمؤلفين العرب يقودنا لمقارنة خطيرة ، هي أن الطبيب الإنجليزي والمهندس الإنجليزي والمؤرخ — الإنجليزي ••••• أقدر على لغته من الطبيب والمؤرخ والمهندس العربى أو قل المصرى بوجه خاص ، وما يقال عن الطبيب الإنجليزي يقال عن الطبيب الفرنسى أو الألماني •

إن طواعية اللغة عامل مهم بالنسبة لكل من يمسك القلم ليكون مؤلفاً ، وبدون اللغة الطيبة نفقد الأداة السليمة السلسة للتعبير عن النفس ، وقد كنت يوماً شاعراً كما ذكرت من قبل ، فلما تخلّيت عن الشعر أو تخلّى الشعر عني بقيت المقدرة على التعبير الجميل سلاحاً رائعاً يسرّ على كتابة ما جال بال خاطر أو مادبره العقل •

وعمل رابع وأخير أقدمت عليه بحزم ، ويمكن القول إن قليلين قد استطاعوا أن يقدّموا عليه ، ذلك العامل يتمثل في زوجتى التى طلبت إليها أن تتخلّى عن عملها لتتفرغ لمساعدتى على نحو ما شرحت من قبل • وربما كان مرتب زوجتى يدعو للاغراء ، لأنه وصل آنذاك رقماً عالياً ، وكان المستقبل يوحى لها بالمزيد من الرقى ، وكان عملها سهلاً فقد كانت قبل أن تستقيل تشغل وظيفة « عضو فنى » ، وكان مقر عملها على بعد خطوات من المنزل ، ولكن كل ذلك لم يخدعنى ، ووجدت في بقائها بجوارى ما يساعد على مزيد من النجاح في العمل والسرعة فيه ، فأثرت ذلك دون تردد ، وكان لهذا وزنه الكبير في سهولة سير العمل •

تلك هي الأسباب الحقيقية العملية لكثرة الإنتاج ، وهي نموذج لمن
شاء أن يرى ، ولمن يتطلع للمدى البعيد دون أن يدع نفسه فريسة
لومضات خير لا تلبث أن تنطفئ وتذهب أدراج الرياح •

وقبل كل شيء وبعد كل شيء هناك عون الله وتوقيفه ، والمدد الضخم
الذي نتلقاه منه ، فيدفع عجلة الحياة إلى حيث يشاء واهب الحياة •

الترشيح لمجلس الشعب

لم يكن في الحسبان قط أن أرشح نفسي لمجلس الشعب ، فهو شرف لم أجدنى يوما ما مؤهلا لمباشرته ، ومسئولية لم أحس قط أنني أستطيع حملها ، ولكن الظروف دفعتنى دفعا لأصبح مرشحا أو على عتبة الترشيح ، فأفادنى هذا الموقف فائدة كبرى ، وتعرفت على معالم للحياة لم يكن من اليسير أن أتعرف عليها •

بطريق المصادفة البحتة حضرت سنة ١٩٦٩ اجتماعا في مدينة « أبى حماد » عقد لتختار القيادات مرشح الدائرة لمجلس الشعب ، ومدينة « أبى حماد » هى مقر الدائرة التى تقع فيها بلدتنا ، وكان رئيس الاجتماع زميلا كريما هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو هاشم ، وهو خطيب ممتاز وعالم فاضل ، سيبلر بلباقة على الاجتماع ، وأثار في الحاضرين إحساسا بمقدرته ومكانته في مجال السياسة واللغة ، وبعد أن خطب فأجاد بعثت له ببطاقتى ، وعليها تحية ورجاء أن يمنحنى فرصة لكلمة قصيرة ، وعرض الأستاذ محمود أبو هاشم هذه الفكرة على الحاضرين بأدب جم قائلا: إن أستاذه يحضر هذا الاجتماع ، ومن الوفاء أن يبرر التلميذ بأستاذه ، وأن هذا الأستاذ (وذكر اسمى) يطلب الكلمة وطلب رأى الحاضرين ، فوافقوا بالإجماع •

لقد وصفت آنفا مكانة الأستاذ محمود أبو هاشم بين الحاضرين ، وكان أغلبهم لا يتوقع أن هناك من يفضله أو حتى يماثله ، فما بالك أن يوجد أستاذ له ، وأنا لم أكن أستاذًا للأستاذ محمود ، ولكن أدبه العالى وضعنى في هذا المكان • والمهم أن الحاضرين استقبلونى أروع استقبال من كان يعرفنى من قبل ، ومن كان يسمع عنى دون أن يرانى ، ومن سمع عنى خلال هذا التقديم الكريم •

وانطلقت أتكلم ، وشددت أسمع الحاضرين بحديثى ، ذكرت أن

دائرتنا في موقف دقيق ، إنها على خط النار ، وينبغي إعدادها اعداداً خاصاً لتقوم بواجباتها تجاه الوطن ، وأن ممثل هذه الدائرة مسئول عن هذا الواجب ، وناديت بأننا لا يمكن أن نخلى بلدان الدائرة بلداً إثر بلد أمام العدو الزاحف ، بل لابد أن نصمد ونموت في المعركة ، ويتحتم أن يكون الفلاح مزارعاً ومحارباً ، وكذلك يكون التاجر والموظف بهذه الدائرة ، وذكّرت الحاضرين بما قدمناه من جهود في الحملات المختلفة التي تعرضت لها بلادنا حتى شرفت بيوتنا وأسرنا بأعداد كبيرة من الضحايا والخسائر. ونحن نقف على باب قطرنا المجيد ندافع عنه بإصرار واستماتة •

وانثيت لواجبات مجلس الشعب في هذه الحقبة المريعة ، ذاكراً أن هذا المنصب لم يعد للترف وإنما للكدح والجهد •••••

وعندما انتهيت من خطابي كانت هناك همسات بأن هذا المتحدث ينبغي أن يكون ممثل الدائرة في مجلس الشعب ، وعدت إلى قريتي دون أن أحس بهذه الهمسات أو دون أن أعلق عليها ، ولكن سرعان ما انهالت الوفود على منزلي تطلب مني أن أرشح نفسي وتبايعني على الاستجابة • ولم تنقطع الوفود من كل قرية ومن كل نجع ، وشاهدت ما يمكن أن يسمع إجماعاً على ترشيحي •

نكان الناخب بالريف وتكريم المعلم :

وانفعلت انفعالا سيطر على علمني كثيراً مما لم أكن أعلم ، إنهم يتهمون قرانا بالجهل ، ويتهمون أهلينا بالريف بأن المال والرشوة تحرك وجدانهم ، والذين يقولون هذا هم الذين لم يعرفوا الريف ولم يتدارسوا أحواله وقيم الحياة فيه ، ليت هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد جاءوا إلى دائرتنا ليروا وليسمعوا كيف تصرف الناس وماذا قالوا ، لقد كانت الدائرة كلها أصواتاً تهدر بالترحيب وهتافات تحمل التحية ، وتجمع طلاب الجامعات على اختلاف ثقافتهم وكأنني أستاذ لكل

منهم ، طبعوا المنشورات على حسابهم ، واطافوا بالقرى يحملون ماسموه بالبشرى ، والتقى المتعلمون هنا وهناك يؤيدون ويبياعون ، واستجاب الزارع والتاجر والصانع بشيء من الزهو لأنهم سيعثون أستاذا بالجامعة ليخون ممثلا لهم بمجلس الشعب ، ولم يطلب الناس منى مالا ، ولاطمعوا في عون ، وإنما جاءت وفودهم تطلب شيئا واحدا هو أن أزور القرى لينتم لقاء بينى وبين الجماهير التى اتبعت بى دون لقاء ، أما أهل بلدتنا « عليم » فقد تخلوا عن أعمالهم وأهملوا مصادر رزقهم وتفرغوا للدعاية والزيارات ، وراح كل منهم يتجه إلى أقاربه وأصدقائه في تلك القرية أو هذا النجع ، ورحت أزور البلاد فيستقبلنى الناس بسرور وغبطة ، وكانت زغاريد النساء ترتفع في الجو ، وتحيات الرجال تملأ الأسماع والقلوب ، وتقربت للمتعلم ولغير المتعلم بكتبى فقدمت مجموعات منها لبعض البلاد ، كما ألقىت كلمات في حشود الناس ، وكانت لغة العلم وسيلة قوية للقربى ، وطريقا سهلا للنفوس .

وأذكر أننى ذهبت مرة للعزاء ، ولكن أهل الفقيد اقترحوا أن ألقى كلمة في السرادق بين جموع المعزين ، ولم أكن أنوى الكلام ، فموقف العزاء لا ينبغي أن يستغل في الدعايات الانتخابية ولكن رغبة الناس دفعتنى إلى حديث طويل عن فلسفة الحياة وعن فلسفة الموت ، وعن الفكر الإسلامى في الحياة بعد الموت ، وعن آداب المآتم ، وعن التزاماتنا لنؤدى واجباتنا في الحياة ، واستطردت في استحياء إلى مناسبة الانتخاب ، ولكن الناس شجعونى على الاستطراد في القول بأن ألقوا بعض الأسئلة ، وكانت مجاملة طيبة منهم ، أن يتيحوا فرصة لى لأتكلم في جموع من أكثر القرى المحيطة بنا ، ومن المجاملات التى أذكرها متصلة بهذا الموقف أن بعض المعزين من قرى لا تدخل في حدود دائرتنا جاءوا يطلبون منى أن أجعل ترشيحى عن دائرتهم ، فلما أخبرتهم بأن هذا غير ممكن راحوا يغبطون أهل دائرتنا على ارتباطى بها .

وهناك مجموعة من الشبان في بلدة مجاورة لنا اتصلوا بالمرشح المنافس

وطلبوا منه عدم نزول بلدتهم منعاً للفتن والاضطرابات .

لقد كانت موجة رضا باللغة الحسد في الروعة ، تروحت في نفسي الدليب الذكريات ، وربما يسألني القارئ عن نتيجة الانتخاب فأقول له : إن الفرشيع لم يتم فقد تبين لنا أن مرشح الدائرة لابد أن يكون في جداول الاتحاد الاشتراكي بها ، وأنا لم أكن أحب الاتحاد الاشتراكي ولا أومن به ، ومع هذا كنت للأسف عضواً به في نفاق عملي بالقاهرة لا بالريف . وجرت محاولات لنقل القيد ولكنها لم تنجح ، وعدت أدراجي إلى القاهرة وبفسي الدليب الذكريات بالنسبة لآلنا في الريف الذين دالما ظلمهم النقاد . لقلّة تعرفهم عليهم ، ولو عرفوهم لأدركوا أن المحتد الدليب والنفس الدلية والإباء والشمم تتخذ من الريف مكانها المختار .

تجربة دلية تحمل أعمق عرقان بالجزيل إلى بادتنا . اما جريها . وراى أولئك الذين وقفوا بجانبى وبذلوا أقصى الجهد لمساعدتى . واستأذرونا هنا أسماء هذه القرى وهؤلاء الرفاق خوفاً من أن أنسى بلداً أو شخصاً فيسى ذلك إليه . وبإسهم العام الذى زمرنى به أعامدهم على حذمه الودان والدين بكل إخلاص وعمق من أى موقع أقف فيه .

كيف نتعرف على المرشحين بالمدين ؟

بقيت نقطة مهمة تتحلل بالانتخابات أعرضها رجاء أن نجد لها حلاً . لقد رُشّحت في دائرتنا ، وكان سهلاً على أهل الدائرة أن يعرفوا نل شئ عني وعن سسواى من المرشحين ، فعائلات الريف بينها اتصال واضح . ويمكن أن نتعرف بيسر على كل النواحي التى تهتم الناخب في المرشح .

ولكن كيف يمكننا أن نحسن الاختيار بالمدين التى لا يعرف الجار فيها جاره ، ولا يعرف الساكن في عمارة شيئاً عن السكان الذين يسكنون معه نفس العمارة ، وقد رأيت في المعادى حيث أسكن عشرة من المرشحين بعدد

من حلوان وبعضهم بين طرة أو دار السلام أو المعادى ، ووجدتني لا أعرف شيئاً عن أى منهم ، وسألت بعض الناس فلم يكن المسئول بأعلم من السائل ، ووقفت حائراً ، وأخيراً قررت ألا أدلى بصوتى ، أو بلغة أخرى ألا أضع صوتى حيث لا أعرف مقره ، وآثرت أن أدفع الغرامة على أن أختار لمجلس الشعب من لا أعرف عنه شيء ولا عن صلاحيته أية إشارة •

لقد كانت الأحزاب من قبل تختار لنا ، فكان انتخاب الناس لمرشح الوفد مثلاً معناه حرصهم على أن يجيء الوفد إلى الحكم بمبادئه واتجاهاته ، ولكن بعد إلغاء الأحزاب اضطربت الأمور ، ولذلك أقدر أن المجالس البرلمانية بدون أحزاب هيئات لا أساس لها ولا أمل فيها ، وهى تمثل الحاكم ولا تمثل الشعوب •

طلاب الجامعات من ريفنا وحياتهم في بيتنا

عندما كنت طالباً بالتعليم العالي كنت ملتحقاً بالقسم الداخلي ، وكانت دار العلوم تهييء لنا المسكن والزاد ، وعلى هذا نجوت مما يعانيه الطلاب في القاهرة المزدحمة من عناء البحث عن مسكن يعيشون به ، ولكن نجاتي من هذا لم تدعني جاهلاً بما يقاسيه الآخرون ، فقد زرت بعض الزملاء من مختلف الكليات وشاهدت كيف يعيشون ، فوجدت الكثيرين منهم يعيشون في الحارات والأزقة ، ووجدت الطرق إلى مساكنهم بعيدة عن النظافة ، ورأيت جماعات الذباب توشك أن تطارد السكان ، واحتجت مرة أن أتصل بطلاب من بلدتنا وكان معي عنوانهم ، فوجدتني أتسلق مظلعا ثم أهبط إلى واد سحيق ، وأسير في مناطق عجيبة ، وأسمع عبارات مريرة هي طابع أطفال تلك المناطق ، ثم وجدت « طلمبة » وشجرة توت وأحسست أني في منطقة تجمع مبادل المدن ومبادل الريف ، وكان ذلك حيث يسكن هؤلاء الطلاب .

ولما انتهيت من دراستي العالية وعينت مدرساً بالأورمان النموذجية ، ذهبت أنا وزميلان لي هما الأستاذ عبد الله حشيش والأستاذ أيوب المسلمي لنبحث عن شقة نسكن فيها معاً ، وقصدنا حي السيدة زينب باعتباره الحي الشعبي الذي يلائمنا الإيجار به ، واتصلنا بسمسار في ميدان السيدة زينب فسألنا عن الإيجار الذي نرغب في دفعه شهرياً ، فقلنا له حوالى سبعة جنيهات ، وكان ذلك سنة ١٩٤٥ أي أن الجنيهات السبعة كانت لها قيمة يعتد بها ، ولكن السمسار صاح فينا بأن علينا ألا نفكر في عمارات الميدان والشوارع الكبيرة المتفرعة منه وعلينا أن نتجه للحارات الداخلية . وكان رأيه سديداً ، فلم نجد مسكناً بهذا الإيجار إلا في حارة نائية حاولت حديثاً أن أتعرف عليها فوجدتها قد أزيلت من الوجود وابتلعها أحد الشوارع الجديدة .

هذا العناء ثبت في نفسي حقاً من حقوق الطلاب في عنقي ، فلما أتيح

لى أن أبنى لنفسى مسكنا أعددت به شقة صغيرة مستقلة ، أضواؤها متلائة ومعها دورة مياه ، وتتبعها حديقة صغيرة — وفرشت هذه الشقة بفراش مناسب ، وجعلتها هديتى إلى طلاب الجامعات من ريفنا لا فرق بين قريب وبعيد ، ولا بين غنى وفقير ، فقد كان بعض الموسرين يفضلون أن يعيش أولادهم فى هذه الشقة ليكونوا تحت رعايتنا وعلى اتصال بنا ، ودفعنا مساعدات مالية منتظمة للطلاب المحتاجين بالإضافة إلى رسوم الجامعات وثمان الكتب ، أما الموسرون فقد قنعوا بالمسكن المجانى النظيف الذى يقع فى منطقة جميلة ، ويضعهم مع طبقة طيبة من السكان •

وتوالى الطلاب جيلا بعد جيل يتعلمون ويتخرجون من مختلف الكليات مرتبطين بهذا المسكن ، وكنا نجد فى جوارهم أنسا وودا •

كم كلفتنا هذه الشقة ؟ الحق أن تكاليفها أقل جدا من فائدتها ، وقد دفعت التكاليف مرة واحدة ، ولكن فائدتها تتجدد على مر السنين ، وياحبذا لو اتجه الموسرون هذا الاتجاه ، فإن هذه الرغبة هى التى دفعتنى لكتابة هذه السطور لأدعو القادرين على تقليد هذا الاتجاه ، ولست أقصد بالقادرين الأغنياء ، فالله يشهد أننى بدأت هذا التصرف وأنا أقرب إلى الفقر منى إلى الغنى ، ولكنى أقصد بالقادرين هؤلاء الذين يسيطرون على أنفسهم ، ويوسعون دائرة التزاماتهم ، ويجعلون فى أموالهم حقا معلوما للكون على طلب العلم •

وأرجو ممن يفعل هذا ألا يتوقع الولاء والوفاء من هؤلاء الذين ساعدتهم ، فلا شك أن بعضهم لا يعرف الولاء ولا يحب الوفاء ، وربما حاول بعضهم فى مستقبل الزمن أن يهرب من هذه الذكري وأن يتمرد عليها لأنه ظنها تسيء إليه ، إنى أوصى من يفعل هذا أن يتلذذ به ، وأن يتذكر القرآن الكريم الذى قال : لا تريد منكم جزاء ولا شكورا •

إنها متعة أنعم بها حينما أرانى أشركت سواى فى نتائج جهدى ويسرت العلم لطلاب العلم •

الديمقراطية والشواطئ

كثيرون من الناس يهرعون إلى الشواطئ فترة من فترات الصيف بعد جهد طويل طيلة العام ، وأنا شخصياً ممن اعتادوا أن يتخذوا الاسكندرية ملاذا لهم مدة أسبوعين أو ثلاثة كل عام ، أتفرغ خلالها للبحر والطبيعة وأتخفف من اللجان والاجتماعات والارتباطات والتليفون ... ولا أقول إننى أتخلص من العلم فذلك مالا طاقة لى به ، فالعلم عندى هو الهواء وهو الحياة ، بل إنى أصحب إلى الإسكندرية بعض الأعمال العلمية الصعبة التى تحتاج إلى التفرغ لها والعكوف عليها ، وبين جمال البحر وصفاء الجو والبعد عن التزامات القاهرة أستطيع فى الغالب أن أكتب ما أريد .

وقد اعتدنا منذ سنوات طويلة أن ننزل فى منطقة « سيدى بشر » وأصبحنا بمرور الزمن أصدقاء لسكان المنطقة ، فهم يكرمونا ويساعدوننا بكل طاقاتهم ، وساحل البحر هناك جميل ، كان فى الماضى سادئاً وديعاً ، لأن المنطقة التى كنا ننزل بها كانت خاصة لا يدخلها إلا أصحاب الكبائن أو الذين يدفعون بعض الرسوم (ثلاثة قروش للفرد) ، وكانت بجوارها مناطق عامة لا تدفع رسوم على ارتيادها ، وبالتالي كانت هذه المناطق صاخبة حافلة بكل أنواع المرح والصراخ واللعب . ومن الطبيعى أن هناك جماعات تذهب للبحر طلباً للراحة والهدوء ، وجماعات أخرى تذهب إليه للمرح واللعب ، وكان كل فرد يجد طلبته فى مكانها .

ثم جاءت الديمقراطية أو الاشتراكية ، وهللنا جميعاً مرحبين راجين أن نجد فى رحابها ما افتقدناه من قبل ؛ ولكن باسم الاشتراكية المظلومة أزيلت الحواجز بين منطقة ومنطقة بالبحر . وكان هذا مصدر عناء كبير . فكأنك وصلت دار العبادة بالسوق ، أو أزلت الأستار بين الماكينات وقاعات البحث . لقد أصبح البحر ضجيجاً ارتفعت فيه الأصوات ، وزحاما يركب الناس بعضهم بعضاً أو يكادون ، وملاعب كرة من الأمام

ومن الخلف ، تحول بينك وبين الماء وتحول بينك وبين الشواطىء •
وامتلا الشاطىء بالأوراق والمهمات والمخلفات • وبالتالي لم يعد الساحل
مكان راحة أو مكان تفكير • فاضطرت أن أعتزل الساحل وأن ألجأ إلى
« كازينو بترو » على الكورنيش لأرى الماء من بُعد ، بعد أن أصبح
عسيراً أن أكون على مقربة منه • وفى مكانى الجديد وجدت كثيرين قد
فعلوا مثل ما فعلت ولم يعد يطيب لهم أن يجلسوا فى كبائنهم أو يسعدوا
بصفاء البحر وجماله •

هل من الاشتراكية أن نتصرف على هذا النحو ؟

وهل قضت الاشتراكية بهذه المساواة ؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا توجد الدرجات بالقطار والسيارات
العامة ودور الخيالة ؟ ولماذا لا نفتح الأندية لكل الناس مشتركين وغير
مشتركين ؟ ولماذا ندع الناس متفاوتين فى لباسهم وطعامهم ؟ ولماذا نترك
السيارات الفاخرة وبجوارها الأوتوبيسات المكتظة بالبشر ؟

ثم لماذا خصصنا شواطىء خاصة لسكان العمورة ؟ ولرواد ستانلى
وسان ستيفانو وبوريفافاج والنوادى الممتدة على كورنيش الاسكندرية •

إن الاشتراكية كما عرفتها من أدق مراجعها هى أن نتيح تكافؤ
الفرص للمواهب والقدرات ، فليس الباب موصداً أمام أى ذكى كما كانت
الأبواب موصدة من قبل ؛ فالكفء يستطيع أن يعمل ويكدح دون عائق
يقف أمامه حتى يصل إلى غايته • والاشتراكية ألا يعيش المتفولون على
حساب الكادحين ، وهناك فى ظل الاشتراكية طبقات لا يمكن الاستغناء
عنها ؛ هناك الوزير والحبيب والمهندس والعامل والخادم • ولكل مكانه
فى الهيئة الاجتماعية بحسب مواهبه • ولا يجوز للعامل أن يجلس على
كرسى الوزير • ولكن يجوز له أن يعمل ويبرز مواهبه إن كان موهوباً ،

حتى يصل إلى منصب الوزير. أو أكبر منه في يوم من الأيام أو أن يدفع ابنه إلى هذا الهدف .

هناك في النظام الرأسمالي طبقة ثابتة ؛ فللغنى "أسر" لايتعداهم إلى غيرهم ، وللوزراء أسر ، وللنجارين أو الحدادين أسر كذلك يتوارث الصغير صناعته عن أبيه وهكذا ، ولكن النظام الاشتراكي به طبقة ولكنها متحركة ، فابن الوزير إن أهمل انحطت درجته ، وابن الحداد إن جدّ علت مكانته ، وشغل أسمى المناصب .

كم أتمنى أن نصحح مفهوم الاشتراكية ليعمل كل فرد في نطاق كفاءته ولينال نتائج جهده . وفي ظل الاشتراكية الصحيحة ستوضع الأسس السليمة لحياة تريح الناس جميعاً . وسيجد من يريد الهدوء على ساحل البحر. مكانا للهدوء ، ومن يريد ملاعب وصخباً سيجد أمكنة للصخب والملاعب . أما الذي أراه على ساحل البحر بالاسكندرية فشيء بعيد عن كل القيم وبعيد عن كل المبادئ السامية .

نحن وإسرائيل

تهمس بعض الأفواه أحياناً : لماذا لا نعترف بالأمر الواقع ونصالح إسرائيل ؟ لماذا يظل التوتر يسود المنطقة ؟ إلى متى نريق دماء أبنائنا ونوجه أكثر ميزانيتنا للمعركة مع ما يسببه ذلك من خشونة وحرمان ؟ وأسئلة كثيرة من هذا اللون يهمس بها بعض الناس .

وأنا كمؤرخ أحب أن أضع لهؤلاء بعض الحقائق لعلمهم يتدبرون أمرهم بعمق ، وأبدأ فأوضح أن هناك صلحاً ومودة بين اليهود وبين أمريكا ، فها هي نتيجة هذا الود ؟ وهناك صلح بين يهود انجلترا وبين باقى سكانها فما هي نتيجة هذا الصلح ؟ وهكذا دواليك .

النتيجة هي أن القكلة اليهودية أصبحت تتحكم فى الكثرة الغالبة بأمريكا وبنجلترا وغيرهما ... وذلك عن طريق وسائل الإعلام والدعاية ، فقد ثبت فى الإحصاء الذى أجرى سنة ١٩٥٦ الخاص بالصحافة أن اليهود يصدرون ٨١٩ صحيفة ومجلة بمختلف اللغات ، وفى مختلف الأقطار ، وهو عدد يمثل الأغلبية العظمى من صحف العالم ومجلاته ، ولليهود مثل هذا التفوق فى وسائل الإعلام كدور النشر ووكالات الأنباء ، بل والسينما والإذاعة والتلفزيون فى معظم بلاد العالم ، ويسيطر اليهود على الصحافة والنشر بطريق آخر هو طريق احتكار تجارة الورق ، فهم يقبضون أيديهم ويسيطرون حسب استجابة الصحافة لأغراضهم ، ويتسرب بعض الكتاب من أتباعهم إلى الصحف التى لا تخضع لهم تمام الخضوع ، وإذا حدث أن صحفياً عرِفَ بمعارضة اتجاهاتهم وضعوا العراقيل أمامه حتى يفقد وظيفته أو يخضع لاتجاهاتهم .

فاحتكار اليهود متكامل الحلقات ، فهم يسعون إلى احتكار ما يسيطر على معدة الإنسان ، ويسعون كذلك إلى احتكار ما يسيطر على عقله وعواطفه لذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء ودور النشر من

الخطوات الأساسية في هذا السبيل — فغن طريق هذه الوسائل ينشر اليهود ما يناسب مصالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض هذه المصالح .

وهكذا خضعت القوى الكبرى لليهود عن هذا الطريق ، وهناك طريق اخر يعمل لنفس الغرض وهو المال اليهودى والمرأة اليهودية . وعن طريقهما يصل سلطان اليهود إلى السيطرة على النفوس الضعيفة ، وهناك كذلك الحيل اليهودية التى تغرق الناس فى التفكير فى الأمور التافهة لتصرفهم عن الشئون الجلية ، ومن هذه الحيل كرة القدم وغيرها من الألعاب الرياضية التى تشد انتباه بعض السذج وتصرفهم عن المشكلات الكبرى ببلادهم .

وقد هُزِمنا أمام جيوش إسرائيل فى بعض المواقف العسكرية ، وانتصرنا عليهم فى حرب السادس من أكتوبر (١٩٧٣) العاشر من رمضان (١٣٩٣ هـ) ولكن أمريكا لم تتحمل هذا النصر ، فأسرعت بعون واسع لإسرائيل ، ومن العبث أن نطلب من أمريكا ألا تؤيد إسرائيل ، فالمطلعون يقررون أن إسرائيل تمثل ولاية أمريكية فى قلب الشرق الأوسط ، والمعاهدات بين أمريكا وإسرائيل تحمل هذا المعنى .

وبالتالى لا نستطيع الاعتماد على الاتحاد السوفيتى الذى ظهر لنا من مواقف متعددة أنه يتجه إلى إضعافنا لنخضع له ونسلمه الزمام .

ولا نستطيع كذلك أن نحارب أمريكا فذلك شئ مستبعد ، ومن هنا كان من الضرورى أن ننتهز فرصة الانتصار الذى لم يتم على إسرائيل فى حرب رمضان وندخل فى مفاوضات نحقق بها بعض أطماعنا ونستعيد بعض حقوقنا ، وطبيعة المفاوضات أنها أخذ وعطاء وليست من جانب واحد ، وفى هذا الأخذ والعطاء كان نصيبنا معقولا ، فقد عادت قناة السويس الى نشاطها ، واستعدنا بترولنا واستعدنا كل سينا .

صحيح أن هناك قيودا ولكن لم يكن بد* من ذلك لالتقى ، صحيح أننا اعترفنا بوجود إسرائيل ولكن الحق الذي لامرأ فيه أن إسرائيل موجودة أردنا أو لم نرد ، وأن التعبير الذي يقول « إسرائيل المزعومة » شعار أهوج لا يتمشى مع الحقيقة •

وصحيح أن العرب تخلوا عنا وتركوا ننفق على المعركة من أموالنا ونقدم التضحيات من أرواح أبنائنا ، وكانوا يعدون ما يقدمونه لنا من مال كأنه منحة وعطاء وليس مشاركة لهدف مشترك ، وانتهزوا أقرب فرصة ليقطعوا معونتهم ويحاربوا هذا الشعب الذي ضحى بالكثير من أجلهم • ونذكر تاريخيا أن الرسول صلوات الله عليه عقد معاهدات مع يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك ، وعقد صلاح الدين الأيوبي معاهدة مع الصليبيين ، فليس هناك ما يمنع من عقد معاهدة الآن ويترك المستقبل لما يخفيه المستقبل •

ويؤخذ علينا أننا وافقنا على تطبيع العلاقات مع إسرائيل واعتقادي أنه لا توجد قوة تستطيع أن تطبّع العلاقات مع دولة تساعد إيران ضد العراق ، أو تضرب المفاعل العراقي ، أو تهاجم لبنان من حين إلى آخر وتحتل أرضه ، وتقتل فيه الأبرياء •••••

لتكن كلماتٍ عن التطبيع ولكن وضعها موضع التنفيذ يحتاج لصفاء وحسن جوار وطيب معاملة ، وذلك لا نجده في إسرائيل •

مصر والاستيراد

إن جيلنا يذكر تماماً يوم كانت بلادنا زاخرة بكل جديد وكل جميل ، وكان الناس في البلاد العربية ، وفي إفريقية ، وكثير من مناطق آسيا ، يفدون لها ليجدوا بها كل وسائل المدنية والرقى وكل مطالب الترف والرفاهية ، وكانت مصر منذ أزمنة بعيدة مشعل العلم والنور ومركز العرفان والخير ، فطالب العلم لا يجد سواها في دول الشرق الأوسط ، والمريض يجيء لها مع الأنين ويعود مع الصحة والسلامة ، والمكتئب الحزين يجد في نسيمها الانطلاق والانتعاش •

وكننت في الشرق الأقصى حيث عرفت أن أثرياء العرب الذين استوطنوا إندونيسيا كانوا يفدون إلى القاهرة لشراء جهاز كل عروس من الأسر الغنية ، وكانت العروس من هذه الطبقة إذا لم تحصل على جهازها من القاهرة لا تكتمل فرحتها ، وتعد نفسها خسرت قسطا كبيرا من السعادة •

ومرت الأيام وجدهت ظروف وبلينا بالحرب مع هذا العدو الغادر الخائن ، ووجهنا جزءاً كبيراً من دخلنا للاستعداد لمواجهة (حوالى ١٠٠٠ مليون جنيه سنوياً) وكان لابد من أجل ذلك أن تخلو أسواق القاهرة من مظاهر الترف ، وأن نعيش في شيء من الحرمان النسبى ، وفي نفس الوقت تدفق البترول في كثير من البلاد العربية ، وبينما كنا نسير نحو النقشف من أجل المعركة ، اتجه منتجو البترول إلى البذخ والإسراف فيه ، وبينما خلت أسواق القاهرة أو كادت من وسائل الترف زخرت أسواق « أبو ظبى » و « الكويت » ••• بأحدث ما أنتجه العقل البشرى من وسائل المتع والنعيم •

وحصلت بذلك مفارقات عجيبة ، غفى مصر يعيش المفكرون والمؤلفون في مختلف فروع المعرفة ، ولكن ورق الطباعة وماكينات الطباعة الحديثة قليلة بها ، وغير موجودة أحياناً ، وفي مصر أطباء من أرقى المستويات ولكن صيدليات القاهرة تخلو من بعض الأدوية الضرورية ، وفي مصر

أعظم المهندسين ، ولكن أدوات البناء نادرة ، وفي مصر يوجد الخياطون المهرة للرجال والنساء ، ولكن القماش الفاخر غير موجود

والمصريون يَغْتَشَوْنَ البلاد العربية وبلاد العالم زائرين أو عاملين ، وبراوا هناك ما لم يجدوه بالقاهرة فاتجهوا للاستيراد ، وبالغوا فيه ، فإذا ظهر قماش بالكويت ، اشترت السيدة المصرية منه غسائين بعدد ألوانه ، وهمل الرجل في ملابسه مثل ذلك ، كما اتجهوا لشراء الأجهزة النافعة والأجهزة المسلية على السواء ، وبالغوا في ذلك أيضاً ، وعندما عرّضت قطع الغيار الخاصة بالسيارات اتجه صاحب كل سيارة لشراء رصيد كبير من قطع الغيار قد لا يحتاجه طيلة عمر السيارة ، واتجهوا كذلك لشراء الأدوية ، ولو أن مفعولها قد يبطل قبل أن يحتاجوها .

المهم حصل نكهم في الاستيراد وفي الشراء من الخارج ، وفي تكوين مخزون كبير دون تفكير عميق في مدى فائدة المشتريات ، إذ أصبح خزن البضائع هدفاً في ذاته .

استيراد الأشخاص ولغير ضرورة :

والعجيب أن الرغبة في الاستيراد تعدت الأدوات والمنتجات المرتبطة بالترف والنعيم ، وأصبحت الرغبة في الاستيراد ذاتية ، حتى إذا وجد بمصر ما يفضل الأشياء المستوردة ، ويتضح ذلك تمام الوضوح عندما نرى استيراد الأشخاص الذين يرتبطون أى ارتباط بفن من الفنون ، فالشباب الذى يحترف الغناء فى أى بلد ، لا يجد كالقاهرة مكاناً لإعلاء شأنه ، والحديث عنه ، وتقديمه للناس ، والشاعر الذى لا يسمع به أحد فى بلده ، يجسد بالقاهرة الندوات تقام إليه ، وكبريات الصحف والمجلات تنشر له وتذيع أمره ، والمفكر المسلم الذى لا تعرفه المكتبة الإسلامية ، تقدمه وسائل الإعلام المصرية على أنه فيلسوف مسلم على الشأن عميق الفكر والبحوث ،

إنه فى تقديرى داء الاستيراد تعدى الأشياء إلى الأشخاص ؛ وأضر بنا أكثر مما نفع .

العرب الآن وعرب الأندلس

عشت في تاريخ الأندلس فترة طويلة عندما كنت أكتب الجزء الرابع من موسوعة التاريخ ، وقد كنت أغرق في الدهشة ، وأوشك أن أصرخ عندما أرى الصراع يدور بين ملك عربى وملك عربى آخر من ملوك الطوائف والعدو يتربص بالجميع ، ويمد الجميع بالسلاح ، ويتقدم ليجنى الثمار دائماً سواء انتصر هذا الملك أو ذاك ، فقد كان العدو يرى انتصار أى ملك عربى انتصاراً له واندحار أى ملك فائدة تعود ثمرتها إليه .

كنت أغرق في الدهشة وأنا أقرأ هذه المهازل وهذه الخيبة ، واتساءل كيف اتجه هؤلاء الأوغاد للهو ، وأضاعوا بلادهم ؟ وركعوا تحت أقدام أعدائهم ؛ هؤلاء الأعداء الذين لم يكتفوا بالركوع بل قتلوا الراشعين وأبادوهم ، ألم يدرك هؤلاء أن التاريخ سيدوّن عنهم هذه المخازى وتلك المواقف المزرية ؟ وأن الأجيال تلو الأجيال ستقرأ هذا التاريخ وتلعنهم على إهمالهم وانحرافهم ؟

ولم أكن أعرف أن الأقدار تخبىء لى أحداثاً أبشع وأقسى ؛ لا لأسمع عنها ؛ ولا لأعرف أنها حدثت منذ مئات السنين ، بل لأراها رأى العين وأرى ضحاياها .

إن الصحافة الآن تحمل كل يوم أكثر مما حملت المراجع القديمة عن تاريخ العرب في الأندلس ؛ إن العرب الآن بين نائم ، ومخدوع ، ولامر . وإن كلمتنا هنا محاولة لإيقاظ النائم وتنبيه المخدوع وتوجيه اللاهى إلى الاتجاه الصحيح .

إن الاستعمار وإسرائيل عدوان للجميع ، وإذا كان الثقل يتجه نحو مصر ، ذلك لأنها القلعة التى يمكن أن تقاوم ، وإذا — لا قدر الله — نخرت مصر غابتلاع سواها هين سهل ، إن الذين يغريهم الثراء يجب أن ينتبهوا إلى أن الثراء هو هدف الاستعمار وإسرائيل ، والذين يخلنون

أنفسهم بعيدا يجب أن يدركوا أن الوسائل الحديثة قربت البعيد وقضت على المسافات ، والذين يخطر ببالهم أن يعملوا للتطوير ويهملوا المعركة ، عليهم أن يدركوا أن موقفنا الآن مرتبط بالوجود العربى نفسه ، ومع الوجود يمكن التطور والرقى ، وبدون الوجود لا تطور ولا رقى ، ولم ينتظر شعب هيتنام ليتطور ثم يدفع الغاصب ، ولا انتظرت الشعوب التى جاهدت من أجل الاستقلال ، بل مارست حرباً زادت تدميراً لتثبت وجودها أولا ثم يكون من السهل بعد ذلك أن يجيء دور التطور أو التطوير .

والعدو الذى نقاتله لانصفه بالشراسة أو القوة ، وإنما أبرز مزاياه الغدر وتحين الفرص ، إنه عدو يكره ويحقد ، ويطغيه النصر ويتلذذ بالدم ، عدو كثير الأطماع ، واسع الشُّرَّه ولكنه بجانب ذلك جبان ترعزعه الوقفة الصلبة ، ويهزه الإصرار العنيد فى المعركة ، وذلك حاله على مر التاريخ ، يقسو أمام مَنْ يضعف له ، ويرتعد أمام من يَتَبَتَّ أمامه .

قدر العرب واحد ومن الجهل أن نتناسى ذلك :

وقدر الأمة العربية مرتبط تماما بفضه ببعض ، ولن يكون هناك استقلال لقطر عربى واحتلال لقطر عربى آخر ، فإما حرية للجميع ، وإما عبودية للجميع ، فالأمة العربية وحدة واحدة ، ومن السذاجة أن يعتقد إنسان عربى أن من الممكن أن ينعم بالحرية إذا امتد الاحتلال إلى أى بلد عربى غير بلده .

وجميع المؤرخين يؤكدون أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان مبدأ لخطة ترمى لاحتلال العالم العربى كله ، فإذا كانت مصر أو تونس مثلاً .
تكررت بما حدث للجزائر وعاشت سنينها بعد احتلال الجزائر فى يسر واطمئنان فإن ذلك عين الغفلة وجهل بالتاريخ البشرى ومحرقاته ، ولست أعده الدول العربية بعد احتلال الجزائر إلا فى حالة تخدش وعدم وعى أيقظتها الحقيقة المرة عندما دهمها الاستعمار . ولكن هذه اليقظة جاءت بعد هوات الألوان .

مرة أخرى أريد أن أبرز هذه الحقيقة التي يبسود أنها تخفى على كثيرين ، وإنى لأحس لا بالحسرة ولكن بالإشفاق عندما أرى عربياً يعتقد أن من الممكن أن ينال السلامة وقد نزل الضرر بسواه من العرب ، إنها نظرة سطحية ، نظرة الواهم المخدوع ، إنها فكرة ألقى بها العدو في عقول بعض الأغرار ليجنى ثمارها وينال نتائجها ، ولنعد إلى التاريخ ليؤكد لنا أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان خطوة نحو احتلال الشمال الإفريقي كله بوجه خاص واحتلال الوطن العربي كله بوجه عام ، مهما طال الزمن منذ بدأ التخطيط إلى أن تم التنفيذ .

وكمؤرخ أذكر المفكرين العرب بالمحاولات التي أجرتها الدول الاستعمارية لتقسيم العالم العربي عقب احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ، أذكرهم بمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ وباحتلال تونس سنة ١٨٨١ واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ ومعاهدة فرنسا المصرية مع إيطاليا سنة ١٩٠٠ لاقتسام النفوذ بحيث تكون مراكش لفرنسا وطرابلس وبرقة لإيطاليا ، والمعاهد المكتملة لها سنة ١٩٠٢ واتفاق إبريل السرى سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا ، واتفاق أكتوبر من نفس العام بين فرنسا وأسبانيا وميثاق الجزيرة سنة ١٩٠٦ واحتلال المغرب سنة ١٩١١ واحتلال سوريا والعراق وفلسطين سنة ١٩١٨ .

علينا أن نتذكر هذه التواريخ المتلاحقة وأن نتأكد أن طول المدة بين احتلال أول بقعة وآخر بقعة في الوطن العربي ليس إلا لظروف خاصة لا تغيب عن الفهم الواعي ، وفي ضوء هذا نحذر الذين ينعمون بالاستقلال بأن يومهم آت لا ريب فيه إن لم يجتمعوا بإصرار لتطهير الجسم العربي من هذا الوباء ، ونحذر الذين ينعمون بالغنى بأن غناهم لن يجديهم شيئاً وسيأكله الوباء إن امتد الوباء .

وأقرر كذلك أن بعض الناس يلقون تبعة ما نعانيه الآن على سرعة انهيار الجبهة المصرية سنة ١٩٦٧ ، ويبالغ بعض هؤلاء فيقفون من المصريين

موقفاً قاسياً ، وبعضهم يعود إلى الوراثة فيلقى التبعة على الملك عبد الله وسلوكه سنة ١٩٤٨ ، وخلال السنين السابقة واللاحقة لهذا التاريخ . وبعضهم يرجع أكثر إلى الوراثة فيلقى التبعة على الأمير فيصل الذى اجتمع بوايزمان سنة ١٩١٨ وتعاطف معه ، وبعضهم يلقي التبعة على وعد بلفور سنة ١٩١٧ أو على تقرير خبراء كامبل بفرمان سنة ١٩٠٧ أو على مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ ، ولكن الحق هو أنها حلقات متتالية ومنظمة ، والعدو يشغلنا بأن يلوم بعضنا بعضاً ليعذر هو لجولة تالية ، وإنما نهتف بالعرب أن يفيقوا قبل أن نتتابع الحلقات •

وقد كان من الممكن أن تتأخر حلقة من هذه عاماً أو أكثر من عام ، ولكنها لا بد آتية مادامت السلسلة لم تحطم ، وينبغى أن ندرك أن خطأ شخص أياً كان هذا الشخص لا يمكن أن يؤخذ وسيلة للاضرار بالمجموع أو لتعطيل الاتحاد لمواجهة الخطر ، فإن ذلك هو أسمى ما يتطلع له العدو • وخطأ فرد هو أقل ما يمكن أن نقع فيه لأن العصمة لله وحده ، بل هناك ما هو أبعد من الخطأ ، هناك احتمال الخيانة يقوم بها شخص أو أكثر من شخص بدافع الأنانية أو التدهور النفسى ، وحتى هذا لا يمكن أن يكون وسيلة ضد الهدف الأسمى وهو الاتحاد ، فعلى الطريق دائماً يقابل السائر أنواعاً من العقبات ويقاس جهد الإنسان بمقدار ما يحقق من نصر على هذه العقبات •

وقد عرف تاريخنا الوسيط بعض الخيانات ارتكبها بعض الحمقى ، ولكن أجدادنا لم يتخلوا عن التعاون بسبب هذه الخيانات بل أوقعوا بالخائن مع استمرارهم فى المسيرة حتى حققوا التعاون الكامل وبالتالي حققوا الانتصار •

وعلى هذا فلقاء العرب وحدة واحدة لمواجهة العدو شئ ضرورى ووسيلة وحيدة للحفاظ على وجودهم وكيانهم ، وأرجو ألا تقف نقاط الخلاف عقبة دون الوصول إلى الوحدة ، فإنه إذا كانت هناك نقاط خلاف فإن هناك نقاط التقاء كثيرة جداً ويتحتم أن نتخذ أساساً للقاء •

اقتراح عملي لمشاركة العرب في المعركة :

إن من الممكن أن يتعاون أى بلد عربى يتجه اتجاهها اشتراكيا مع أى بلد عربى آخر له نزعة رأسمالية ، ولكن ليس من الممكن أن يعيش أى بلد عربى فى أمن بجوار إسرائيل أياً كان اتجاهه الاقتصادى ، وقد التقت الاتجاهات العربية جميعاً بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعاونت مادياً لتعيد بناء نفسها ، ولكن هذا التعاون أراه تعاوناً أعرج ، إنه أشبه بمنحة تقدمها دولة إلى أخرى مع شئ من المن ، والذي أراه أن تكون هناك نسبة معينة من كل ميزانية ، ونسبة معينة من سكان الأقطار العربية ليقف هؤلاء العرب فى صف واحد بالمعركة وليتفق عليهم من المال العربى ، وتدار المعركة بفكر عربى مشترك ، ويتجدد دفع الرجال من كل قطر إلى الميدان ، ودفع المال من كل ميزانية دون تردد حتى تنتفش الغمة •

أسلحة أقوى من الفانتوم :

قد يقول المترددون والخائفون : إن انتصار العرب صعب مادامت أمريكا تؤيد إسرائيل ، تأييداً واسعاً ، أو بالأحرى مادامنا نحارب أمريكاً مع إسرائيل ، ومادامت روسيا مترددة أو متورطة فى دورها الجديد مع أمريكا فلن تمدنا بما نحتاجه من سلاح ؟

وأقول لهؤلاء فى قوة الأب الذى يعلن افتخاره بأنه مستعد أن يلقى بأولاده فى الميدان ، وأن يسخّر كل قواه للمعركة ، أقول لهم : إننا معنا سلاحاً أمضى من أسلحة أمريكا وإسرائيل ، ويتحتم علينا أن نستعمل هذا السلاح الذى أثبتت كل التجارب قوته وفاعليته : إنه السلاح الذى يواجه به الشباب الأعزل فى إيرلندا كل قوى بريطانيا ، إنه السلاح الذى واجهت به إندونيسيا وهى عزلاء أسلحة هولندا وكل قوى الغرب عقب هزيمة اليابان ، إنه السلاح الذى صمدت به الجزائر أمام فرنسا إحدى الدول الكبرى التى كانت تعد الجزائر جزءاً منها •

إنه الدم والإيمان والتضحية ، حتى لو استطعنا أن نقتل فرداً واحداً من اليهود نخلير مائة منا ، لأنه ألا نعيش عبيداً خائفين على المباني الضخمة من الغارات ونسمح بتدمير النفوس والتراث والمكانة الاجتماعية والدولية •

ذلك في تقديري هو السلاح ، أما الأغاني التي نحارب بها فسلح هزيمة ، وأما الهتافات التي نستعملها والشعارات التي نرفع أصواتنا بها فسلح ضياع ، والعدو يهزمنا بسلاحه مرة وبالكمد مرة أخرى ، فحكم من أحرار يموتون هما ونكداً لما وقعنا فيه ، ثم هو يهزمنا بالزمن ، فآلاف الملايين من الجنيهات التي تنفق للاستعداد بدون معركة هي في الحقيقة سلاح ضدنا لأنها تدع الناس في حيرة وفي حرمان وفي اضطراب .
اقتصادى غير محدود الأجل •

ويوم ندخل المعركة على هذا النحو سنحرك ضمير العالم الذى يتهمنا بالتردد ، ولا يرى — بسبب سكوتنا — أزمة في منطقتنا •

ويوم ننال النصر بهذا الطريق سيكون الفخر لنا جميعاً ، ولن يوجد أناس ينعمون بالحرية على حساب دماء الآخرين وحرمان الآخرين ، ويوم نفعل ذلك سننجز من حساب التاريخ ، الذى أخشى أن يسجل علينا ماسجداً على عرب أسبانيا ، فتموت وتبقى لعنات التاريخ تنصب على الذين عاصروا هذه الفترة وأهملوا ، ولعلنا بذلك نكون قد بلغنا ، فالحلم أشهد •

* * *

اعداء مصر يتظاهرون بالود لها :

بقيت نقطة كبيرة الأهمية ترتبط بالتقاء العرب في مواجهة العدو ، وهذه النقطة هي من مشاهداتى التي تأكدت منها في المؤتمرات العامة التي شرفنى أن كنت أحد ممثلى بلادى بها ، وخلاصة هذه النقطة أن هناك جماعات تتظاهر بالعروبة ، وهم لا يربطهم ولاء للعروبة ، يتظاهرون بحب مصر ليحاربوا مصر ، وقد رأيتهم يقاومون بشدة كل اتجاه يرمى لوحدة

العرب ، وأحسست من تحركاتهم أنهم يقصدون عزل مصر ، وإضعاف مصر ، ويتخذون أساس ذلك كلمات مثل : الرجعية والتقدمية ، أو الرأسمالية والاشتراكية فإذا قلت لهم إن هناك نقاط التقاء مهمة ينبغي أن تتغلب على ما يمكن أن يكون من نقاط الاختلاف ، صاحوا يرجفون ويكيلون المتهم لهؤلاء وأولئك ليباعدوا بين دول العرب •

أتمنى أن نكشف هذه الانحرافات ، ولعل الصيحة التى أدلى بها الرئيس أنور السادات فى عيد العمال سنة ١٩٧٣ مُعدِّداً المملكة العربية السعودية والمغرب والعراق بين الدول التى تلعب دوراً مهماً فى مواجهة الشاملة ، لعل هذه الصيحة تُسَكِّت هذه الأصوات التى تهمس فى الظلام ، والتى تتخذ من الهزيمة سلعة تَربح على حسابها ، مهما كانت التضحيات المادية والأدبية التى تنزل بالوطن العربى وبدين الإسلام •

إننا نصرخ بأن جماعات لا تدين بالوفاء لوطننا ، ولا تدين بالولاء لديننا ، تريد الشر لهذا الوطن ، والضعف لهذا الدين ، وتتخذ من هذا الوضع القائم وسيلة لها ومن التظاهر بحب مصر أداةً لتنفيذ خططها • فلنكشف هذه الجماعات المنحرفة ، ولنبعداها عن الطريق ، لتعلو كلمة الله •

مراكز الفكر الإسلامى بمصر

ينبغى أن تعيد النظر فى جهودها

ما هى مراكز الفكر الإسلامى بمصر ؟

إننا دون تردد نضع الأزهر فى قمته ، ثم نضع كلية دار العلوم ، ومعهد الدراسات الإسلاميه ، ووزارة الأوقاف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلاميه ، وجمعية الشبان المسلمين ، والجمعية الشرعيه •

وهل هناك مراكز إسلاميه أخرى بالعالم الإسلامى ؟

نعم هناك مراكز أخرى عديدة ، ولكن يمكن القول إنها صدى للمراكز الإسلاميه بمصر ، وإيها تحاكيها فى مناهجها وطرقها ، وتستعير من مصر أساتذتها غالباً ، ومن هنا كان الحديث عن المراكز الإسلاميه بمصر حديثاً يشمل فى طياته كل المراكز الإسلاميه بالعالم أو أكثرها •

وأنا واسع الصلة بالمراكز الإسلاميه بمصر كلها :

تعلمت فى الأزهر وعلمت به وعضو فى لجنة القرآن الكريم التى ألفتها مجمع البحوث الإسلاميه •

وأشغل وظيفة استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلاميه بكلية دار العلوم •

وأقوم بتدريس مقارنة الأديان والتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلاميه بمعهد الدراسات الإسلاميه •

كما أقوم بتدريس هذه المواد بمعهد الإمامة الذى تشرف عليه إدارة التدريب بوزارة الأوقاف •

• عضو لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية •

• وعلى صلة وثيقة بالشبان المسلمين وبخاصة بفرعها بالزقازيق •

وعلى صلة وثيقة كذلك بالجمعية الشرعية وبخاصة بمساجدها ومعاهدها

• بضاحية المعادي حيث أعيش •

ومن هنا فإني أستطيع أن أتحدث عن جميعها حديث عارف خبير وفي

الوقت نفسه حديث راغب في الخير ساع إليه •

الأزهر وما يرجى منه :

! واقد تحدثنا عن الأزهر من قبل ووضَّحنا حالته وما آل إليه ، وذكرنا أن الكليات الإسلامية به لاتزال تعيش مرتبطة بالماضي وغير متطورة مع الزمن ، وأشهد ويشهد معي عشرات الأساتذة أن خريجى الأزهر الذين تلتقى بهم في معهد الإمامة ، والذين يثسند لهم التعريف بالإسلام والدعوة له في الداخل وفي الخارج أئمة ووعاظا ، هؤلاء غالبا في حالة يرشى لها ، ويبعيدون كل البعد عن المستوى اللائق ولا أقول المستوى الرفيع ، وقد يغضب من هذا الكلام من لا يعرفهم ، وقد يغضب منه أولئك الذين لم يفدوا لنا بعد بهذا المعهد ، أما الذين جاءوا لنا وسمعوا منى ومن سواى ، فإنهم أدركوا قصور ما قدّم لهم من فكر حول الإسلام والحضارة الإسلامية • وأشهد الله أن الكثيرين منهم ضحايا الإسرائيليات ، يدافعون عنها بحماسة أكثر مما يدافعون عن الفكر الإسلامى السليم ، اذ اختلط هذا وذاك عليهم • وفي كلمة واضحة نقرر إن الدراسات بالمعاهد الأزهرية وبالكليات الإسلامية بالأزهر أقلّ جدّا من المستوى اللائق ، وقد وصلت الحال إلى أن كليات التربية بجامعة طنطا والزقازيق ... رغضت قبول الطالبات الحاصلات على ثانوية الأزهر ، بعد أن ثبت ضعفهن ، إذ كانت نتيجة النجاح لهؤلاء في كليات التربية حوالى ١٣ ٪ •

وكم كنت سعيدا عندما تلقيت خطابا باختيارى عضوا فى لجنة القرآن الكريم التى ألفها مجمع البحوث الإسلامية • ولكنى عندما اتصلت بأعمال هذا المجمع هالنى حاله • وأدركت أن دواء ناجعا يتحتم أن يقدم له • وإلا ضاعت الآمال التى تعلق عليه •

كلية دار العلوم بين اللغويات والعلوم الإسلامية :

وكلية دار العلوم حققت الكثير من التقدم فى العلوم الإسلامية • ولكن لايزال موكب اللغويات يهاجم العلوم الإسلامية ويهاجم الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ويوشك أن يراها علوماً دخيلة ينبغى أن تنكش ليسطيع الطالب أن يرفع المبتدأ وينصب المفعول به ••••• وتساءل هؤلاء الذين يهاجمون العلوم الإسلامية : ما الكلام الذى سيقوله الطالب ليطبّق فيه قواعد اللغة العربية ؟ ولكنهم لا يجيبون ، كأن القواعد أصبحت هدفا لذاتها ، وهى فى الحق وسيلة يستعملها الطالب وهو يتحدث فى التاريخ الإسلامى أو يتحدث عن التشريع الإسلامى ، ولايزال الصراع قائماً ، وأخشى ما أخشاه أن ينتصر صوت القواعد فيحفظ الطلاب ألفية ابن مالك ويشرحونها ويعرفون بحور الشعر وقوافيه والخبن والخزل ، ثم لا يعرفون فكرا ولا يقرعون شعرا ، بل أخشى أكثر من ذلك ، أخشى أن تنتصر الأصوات التى ترى القواعد غاية ما يترجى ، ثم لا يجيد الطلاب هذه القواعد ، وبهذا يخسرون الفكر الإسلامى والقواعد جميعاً ، إن العلوم الإسلامية بكلية دار العلوم أصيلة ، وإن لهذه الكلية طابعا متكاملا خاصا ينبغى الحرص عليه ، فيه وحده أخذت هذه الكلية مكانتها فى مصر والعالم ، وبه وحده تستطيع أن تواصل دورها المفيد •

معهد الدراسات الإسلامية :

أما معهد الدراسات الإسلامية فيؤدى خدمة عظمى لأنه يقبل من يتقدم له من خريجي الجامعات والمعاهد العليا كلها ، ويقدم لهم مجموعة

الدراسات الإسلامية ، وكنت أسمى طلاب هذا المعهد « الهواة » ؛ فهم حاصلون على شهادات عليا • ويعملون كل في تخصصه ، ثم يلتحقون بالمعهد للتعرف على الفكر الإسلامى ، ويمكن أن تتم الدراسة بهذا المعهد بالانتساب للطلاب الذين يعيشون بمنأى عن القاهرة •

وهذا كله يغرى الراغبين فى التعرف على الدراسات الإسلامية بالالتحاق بهذا المعهد ، ويغرى كذلك الطلاب الراغبين فى مزيد من الدراسة بعد الشهادة العليا ، وليست لهم تقديرات تتيح لهم الالتحاق بأقسام الدراسات العليا بكلياتهم ، وكذلك أولئك الذين ليست هناك دراسات عليا فى المعاهد التى تخرجوا منها •

وقد كان لى الشرف أن اشتركت فى التدريس بهذا المعهد عدة سنوات ، فى عهد المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربى مع نخبة من أساتذة الدراسات الإسلامية الذين وضعوا مناهج ممتازة للتدريس بهذا المعهد ، وبعد وفاة الأستاذ الدكتور العربى أسندت قيادة المعهد لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى • ودعانى فضيلته للعمل معه بالمعهد فقبلت ، فالدعوة للإسلام هدف أحرص عليه ، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور أعمل فى هذا المعهد العظيم ، والعلوم التى توليت تدريسها به هى التاريخ الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، ومقارنة الأديان ، وكان اقبال الطلاب المنتظمين والمنتسبين على هذه العلوم اقبالا ملحوظا •

معهد الإمامة محاولة طيبة :

ومعهد الإمامة الذى أنشأته وزارة الأوقاف يؤدى مهمة ضخمة إلى أبعد حد ؛ إنه يتلقى مجموعة كل شهر من الأئمة والوعاظ ، وهم فى الحق أوضح دليل على ما وصل له مستوى الدراسة فى الأزهر من ضعف ؛ إن معلومات أكثرهم ضئيلة جداً كما وضحتنا من قبل ، والأحدث تخرجاً منهم أقل معارف من القدامى مما يدل على أن مستوى الانحدار يزداد يوماً بعد

يوم ، وعمل الإمامة والوعظ عمل رفيع المستوى في ذاته ، فهو يضع العالم في موضع المعلم للجماهير ، وكم في الجماهير من مثقفين ومطلعين ، وإذا خسر الإمام الجولة في خطبة الجمعة أو خسر الواعظ الجولة في وقفات أمام سامعيه فإن الناس يتنحون عنه ، ولا يرون أملاً في علمه أو فائدة من الاستماع إليه ، فلا يبقى أمامه إلا العامة الذين لا يعون ما يسمعون ولا جدوى فيما يعرفون •

قد يشغل خريج الأزهر منصب مدرس بالمدارس الإعدادية ، وهذا المنصب يقى صاحبه الحرج ، فصببان المدارس الإعدادية قليلو المعرفة ، وهناك كتاب محدد لمنهاج اللغة العربية وضعه نخبة من رجال التعليم ، وليس على المدرس إلا أن يتدارس هذا الكتاب ويشرحه للتلاميذ ، وهذا شيء ممكن بل يسير ، أما عمل الإمام والواعظ فرفع المستوى ، لأنه يلتقى بجماهير مختلفة الثقافات ، وعليه أن يؤثر في سامعيه وإلا انفض عنه السامعون •

وقد أدركت وزارة الأوقاف حالة هؤلاء فأقامت هذا المعهد لتقديم دورات تدريبية إليهم • ولكن ما مدى فائدة هذه الدورات ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهم طبيعة الدورة ، فالدورة التدريبية مدتها ثلاثة أسابيع ، ويشترك في تقديم المحاضرات بها عدد كبير من الأساتذة ، بل يشترك كذلك رجال الإدارة ليقدموا للوعاظ والأئمة أفكاراً ترتبط بما يزاولونه من أعمال إدارية ومالية ، وتبدأ المحاضرات من الثامنة صباحاً وتظل حتى الثامنة مساءً باستثناء فترة قصيرة في الظهيرة للغداء والراحة فالعمل مرهق للغاية ، وهو عبارة عن دوامة تدور بسرعة ؛ فأستاذ يخرج ، وأستاذ يدخل ، وتدفق في المعلومات ، بل تضارب فيها أحياناً ، فبعض الأساتذة محافظون وبعضهم متطورون ، بعضهم يدافع عن حديث منسوب لسيدنا رسول الله ويراه صحيحاً وأن رواته عدول ، وبعضهم يرى هذا القول موضوعاً ولا يتمشى مع الفكر الإسلامى الحقيقى.

ولا مع التفكير السليم ، وإن أردت مثالا لذلك قلت لك أحاديث رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وحديث تردد سيدنا رسول الله بين ربه وبين موسى ليلة المعراج لتخفيض عدد الصلوات

وتنتهى الدورة بعد الأسابيع الثلاثة أو أحيانا قبل أن تتم هذه الأسابيع ، وقل لى بربك ماذا يمكن أن يعرف هؤلاء الشيوخ من مدة كهذه ، وليست لديهم مدة للاستذكار ؟ ولا مكتبة يرجعون إليها حيث تلقى المحاضرات ؟ ولا مكتبة ذات بال فى مساجدهم ومقار أعمالهم ؟

كل ما نعمله أننا نحاول أن نفتتح أمام الشيوخ منافذ للعلم ، وإن خبرهم أن هناك جديداً مهما فى مجال الدراسات الإسلامية ، وندعوهم للاطلاع حتى يتعرفوا على هذا الجديد ، وليتفهم يفعلون •

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

ونصل الآن إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واسمع مرة أخرى هذا العنوان العظيم « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » ... لاشك أن هذا العنوان يهزك هزاً ، ولاشك أن الصورة التى ترسمها له كبيرة ومثيرة ، ومن أجل هذا كنت سعيداً كل السعادة عندما تلقيت خطاباً فى مطلع الستينات باختيارى عضواً فى لجنة « التعريف بالإسلام » ، وهى لجنة مهمة جداً من بين لجانها كما يتنبىء بذلك اسمها ، ولكن يبدو أن الأسماء بهذا المجلس ليس لها مدلول دقيق ، ولهذا فإننى أريد أن أعرفك بهذا المجلس :

سلطات هذا المجلس كانت فى يد السيد الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وهو شاب مهذب رقيق ، كان من قبل أحد الضباط بالجيش ، وهو يتولى السلطات الكاملة بالمجلس كسكرتير عام له يعاونه بعض الإداريين •

وبالمجلس لجان تحمل عدة أسماء : الخبراء — الحديث — التعريف

بالإسلام .. ويختار الأعضاء لهذه اللجان بمعرفة السكرتير العام نفسه أو بترشيح من وزراء الأوقاف ، وفي لجنة التعريف بالإسلام التي أتشرف بالانتماء إليها مجموعة من صفوة الأساتذة والمفكرين ، وقد هزغنى اسمها عندما وقع على الاختيار لعضويتها ، وكنت من أسبق الأعضاء بها ، وكان عددنا لا يتجاوز أصابع اليدين ، وطلب الأعضاء منى أن أعد تقريراً لتسير عليه اللجنة فى عملها ، فبحث أبحث وأدرس ، ووضعت تقريراً حافلاً ، فقد أخذت الأمر مأخذ الجد ، وقلت إن التعريف بالإسلام يكون بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، وحددت اللغات التى تكتب بها الكلمة أو تقال ، والأشخاص الذين يكتبون عن الإسلام أو يتحدثون عنه ، كما حددت الموضوعات والأماكن التى ينبغى أن تغمرها هذه الأحاديث والكتب بالداخل والخارج .. وعرض هذا التقرير الحافل على اللجنة ، فتمتدنته فى عدد جلسات ، حذفته منه وأضافت إليه ، ثم أقرته .

تسألنى : ماذا حدث له بعد ذلك ؟ فأقول فى إيجاز : غمره النسيان ولم نعرف عنه أى شىء ، كأنه كان هدفاً وصلنا له وآثرنا السلامة بعد ذلك ، وأصبح هذا النسق هو خط العمل بهذه اللجنة ، فموضوعات تثار وتقارير توضع ، ومناقشات تدور ، وقرارات أو ليكن تسميتها اقتراحات تحدد . وترفع للسكرتير العام ويطوئها النسيان بعد ذلك تماماً . لا متابعة ولا مراجعة ولا نتائج ، وقد أصبح عدد أعضاء هذه اللجنة حالياً حوالى الخمسين ، وأصبحت تضيق بهم الحجرة الرحبة غنية الأثاث التى يجتمعون بها ، ومع هذا فالعمل هو العمل ، أو قل إن عدم العمل المنتج ، هو دستور العمل بها .

ومن أعمال هذه اللجنة فحص بعض الكتب التى يتقدم بها أصحابها لطبع على حساب المجلس ، ويحول كل كتاب (والأجدر أن نسميه مشروع كتاب) إلى لجنة لفحصه وكتابة تقارير عنه ، وتلقى التقارير فى اجتماع اللجنة ، ويدور نقاش طويل قد يستغرق جلسة أو جلستين وتقبل اللجنة

الكتاب بعد ذلك أو ترفضه ، ولو قارنا الجهد الذى يبذل والمكافآت التى تصرف للأعضاء فى هذه الجلسات لأدركنا أن ذلك يفوق الكتاب بكثير ، ثم إن الكتاب الذى يُقْبَل يأخذ دوره بين قائمة الكتب التى يطبعها المجلس تبعاً لإمكانياته ، وتجربتي فى الكتاب الوحيد الذى طبعه المجلس لى باللغة الفرنسية أنه صدر بعد خمس سنوات من إقراره ، وكنت خلالها غيرت رأى فى كثير مما كتبت به منذ سنوات .

ومن أجل إحساسى هذا نحو المجلس وأعماله توقفتُ عن حضور الجلسات فلم أجد جدوى فى مواصلة الجهد لغير طائل ، ولكن أملى فى مستقبل أنصر لهذا المجلس ، وحرصى على لقاء رفاق العمل فى لجنة التعريف بالإسلام جعلنى أحضر الجلسات مرة كل شهر أو كل شهرين ، بدل الحضور كل أسبوع ، فالجهد الضائع عمل لا يرضى الله ولا يرضى الضمير .

وهناك مؤتمرات إسلامية يدعى لها المجلس الأعلى ، ويمثل السيد السكرتير العام وفد مصر فى هذه المؤتمرات ومعه بعض الإداريين ، قلما صاحب معه بعض العلماء ، ولا شك أنه من الأجدر أن يكون وفد مصر من الباحثين المسلمين الذين يستطيعون أن يتكلموا بعمق فى الدراسات الإسلامية ولا بأس أن يكون معهم الأستاذ محمد توفيق عويضة رئيساً للوفد ليباشر بعض المهام السياسية أو التنظيمية .

ويصدر المجلس مجلة « منبر الإسلام » كل شهر ، ومن الممكن أن تصبح أكثر عمقاً وأصاله ، ويقدم مجموعات مما يطبعه من كتب لبعض البلاد الإسلامية وبعض المكتبات الإسلامية ، وليست هذه هى البضاعة التى يرجى من المجلس ولو رأى المجلس صناديق الكتب التى يرسلها ثم لم تفتح فترة طويلة ، واسطوانات الصلاة التى لا يصلّى أحد تبعاً لها ... لو رأى المجلس ما يعمل وما يمكن أن يعمل لتوقف وقفة تصحيح ووقفه إصلاح ، ولو قارن المجلس أعماله بأعمال المجالس المماثلة التابعة للأديان الأخرى لأحدث حركة تغير شاملة ، وليته يفعل .

وبعد ، فعندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وبها الدراسة السابقة كان وقعها شديدا على الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وقد كنت أطمح أن تسهم كلماتي في إصلاح الأحوال بالمجلس ، وكما وصفت الداء وصفت الدواء ، ولكن الأستاذ محمد توفيق عويضة لم يتعود أن ينقده أحد ، أو أن يتحدث أحد عن المجلس بغير الثناء ، ولهذا ضاق بكلماتي ، وهدد وزمجر ، ولكنى أرحته من ذلك فكل مايسقطيعه كان أن يفصلنى من عضوية لجنة التعريف بالإسلام ، ففصلت نفسى ، وتوقفت تماما عن حضور الجلسات ، وتم بعد ذلك تغيير فى المجلس ولم أصبح عضوا به والحمد لله .



وفيما يلى موقفان جديدان عن هذا المجلس :

المجلس وموسوعة جمال عبد الناصر

للفقه الإسلامى

من أهم الأعمال التى أقدم عليها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية اخراج موسوعة للفقه الإسلامى أسماها « موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى » وحفلَ هذا العمل بأخطاء تتصل بالتخطيط والتنفيذ والمتابعة ، ففشل هذا العمل فشلاً تاماً بعد أن أنفق عليه مئات الألوف من الجنيهات ، وفى تقرير شامل عن هذا العمل كتبت ما يلى :

الموسوعات

بين النظرية والتطبيق

ألزمتنى دراساتى أن أطلع على مجموعة من الموسوعات العربية والانجليزية ، ومن الموسوعات العربية التى اطلعت عليها :

دائرة معارف وجدى (١٠ أجزاء) ودائرة معارف البستانى التى أخرج منها بطرس البستانى ستة أجزاء فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم حاول تلاميذه ومريدوه إكمالها بعده ، ومثل الموسوعة العربية الميسرة (مجلد واحد) .

ومن الموسوعات الانجليزية التى اهتمت بالاطلاع عليها :

The Encyclopaedia of Islam
The Encyclopaedia of Religions and Ethics
The Encyclopaedia Britannica
The Encyclopaedia of Education

وكان واضحاً أن الموسوعة تكون أحياناً مطلقة فتحتوى خلاصة لما يدخل فى دائرة العلم الإنسانى مثل الموسوعة البريطانية أو الأمريكية

أو الفرنسية ، وتكون أحياناً مرتبطة بفرع واحد من فروع المعرفة مثل
موسوعة التربية التي ذكرناها من قبل أو موسوعة العلوم الاجتماعية •

وتسير الموسوعات على الترتيب الأبجدي ، ويتجه الاهتمام في
الموضوعات إلى ذكرٍ مُوجَزٍ مركّزٍ للنقطة موضوع البحث ، ثم تقدّم
مراجع لمن يريد مزيداً من التوسع ، ويطلب أن يوقّع الكاتب على الموضوع
الذي يكتبه ليتحمل مسؤولياته العلمية والأدبية •

وقد كان للمسلمين دور كبير في كتابة الموسوعات ، فقد وضع الفارابي
كتاب « إحصاء العلوم » الذي كان قمة في البحث والدراسة ، ووضع
النويري موسوعته الكبيرة « نهاية الأرب في فنون الأدب » في ثلاثين مجلداً ،
ثم وضع عدد كبير من المسلمين كتب التراجم التي تعد نوعاً من الموسوعات
ويقول عنها Von Grunbaum : « إن مجموعة كتب التراجم التي أنتجها
المسلمون لشيء يدعو إلى الدهشة والإعجاب لكثرتها ودقتها ، وما جمعتها
من مادة رائعة ، وإن علماء الغرب في العصور الوسطى ليس لديهم مايقارن
بنتاج معاصريهم من العرب في هذا الميدان » •

وفي الحقيقة إن مجموعة كتب التراجم لتمثّل جانباً غنياً في الأدب
العربي ، وهي بجانب كثرتها منظمة تنظيمياً دقيقاً ، فلأطباء تراجمهم
الحافلة ، وللأدباء والأعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم
وسيرهم ، وهناك بجانب — هذا التوزيع العلمي — توزيع زمني مثل
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في أعيان القرن
التاسع ، والكواكب السائرة من تراجم علماء المائة العاشرة ، و خلاصة
الأثر في تراجم علماء القرن الحادي عشر ، وسلك الدرر في ذكر أعيان
القرن الثاني عشر ، وهكذا •

وقد كوّن الأزهر الشريف لجنة لكتابة موسوعة الألفاظ القرآن الكريم
كان لى شرف عضويتها ، وقد اتخذنا لذلك الخطوات التالية :

١ — جمع كلمات القرآن الكريم •

٢ — ترتيبها ترتيباً أبجدياً •

٣ — ربط كل كلمة بموضوعها ، فهناك كلمات يتحدث عنها مؤرخ ،
وكلمات يشرحها الأطباء أو الجغرافيون أو علماء الجيولوجيا وهكذا •

٤ — ذكرنا ضرورة الاختصار غير المخل في شرح هذه الكلمات بحيث
لا تتجاوز الكلمة صفحة واحدة ، فالذى يكتب عن غزوة بدر يكتب أهم
عناصرها ويوقع باسمه ويذكر أهم المراجع التى يمكن أن يرجع
إليها من يطلب المزيد من المعلومات ، وهكذا ، لتكون الموسوعة فى متناول
الجميع ، وحتى تؤدى دورها فى سرعة إعطاء القدر الكافى من الفكر
للباحث •

وتوقف العمل فى هذه الموسوعة ويقال إن حكومة العراق بعثت تطلب
أن تتبنى هذا العمل وتنفق عليه ، ثم حدثت الخلافات السياسية التى
أوقفت سير العمل ، ولهذا ينبغى أن ترصد مصر لهذا العمل الجليل
ما يستحقه من جهد ومال •

تلك فكرة سريعة عن الموسوعات ، ولكن لى علاقة بموسوعة : (تحت
التأليف) هى موسوعة الفقه الإسلامى ، وهذه الموسوعة هى التى دفعتنى
لكتابة هذا المقال ، وموسوعة الفقه الإسلامى يقوم بإخراجها المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية ، وكانت تسمى « موسوعة جمال عبد الناصر
للفقه الإسلامى » فلما انتهى عهد جمال عبد الناصر سُميت « موسوعة الفقه
الإسلامى » وقد حصلت على نسخة منها ، ويشهد الله أننى سررت غاية
السرور عندما حصلت عليها معتقداً أنها ستقدم لى عوناً كبيراً فى الدراسات
الفقهية التى كثيرا ما أحتاج إليها ، وما إن حصلت عليها حتى عكفت على

الاطلاع عليها دون تأخير ، وسرعان ما صُدِّمْتُ صدمةً قوية لا أعتقد
أننى صدمت مثلها عند قراءة أى كتاب من قبل .

ماذا فى موسوعة الفقه الإسلامى ؟

إننى سأضع أمام القارئ لإحصاء دقيقاً ينبغى عنى فى الحديث عن
هذه الموسوعة ، ولكنى أبدأ بأن أهد لذلك بأن أذكر أن المكلفات كانت
تدفع للباحثين حسب عدد الكلمات والصفحات بالإضافة إلى مكافأة
الجلسات التى كان يحصل عليها نفس الأشخاص ، وبسبب ربط المكلفات
بالصفحات حدثت فى هذه الموسوعة مزالق خطيرة أعرضها على القارئ
فى هذا الإحصاء الناطق :

أولاً — صدر من الموسوعة ١٥ جزءاً من القطع الكبير ويقع كل جزء
فى حوالى ٤٠٠ صفحة .

ثانياً — هذه الأجزاء كلها لم تشمل إلا نصف حرف الألف فقط وبدقة
إلى الألف مع العين (كلمة إعادة) .

ثالثاً — استغرق العمل فى هذه الأجزاء عشرين عاماً .

رابعاً — للرغبة فى كثرة الكسب امتد الحديث عن الكلمة الواحدة فشمل
مئات الصفحات أحياناً ، ونماذج ذلك كثيرة منها كلمة إجارة التى استغرقت
من ص ١٩٩ إلى صفحة ٣٣٠ بالجزء الثانى ، وكلمة إسكان من ص ٥ إلى ١٦٢
بالجزء التاسع ، وكلمة اشتراط من ص ١٣٩ إلى ص ٢٦٩ بالجزء الحادى
عشر ، وكلمة إشهد من ص ٣٦ إلى ص ٣٦٨ بالجزء الثانى عشر ، وكلمة
إعادة التى استغرقت الجزء الخامس عشر كله .

خامساً — للرغبة فى الإسراع بالكسب نُقلت كلمات كثيرة جداً من
موقعها الطبيعى إلى حرف الألف فكلمة « أبى » كان مكانها الطبيعى كلمة
« رى » ولكن جىء بها إلى الجزء الأول لسرعة الكسب ، وجاءت كلمة

« الاشتباه في الطهارة » بحرف الألف ، ومكانها الطبيعي كلمة « الطهارة » في حرف الطاء ، حيث يتحدث الفقهاء عن الطهارة ، ثم يتحدثون عن الاشتباه فيها ، وخلق كلمة إشهاد ومكانها الطبيعي « الشهادة » في حرف الشين ، وغيرها كثير جدا .

سادساً — إذا كانت هذه الأجزاء قد استغرقت ٢٠ عاماً فمعنى هذا أن الموسوعة تحتاج إلى حوالى مائتى عام لتكتمل أو بلفة أخرى إلى عدة أجيال من المفكرين .

سابعاً — إذا كان نصف حرف الألف قد استغرق ١٥ جزءاً فمعنى هذا أن الموسوعة ستكون في حوالى ٢٠٠ جزء وهو قدر يجعل الاستفادة منها غير ممكنة ، ويحتاج إلى حجرة كاملة لاستيعابها .

ثامناً — إن النفقات لاتمام هذه الموسوعة ستكون باهظة جداً بدون أية فائدة ترجى منها .

وكل هذه المزالق نتجت لأن التخطيط للموسوعة لم يكن سليماً ، فقد كان من الطبيعي أن تعد أولاً الكلمات التي تدرس في هذه الموسوعة وأن ترتب ترتيباً دقيقاً ، ثم أن يحدد قدر من السطور لكل كلمة بحيث لا تزيد الكلمة عن صفحة واحدة أو صفحتين على الأكثر مع إعطاء مراجع لمن يريد مزيداً من التفاصيل .

وأخيراً فنحن نسأل : من المسئول عن ضياع هذا الجهد وهذا المال ؟ وهو سؤال لا نحب أن نجيب عنه ، فلنحاول أن نغضب أحداً أو نشهر بأحد ، ولكنها قضية دينية وطنية التزمت أن أعرضها فقط لعلنا نعود للموضوع بإصلاح خطته ، وإصلاح أدائه حتى لا نستمر في عمل يأكل الجهود والأموال ويغضب الله ولا يرضى أحداً على الإطلاق ،

وتسألنى ما الطريق للإصلاح ؟

والإجابة التي لا تعرف المواربة هي أن نهمل الأجزاء التي طبعت تماماً فليس فيها ما يغني عن الإطلاق ، ونطلب من الله العوض للجهنم الذي بذل بدون تخطيط سليم ، ومئات الألوف من الجنهات التي أنفقت على غير جدوى ، ونطلب من الله المغفرة لجيل من الشيوخ انتقل أكثر إلى رحمة الله ، ونبدأ في العمل من جديد بطريق سليم وتبعاً للخطة التي أوردناها ، أو لخطة أحسن منها ، على أن تتم الموسوعة كلها فيما لايزيد عن عشرة أجزاء ، ويمكن أن يكتمل هذا العمل في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات على الإطلاق عندما نتبع التخطيط الدقيق والعمل الذي يراد به وجه الله .

وماذا يقول الباحث عندما يتذكر أن هذا العمل قام به رجال الدين وأنفق عليه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؟ وإذا ضعف هؤلاء عن إخراج عمل ديني سليم فإلى من نلجأ ؟

ولكن الأمل لا يزال موجوداً ، والخير كذلك لا يزال موجوداً ، والفشل في عمل يجب ألا يلاحقنا ولا يخيفنا ، فالنجاح ممكن لو حسنت النيات ، وهناك بلا شك نوايا كثيرة حسنة .

هل نحاسب الذين قصروا أو نتركهم لحساب الله ؟ الإجابة ليست لي بل هي لك أيها القارئ وللدولة .

كلمة واحدة نعلنها وهي أنه لو أن هذا المجلس أقيم لوجه الله .
لوضع على قمته متخصص في الشئون الإسلامية ، وكان الأمل في استقامة الحال أوسع وأعمق .

موقف آخر

للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

هذا الموقف تبرزه وثيقة نشرها كاتبها الأستاذ ابراهيم سعادة
رئيس تحرير أخبار اليوم في ١١/٩/١٩٧٦ وهاك نصها :

نائب الوزير

وقرار رئيس الوزراء !

صدر قرار جمهورى بتنظيم مهرجان إسلامى مصرى فى واشنطن ،
مشاركة من مصر فى احتفالات مرور ٢٠٠ سنة على استقلال الولايات
المتحدة الامريكية ، وتضمن القرار الجمهورى أسماء أعضاء الوفد الذى
يضم عددا من أساتذة الدين وأربعة من الصحفيين والاذاعيين لتغطية هذا
المهرجان .

وكننت أحد أعضاء الوفد الصحفى ممثلا عن أخبار اليوم • وتلقيت
دعوة بالسفر والاقامة فى واشنطن لمدة ١٠ أيام على حساب الخزانة
المصرية • وأسندت رئاسة الوفد الكبير الى محمد توفيق عويضة الامين
العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ونائب وزير الاوقاف المصرية ،
ورئيس اللجنة العليا لرعاية أبناء مصر فى الخارج •

وبالفعل سافر توفيق عويضة ومعه طاقم مكتبه إلى الولايات المتحدة
قبل افتتاح المهرجان بعدة أيام • أما باقى الوفد فقد حددوا له السفر
ليلة افتتاح المهرجان • وقبل ساعات من سفر الوفد المصرى صدر قرار من
ممدوح سالم — رئيس الوزراء — بإلغاء الرحلة والاكتفاء بسفر ٣ فقط من
أساتذة الدين حتى لا تتكبد الدولة مبالغ طائلة لا داعى لها فى مرحلة
التقشف التى نمر بها •

وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد • ولكن محمد توفيق عويضة لم يسكت • اعتبر هذا بمثابة تحدٍّ لهيئته ومركزه •

واعتبر توفيق عويضة أن القرار الجمهورى لا يلغى الا بقرار جمهورى آخر • ورأى أن يتجاهل القرار الوزارى ويتمسك بتنفيذ القرار الجمهورى !

وبالفعل اتصل عويضة بأعضاء الوفد الاعلامى (٣ صحفيين رجالا واذاعية واحدة) وقال لهم ان مدير مكتبه سوف يلتقى بهم ويخطرهم بما قرر ان يفعله •

وجاء مدير مكتب عويضة لزيارتي فى مكتبى بأخبار اليوم • وفوجئت به يقدم لى تذكرة صادرة من شركة الخطوط الجوية العالمية الامريكية • للسفر من القاهرة الى واشنطن والعودة ، وخطابا الى أحد فنادق العاصمة الامريكية بالاقامة المجانية الكاملة لمدة ١٠ أيام • ولم ينس مدير مكتب عويضة أن ينبهنى الى أن هناك بدل سفر بالدولار سيكون فى انتظارى فور وصولى إلى الأرض الأمريكية !

وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لى • قلت لمدير مكتب عويضة ان الرحلة الغيت بأمر من رئيس الوزراء • وقد انتهى الامر بالنسبة لى منذ تلك اللحظة • وقمت برد بدل السفر الذى صرفته أخبار اليوم عن مدة سفرى واقامتى فى الولايات المتحدة •

وفوجئت بمدير مكتب عويضة يقول ان القرار الوزارى لايلغى القرار الجمهورى • واننا نريد أن نؤكد هذه الحقيقة بالاصرار على سفر الوفد الاعلامى الى الولايات المتحدة والاقامة بها لمدة ١٠ أيام كما جاء فى نص القرار الجمهورى •

وعبثا حاولت افهام مدير مكتب عويضة ان الرحلة فقدت الآن الغرض منها • فقد انتهى المهرجان منذ أسابيع • وعاد عويضة وأعضاء

مكتبه الى القاهرة بعد أن حضروا افتتاح المهرجان • فما الداعى اذن
لسفر الوفد المصرى الصحفى إلى أمريكا ؟

ولم يفهم مدير مكتب عويضة أو على الأصح لم يشأ أن يفهم فالمطرب
هو سفر عدد من الصحفيين على حساب الدولة لا لشيء الا ليعرف رئيس
الوزارة أن قراره لا يعترف به الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون
الإسلامية !

واعترضت لمدير مكتب عويضة عن قبول الدعوة • ورفضت ان اتسلم
تذكرة الطائرة المدفوعة الثمن من خزانة الدولة • وأفهمته صراحة أن المسألة
انتهت بالنسبة لى بعد قرار رئيس مجلس الوزراء مباشرة •

وعاد مدير المكتب يلح مرة أخرى ويؤكد لى ان باقى زملائى الصحفيين
واففقوا على السفر وانهم تسلموا بالفعل تذاكرهم وهناك من سافر والباقى
فى طريقه الى السفر قريباً !

ولم أترجع أمام هذا الاغراء • فإذا كان أحد الزملاء — أو جميعهم
كما قال سكرتير عويضة — قد تسلم التذكرة وقبل الدعوة فهذا شأنه
ولا يلزمنى أنا فى شيء •

وانتهت المقابلة عند هذا الحد • وحمل مدير مكتب عويضة أوراقه
وانصرف •

ورأيت أن أكتب هذه القصة بكامل تفاصيلها •

ان الهدف السابق من وراء هذا السفر هو تغطية المهرجان المصرى
الإسلامى فى واشنطن • وقد انتهى الآن هذا المهرجان • فما الهدف اذن
من سفر الصحفيين إلى الولايات المتحدة ؟

ان الدولة فى حاجة الى كل دولار • الى كل فرنك • الى كل جنيه •

ورغم هذا فهناك من كبار رجال الدولة من لا يهتم أبدا بعزقة آلاف الجنيهات بأعلى وأعز العملات الصعبة .

ان ما فعله توفيق عويضة لا يجب أبدا أن يسكت عليه .

ولنا هنا سؤال بسيط هو : كيف استطاع نائب وزير أن يقف من رئيس الوزراء هذا الموقف ؟ هل هى عملية سحرية ؟ أو أن الموازين قد قلبت ؟

ابراهيم سعده

جمعية الشبان المسلمين :

ولننتقل خطوة أخرى للشبان المسلمين ، وكان الناس يقولون إن جمعية « الشبان المسلمين » أعيد تخطيطها لتملأ الفراغ الذى كانت تشغله جمعية « الإخوان المسلمين » ولكن الحق أن الشبان المسلمين لم تملأ هذا الفراغ بعد ، وأكثر ما تقوم به جمعيات الشبان المسلمين بعض المحاضرات فى مناسبات مختلفة كما أنها تقيم حفلا سنويا تقريبا ، تتلأ فيه الأضواء ، ويقدم بعض الصبيان باسم المسلم الصغير لتلاوة بعض ما يحفظون من القرآن الكريم .

إشارة سريعة نقدمها هى أن هناك جمعية مسيحية اسمها « جمعية الشبان المسيحيين » ولست أعرف أى الجمعيتين أقدم ، وأيتهما اقتبست تسميتها من الأخرى ، ولكن الذى أعرفه أن جمعية الشبان المسيحيين لها نشاط واسع ؛ يشمل بيوت ضيافة ، وحلقات رياضية ، ورحلات فى الداخل والخارج ، واجتماعات فكرية وأدبية ... ، وقد جذبت هذه البيوت لها مجموعة كبيرة من الشبان المسيحيين ، وتعدتهم للأسف فأخذت تجذب بعض الشبان المسلمين لهدف أو لآخر .

ليت جمعية الشبان المسلمين تعيد النظر فى موقفها ونشاطها .

الجمعية الشرعية :

لنبداً حديثنا عن الجمعية الشرعية بهذه الرسالة التي تلقيتها من أحد قراء هذا الكتاب وهو الأستاذ أحمد مقلد ، ثم لنا بعد ذلك تعليق قصير عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الكبير الدكتور / أحمد شلبي

السلام عليكم ورحمة الله •

كتاب (رحلة حياة) كتاب عظيم سيصبح في المستقبل مرجعا هاما بل هو من الآن مرجع من المراجع الهامة ، وهو يثير القارىء ويشوقه أن يقرأ كله من أوله لآخره ؛ من الصفحات الأولى التي فيها بيان لكتب الأستاذ المؤلف ، فالصحائف التي فيها محتويات الكتاب فالمقدمة ، حتى آخر سطر فيه حيث تقول : وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح •

ولكن لى كلمة قصيرة جدا بالنسبة لعظم الكتاب ، وهى مهمة عندى وعند كثيرين من الذين يهتمون بقراءة كتب السيد الدكتور المؤلف ، فإنكم ذكرتم من مراكز الفكر الإسلامى جمعيات الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وذكرتم للمقارنة الشبان المسيحيين ، ولم تذكروا شيئا عن الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية التى أسسها المرحوم الشيخ محمود خطاب السبكي منذ ستين عاما تقريبا وكان يقوم رحمه الله بالوعظ والتجوال فى أنحاء البلاد وحده للتعريف بالدين الصحيح خاليا من البدع والخرافات ، وانضم إليه عدد كبير من العلماء ، وقامت الجمعية بإنشاء قسم للوعظ سبق الأزهر فى هذا المجال ، ومازال قائما للآن ، وكان يضم حوالى مائة واعظ قاموا بنشر مبادئ الدين الصحيحة بالحكمة من غير تشدد ولا رجعية ولا تعصب ، ووضعت لهم الجمعية نظاما محددا

يسيرون عليه ، وكان مركز هذه الجمعية في مسجد بقرية الخيمية وهو أول مسجد أسسته الجمعية ، كما أُلحقت بهذا المسجد مكتبة حافلة بالكتب الإسلامية في الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية ، وغيرها •

وكانت هذه المكتبة ومازالت مفتوحة للاطلاع ولتيسير الحصول على الكتب •

كما أنشأت الجمعية شركة المنسوجات الوطنية ، وقامت الجمعية بدعوتها هذه في هدوء حتى أصبح لها في كل حي من أحياء القاهرة فرع بما في ذلك الأحياء التي كان التجول فيها محرماً كالترجمان والقلاية والمحمرة وعشش شركس والشيخ على ، وأصبح فيها بمساعدة أهلها فروع للجمعية ، وتحول الكثيرون من قطاع طرق عاطلين ، إلى مسلمين يدعون للإسلام الصحيح بين أهليهم وجيرانهم ، وهدى الله بهم ناسا كثيرين •

وأصبح للجمعية الآن أكثر من ألف مسجد ، وأصبح من وعاظ الأزهر وعلمائه وأساتذة الجامعات والقضاة والمستشارين ورؤساء المحاكم والوزراء من يعتنق مبادئ الجمعية الشرعية •

وإن الثورة الدينية والاجتماعية التي قامت في مصر منذ نصف قرن لمحاربة بدع الجنازات وزيارة القبور وبدع الموالد والزار والاحتفال بالأعياد غير الإسلامية كلها أثر من آثار دعوة هذه الجمعية •

ونحن الآن أحوج مانكون إلى هذه الدعوة التي تعمل على نشر مبادئ الإسلام الخالية من البدع والدجل والخرافات التي شوهت معالم الإسلام وأدت إلى أن اختلط على الناس السنة والبدعة ، وإن الكلمة التي وردت في كتاب رحلة حياة عن الإخوان المسلمين لها كلمة عظيمة حقاً ... فواعجابه أن يذكر هذا عن جماعة لم تدم إلا فترة قصيرة بالنسبة للجمعية الشرعية ولم تذكر كلمة واحدة عن الجمعية الشرعية من قلم رجل يعتبر إماما من أئمة العلم في عصرنا هذا ، في حين أن كثيرين من أعضاء

الجمعية الشرعية المتخرجين من دار العلوم والمنتشرين في ميدان التربية والتعليم يهتمون بقراءة كتب الدكتور المؤلف ويحثون تلاميذهم على قراءتها •

وسيادة المؤلف يقرر في كتابه (رحلة حياة) أنه على اتصال واسع بالمراكز الإسلامية كلها ، ولم يذكر عن هذه الجمعية شيئاً وهي التي تنتشر فروعها في القاهرة وفي جميع محافظات الجمهورية ، ولها أيضاً فروع في كثير من البلاد العربية كسوريا والأردن والسودان ، وقد اتصلت الجمعية ببعض مراكز الفكر الإسلامي بالهند وباكستان ليتزودوا بمبادئ الجمعية وينشروها في بلادهم •

وإذا كانت اللحية والعمامة ذات الذؤابة شعاراً لأعضاء هذه الجمعية فإن الكثيرين من أعضائها والمنتسبين إليها ليست لهم لحى ولا عمائم فليس هذا الشعار إجبارياً ولو أن في التحلى بهذا الشعار اتباعاً للسنة وفيه إشارة للتآلف كما يفعل الآن جماعات المنظمات العالمية من أنها تتخذ لها شارة موحدة حتى يتعارف أفرادها ولو اختلفت جنسياتهم ولغتهم وهو ما نراه في جماعة الكشافة والرواد وغيرها •

فأرجو وألح في الرجاء أن يذكر السيد الدكتور المؤلف هذه الحقيقة عند إعادة طبع هذا الكتاب ويأجبذا لو أفرد سيادته كتاباً خاصاً يحدثنا فيه عن الإسلام من غير بدع ولا خرافات مسجلاً فيه مجهود الجمعية الشرعية في هذا الشأن •

أطال الله لنا في عمر المؤلف حتى يحقق للعلم ما يرجوه من نفع للأمة .
أحمد مقلد

لقد نشرت هذا الخطاب الجليل كله لعل ذلك يرضى الحقيقة ، ويرضى
أخانا في الإسلام الأستاذ أحمد مقلد ، ولعله يقيلى من عثرتى أن خلا
كتابى فى طبعته الأولى من جماعة كهذه لها جهود رائعة لخدمة الإسلام
والمسلمين ، وغير بعيد من منزلى بالمعادى يقع مسجد الفتح ، وهو أحد
المؤسسات الشاهقة التى تتبع هذه الجمعية المباركة ، وهذا المسجد يعيد
للواقع صورة حليلة لمسجد سيدنا رسول الله ، فهو باختصار مركز حافل
لخدمة البيئة ومساعدتها ، ويمكن أن نسميه « مجمعا » إذ به كل الوسائل
التي تساعد الإنسان فى حياته ؛ فهو يحوى مسجدا ومستشفى ومكتبة ،
ويتبعه معهد دينى ، ونظام به دروس لمساعدة التلاميذ فى الامتحانات ...
وغير ذلك ، فهو مركز إشعاع ومنازة هدى وخير ، وهو مثال من أمثلة
متعددة ونماذج كثيرة •

فتحية القائمين بهذا العمل الجليل فى هذه الجمعية ودعاء أن يثيب
الله مؤسسها العظيم •



والآن ... بعد أن تعرفنا على المراكز الإسلامية بمصر ، نحب أن
نسأل : هل وقفت هذه المراكز مرة لتحاسب نفسها ؟

هل استعرضت هذه المراكز نشاطها وتدارست مدى نجاحها ومدى
نشاطها ؟

هل طورت هذه المراكز نفسها مع الزمن ؟

لست أريد أن أجيب بالنفى ، لأن الأمل فى التطور يدفعنى إلى الفرق
والإنابة ، وأرجو لهذه المراكز الفكرية كل نجاح ، وأتمنى أن تقف من حين
لآخر وقفة حساب تنطلق بعدها إلى أسنى الأهداف لخدمة الإسلام
والمسلمين •

وإذا قارنا دراسة الطب منذ ربيع قرن بدراسة الطب الآن ، أو فعلنا مثل ذلك في الرياضة والموسيقى ، فإن النتيجة رائعة والتطور مذهل ، وكان ينبغي أن يكون هناك في الدراسات الإسلامية تطور بهذا النسق ، أو ربما أكثر من هذا النسق ، لأن النكسات الفكرية في الماضي لم توقِف تطور الطب بمقدار ما أوقفت تطور الدراسات الإسلامية •

وإذا رأينا ما أنتجه العقل الحديث في مجال مقارنة الأديان والتشريع المقارن والحضارة الإسلامية لرأينا أن تطوراً كبيراً قد حدث في نطاق الفكر الإسلامي ، ولكن هذا التطور لم يدق بعد كثيراً من أبواب مراكز الفكر الإسلامي بمصر ، أو قل إن بعض الأبواب موصدة أمام هذا التطور ولا تفكّر فيه •

وقد انطلق المبشرون والمستشرقون انطلاقاً مسعوراً لمقاومة الإسلام وإثارة الضباب حوله ، ولابد من تربية جيل من الدعاة ، فمن الملاحظ أن المبشر يعرف الكثير عن الإسلام ، ويتلمس الهنات فيه ، ويجيد لغات متعددة ، وعنده طاقة من الصبر ، وهواية الاتصال بالجماهير وإقناعهم برأيه ، وهذه المزايا غير موجودة عندنا فليس عندنا دعاة بالمعنى الصحيح ، وهذه الكلمات تكتب وهناك محاولات لإنشاء معهد أو معاهد للدعاة ونرجو لها التوفيق • وألا يقف الروتين الإداري في طريقها أو يعرقل سيرها •

ثلاثون عاما مع ثورة يوليو

هذه الكلمات تكتب في الأيام الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٨٢ ، وفي هذه لأيام تقصوم احتفالات بمرور ثلاثين عاما على ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأكثر الهيئات اهتماما بهذه الاحتفالات الحزب الوطنى الديمقراطى الذى كان يسمى هيئة التحرير ، فالاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فمنبر الوسط ، فحزب مصر ، وأخيرا الحزب الوطنى الديمقراطى الذى اقام احتفالا بهذه المناسبة ، ألقى فيه رئيس الجمهورية الرئيس محمد حسنى مبارك خطابا حافلا ، أنصف فيه عهد ما قبل الثورة ، ذلك العهد الذى حاولت الثورة أن تسوّد صفحته ، وأن تعتبر نفسها واضحة الأساس لتاريخ مصر ، وتحدث الرئيس كذلك عن الأزمة الاقتصادية بصدق ، وأبرز ما تعانيه البلاد من متاعب اقتصادية ، وكان الرئيس السابق (محمد أنور السادات) قد أعلن في أعياد الثورة في العام الماضى أن الاقتصاد المصرى قد انتصر على المشكلات وأن الميزانية فيها فائض هذا العام !!! ومع الحزب الوطنى هلت الصحافة القومية كذلك بهذه المناسبة وأسماها عيدا •

وإذا تركت الحزب الموقر والصحافة التى تسمى قومية ، وعدت إلى ذاكرتى ومذكراتى ماذا أجد فى المقارنة بين عهد ما قبل الثورة وعهد الثورة ؟

أقد عاشرت الثورة من أول يوم وسجلت الأحداث حولها من يوم إلى يوم فى جزأين من أجزاء « موسوعة التاريخ » هما الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة ، وعشت عن طريق الدراسة والتدوين عهد ما قبل الثورة ورددت أحداث ذاك العهد فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة الذى يشمل تاريخ مصر من مطلع الإسلام حتى قيام الثورة •

ماذا نرى لو أجرينا مقارنة تاريخية دقيقة بين ثلاثين عاما تبدا

من تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ إلى قيام الثورة وبين ثلاثين عاما بعد الثورة ؟

أولا — كان للانجليز بدون شك نفوذ عظيم في مصر قبل الثورة ، ولكنه بدون شك أيضا بدأ يتناقص قليلا قليلا مع قيام الحياة النيابية ، ثم مع معاهدة ١٩٣٦ ، ثم مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث وقف محمود فهمى النقراشى يصفهم في مجلس الأمن بأنهم قراصنة ، وحيث ألغى الزعيم مصطفى النحاس سنة ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد وأوقف تماما نشاط المعسكرات الانجليزية في منطقة القناة وعين عبد الفتاح حسن جميع العمال المصريين في وظائف بالدولة .

ويفخر المتسرعون من أتباع الثورة بأن الثورة قضت على نفوذ الانجليز في مصر ، والحق أن نفوذ الانجليز في العالم كله قد تقلص بعد الحرب العالمية الثانية وبعد ظهور العملاقين « الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » فتداعى سلطان الانجليز في كل مكان وأصبحت الدولة التي كانت لا تغيب عنها الشمس محصورة تقريبا في الجزر البريطانية ومثل هذا حدث لفرنسا وبلجيكا والبرتغال ولهولندا ، فمن الخطأ التاريخي أن ننسب للثورة مفخرة إخراج الانجليز والقضاء على نفوذهم بمصر ، والذي يدعى ذلك انسان لا يعرف التاريخ .

هذا جانب من القول عن النفوذ الأجنبي في مصر قبل الثورة ، فماذا يرى من يرصد التاريخ حول النفوذ الأجنبي الذي فرض على مصر في عهد الثورة ؟ هل كان للاتحاد السوفييتي مثلا نفوذ في فترة ما على مصر ؟ لقد قرر أنور السادات ذلك ، واقتخر بالقضاء على هذا النفوذ سنة ١٩٧٣ .

ثانيا — يقرر التاريخ أن ملكا مستبدا كان يعيش في القصر الملكي قبل الثورة ، وكان يباشر سلطاته بدكتاتورية مقيمة ، وهذا شيء لاشك فيه ، ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن القصر ظل بعد الثورة يباشر نفس النفوذ وبطريقة أعنف بواسطة جمال عبد الناصر وأنور السادات ، وقد

خلق الرجلان هيئات وأحزابا وقوانين كلها قيود وكلها ضغط على الانسان المصرى والإنسان المصرى لا يمكن أن يفرّق بين مستبدٍّ يلقَّب ملكا ومستبد يلقَّب رئيسا للجمهورية .

ثالثا — يسفرون من أحزاب ما قبل الثورة ، والذي يفعل ذلك جاهل بالامر أو خائف من الحقيقة ، فأحزاب ما قبل الثورة كانت غالبا نابعة من الشعب ، ولكن أحزاب ما بعد الثورة صنعها كلها الحاكم ، ولا تمثل رأى العام من قريب أو من بعيد ، وكلنا يذكر واقعة الانتقال الجماعى والهجرة من حزب مصر إلى حزب الزعيم ^(١) ولم يسمح ولى الأمر حتى الآن أن يقيم الشعب حزبا جديدا يعبر عن إرادته واحتكر قضية قيام الأحزاب أو وضع القوانين التى تعوق قيام حزب لا يرضى عنه .

خامسا — إن الرصد التاريخى للانتخابات يقرر أن رئيس الوزراء يحيى إبراهيم الذى أجرى الانتخابات سنة ١٩٢٤ سقط فى الانتخابات أمام شاب صغير كان مرشح الوفد ، أما انتخابات ما بعد الثورة فكان من المحتم أن تكون نتائجها فوق ٩٩ ٪ لصالح الحاكم أيا كانت اتجاهات الناس وميولهم .

سادسا — كانت فى مصر صحافة حرة بدون شك قبل الثورة . وكان عددها عظيما ، وانكمش هذا العدد تماما ولم يبق إلا صحافة قليلة العدد من جانب على الرغم من تضاعف عدد السكان ، وتسيطر الدولة عليها وتعين رؤساء تحريرها وكبار رجالها من جانب آخر ، أما ادعاء أن الصحافة سلطة رابعة أو عاشرة فكلام لا مدلول له .

سابعا — من الناحية الاقتصادية كان الجنيه المصرى أغلى من الجنيه الانجليزى قبل الثورة ، ثم انهارت قيمة هذا الجنيه بعد الثورة حتى أصبح ايسر أقل من الجنيه الاسترلىنى فحسب ، بل أقل من الدولار .
أما عن ديون مصر فى عهد الثورة فقد فاقت كل خيال .

(١) من كلمات فايز حلاوة بالعدد ٣٠٠ من مجلة أكتوبر .

ثامنا — دخل الجيش السياسة بقيام الثورة واستطاب الجيش حياة السياسة وترفها ، ومن المعروف أن الجيش اذا دخل السياسة فسدت السياسة وفسد الجيش •

وباسم هذه السياسة العرجاء رصد التاريخ هزائم مريرة نسبت للجيش المصرى فى عهد عبد الناصر ؛ هزيمة ١٩٥٦ وهزيمة اليمن ١٩٦٢ — ١٩٦٧ وهزيمة ١٩٦٧ واحتلت إسرائيل منطقة سيناء أكثر من مرة وتوقفت قناة السويس أكثر من مرة ولعدة سنوات وسقط عشرات الآلاف من المصريين قتلى وجرحى نتيجة سوء التخطيط والادارة •

تاسعا — فى اجراء مقارنة بين مصر وبين بعض الدول الأخرى - ولا نختار اليابان أو ألمانيا أو نظيراتها لأن الخيال لا يلعب بنا ، بل نختار إندونيسيا وهى قطر كثير العدد (١٥٠ مليون) وكثير المشكلات (آلاف الجزر وملايين الصينيين الذين يسيطرون على جانب كبير من الاقتصاد) أو نختار الباكستان (٩٠ مليوناً) ولها حروب كثيرة مع الهند وملايين اللاجئين ، فى هذه المقارنة تشيل كفة مصر ، ففى إندونيسيا والباكستان — وكنت فىهما حديثاً — استقرار اقتصادى عظيم ونظافة وطرق مرصوفة الى قمم الجبال ... وهو شئ لا نلعم به فى مصر •

عاشرا — وأخيرا وليس آخرا الحزب الذى أقامه أنور السادات ، لماذا يظهر به اللصوص والمرتشون وتجار المخدرات ؟ ولماذا يظهر «مُحافظ» يَتَّهم بتهم مريرة مخجلة ، بل وزراء نفوح حولهم الشائعات ؟ ومنَ الذين سرقوا مجوهرات القصور وهى ثروة مصرية هائلة اختفت فى عهد الثورة ؟

كلمة أخيرة ، إن الانسان هو أعلى ما فى هذا الكون ، وله سخر الله ما فى السموات وما فى الأرض فماذا فعلت الثورة به ؟ وما تاريخ المعتقلات فى هذه الثورة ، لقد عاش أنور السادات يتغنى بأنه أغلق تماما المعتقلات ، التى فتحها عبد الناصر ، ولكن انتضح أن ذلك كان ضد أعماقه وميوله ، ومن أجل ذلك انفجرت طبيعته قبيل نهايته ففتح المعتقلات على أوسع

نطاق ، ودفع لها خصومته من رجال السياسة والصحافة والدين والاعلام والفكر ، جنباً الى جنب مع بعض المنحرفين ، ولم يعبأ بالأعمار ولا بالأقدار فكان التشفى ظاهرة بارزة في هذا التصرف .

إن معتقلات عبد الناصر وما جرى فيها من أهوال مما هو بعيد عن القيم والأخلاق والإنسانية لشيء تقشعر منه الأبدان ، وقد اندفع أنور السادات في أيامه الأخيرة لتقليد سلفه ، ولكن العمر لم يتسع له ليكرر التنكيل والتعذيب ، وبالتأكيد لم يوجد قبل الثورة ما يماثل أو ما يقرب من فظائع معتقلات هذه الثورة المشؤمة .

إننا نهتف بولى الأمر أن يُعنى بالانسان المصرى ، وأن يعطيه حقه كاملاً ، وأن يؤلّف من المصريين وحدة وتجهّفا بحيث لا يحس بعض الشعب أنه مسلوب الحقوق ، وبعد ذلك يتقدم لتوحيد العرب ، أو توحيد المسلمين ، أو توحيد دول عدم الانحياز .

ونهتف بولى الأمر كذلك أن يعيد مصر إلى الاستقرار لتصبح الثورة تاريخاً كثورة ١٩١٩ وليست واقعا مستمرا ، ونرجو أن نسجل للحاضر مفاخر عجز المأذى عن تقديمها . كما نرجو أن يكون الاحتفال بثورة يوليو المشؤمة هذا العام هو آخر احتفال بها .

الاسرائيليات والجمود
وصربى اعلشرا على الجبزين

إن تكويني وثقافتى ، وحنى للإسلام وولائى له ، واعتراى بأفضاله على شخصيا وعلى البشرية جميعا ، كل هذا أأزمى أن أبذل أقصى الجهد لخدمة الدراسات الإسلامية التى تخصصت فيها ، وتخليصها من الإسرائيليات والجمود ، ومن هنا كان لزاما على أن أفكر فى كل قضية من القضايا الإسلامية ، فإن كان هناك نص صريح بذلت الجهد لفهمه وربط القضية به ، وإن لم يكن هناك نص بذلت الجهد لأجد حلا للقضية فى نطاق الإطار الإسلامى ، ويشهد الله أننى ما تكلمت كلمة ولا كتبت حرفا إلا ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وإلا لرفع كلمة الله جل وعلا ، ولكن ذلك طالما جرت على كثيرا من المتاعب من بعض الجامدين .

صحيح أن جماير المثقفين يتقبلون على فكرى ويرضونه ، ويقتنون كبرى بملاحقة منتظمة ، ولكن هناك جماعة الجامدين الذين يحاربون الفكر ولا يريدونه ، والذين يقفون فى وجه كل جديد .
وكثيرون من المسلمين يقولون إن باب الاجتهاد مفتوح ، ويقنعون بهذا القول ولا يجتهدون ، فإن اجتهد أحد منهم هاجمه الجامدون دون تفكير ودون روية .

الإسرائيليات والجمود :

ويقول الباحثون إن الإسلام أصيب بعقتين عطلتا تقدسه ، وأوقفتا تطوره ، وهاتان العقتان هما : الإسرائيليات من جانب ، وجهود كثير من الفقهاء من جانب آخر . وعن هؤلاء الجامدين يقول الإمام محمد عبده : إن الإسلام محبوب بالمسلمين .

وقد أعلنت الحرب على الجبهتين ، وحققت نصرا عظيما ،

ولكن جبهة الجامعيين استغلت فسدى سلطات إدارية ، بعد أن عجزت عن الحوار العلمى ، ولا زلت أصارع والنصر إن شاء الله لكلمة الحق .

وإذا كان المسلمون يتحرّزون من الإسرائياليات فإنهم لا يتحرّزون من الجامعيين ، وبخاصة أن هؤلاء يظهرون بمظهر الورع والحفاظ على التراث ، وفى ظل الحفاظ على التراث توقّف هؤلاء الجامدون عند فكر لا يتجاوزونه ، وساعد على ذلك عقم طريقة التدريس التى سيطرت على العالم الإسلامى بواسطة الأثرر أو أمثاله من الجامعات الإسلامية الأولى فى الماضى ، وهذه المعاهد أدّت بلا شك خدمات جليلة للإسلام ؛ شرحت قواعده ، ونقلت مبادئه إلى ملايين الناس فى مختلف البقاع ، ولا ينكر أحد دورها وما أدّته من خدمات للإسلام والمسلمين ، لكن نشاط هذه الجامعات كان كافيا فى الفترات الأولى من فترات التاريخ الإسلامى ، ولم يتطور مع الزمن ، ثم جاء العهد الحاضر حيث اتضح قصور هذا النشاط عن مسايرة الأحداث كما سنرى .

ثم إن الكثير من العلماء السابقين وجهوا جلّ اهتمامهم لشئون العبادات وعلاقة الإنسان بربه ، وذكروا فى ذلك تفصيلات كثيرة ، ولم تنل المعاملات من جهودهم قدرا كافيا ، وجدّت فى المجتمع الإسلامى شئون مختلفة فى نواحي السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والثقافية ، ولم يكن لأكثر هؤلاء خبرة فى هذه المجالات فأعرضوا عنها دون أن يَضمّغوها إلى نطاق الدراسات الإسلامية ، مع أنهم يعلنون أن الإسلام دين كل زمان ومكان ، وأنه دين متطور يشمل كل نواحي الحياة .

ومما ساعد على حركة الجمود أن المعاهد السابقة كان يجلس فيها الشيخ معلما لتلاميذه فترة طويلة أو قصيرة ، فإذا ضعف عن العمل أو مات أخذ أحد تلاميذه مكانه ، وقدّام لطلابه ما سمعه من شيخه ، وهكذا دواليك ، دون أية إضافة أو تجديد .

ثم إنهم جميعا كانوا إلى عهد قريب يعتمدون على الكتب التى كتبت

في عهد ماضية ، بأسلوب غير أسلوب العصر ، ومنهج غير منهج العصر .
ومن هنا كانت الدراسات الإسلامية واقفة في حيز محدود
دون حركة أو اجتهاد أو تأليف ، وقد استمر ذلك إلى حوالي
منتصف القرن العشرين ، أي أن جيلنا عاصر هذا الوضع وضاق به
من الشيوخ ، ومن الكتب التي كتبت بأسلوب غير أسلوب العصر ، وبفكر
خالٍ من النقد والمقارنة وحسن الأداء .

الإسرائيليات تتسرّب للفكر الإسلامي :

وقبل أن نسير مع هؤلاء الجامدين ونعطي أمثلة لمواقفهم نذكر أن
الإسرائيليات تنبعت لمكانة هؤلاء الجامدين ، فاستطاعت أن تغرس فيهم
بعض مبادئها بطريقة أو بأخرى ، وغرّزت مبادئ الإسرائيليات عقول
بعض هؤلاء الجامدين ، فأخذ هؤلاء موقف الدفاع عن هذه المبادئ
التي هي في الحق بعيدة عن الإسلام ، ومناهضة لمبادئه ، ومنعطي كثيرا
من الأمثلة على ذلك فيما بعد .

عيوب جديدة عطلت الاجتهاد :

ثم ظهرت الدول الإسلامية المستقلة وكثر عددها ، وأخذ الحكام
مكان الصدارة فيها ، فحدثت عيوب أخرى غير عيوب الجمود
والإسرائيليات ، وتضافرت العيوب القديمة مع العيوب الجديدة لكبح
حركة الاجتهاد والفكر والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ما هذه العيوب الجديدة التي ظهرت في الميدان ؟

الإجابة نقدمها بصراحة فيما يلي :

١ - الاهتمام بإرضاء الحكام :

إنني أقول بملء الفم على مسئوليتي أمام الله وأمام الناس إن من
أبرزها تبعية كثير من العلماء للحكام ، ومحاولة إرضائهم ، لدرجة أنه
يَقِلُّ جدا أن وقف عام يستنكر قرارا أصدره الحاكم ، وما أكثر

القرارات التي تخالف مبادئ الإسلام ، كالمصادرات العشوائية التي عرفتھا مصر في عهد عبد الناصر ، وكالاستيلاء على أموال الناس بدون حق ، وكتحديد إيجارات المساكن والأطيان بدون عدالة ، حتى أصبح إيجار الشقة في الزمالك شهريا لا يشتري نصف كيلو من اللحم ، وأصبح إيجار الفدان لا يصل ولا يقرب من عشر ما ينتجه الفدان ، وكثير من العمارات السكنية والأرض الزراعية يملكها فقراء يعانون الجوع الآن ، أما الساكن والزارع فقد أصبحا من بين الأفنياء ، ومرّ الزمن وهذه المظالم لا تزال كما هي ، على الرغم من مرور عهد السادات ، وعشر سنوات من عهد حسنى مبارك !!

والعجيب أن قانون العلاقة بين المالك والمستأجر كان قد أعدّ سنة ١٩٩٠ وكان على وشك أن يقدم لمجلس الشعب لنظره ، ولكن كلمة واحدة من الرئيس حسنى مبارك أوقفت هذا الأمل ، لقد قال « مشش وقته » فتراجع كل شيء ، وليس يعرف الإنسان متى يجيء وقت الإنصاف بعد مظالم استمرت حوالى أربعين عاما .

• إن دعوات المظلومين لا تهدأ ، فلعل حسنى مبارك يحشش بها .
• ولا يقصد بالقانون الجديد إلا العدالة ، والعدالة يجب ألا تتأخر .

بل وصل الأمر إلى القبض على الأبرياء وتعذيبهم بل وقتلهم ، وعلماء الإسلام في العصر الحديث صامتون ، وأحيانا يباركون هذه التصرفات التي لا يعرفها دين ولا قانون ، وإذا كانت مصر قد فاض بها الظلم في عهد الثورة العسكرية المشؤومة ، فإن أكثر الجول الإسلامية عانت مثل ما عانت مصر أو بعض هذا العناء .

وكلمة حق هي أن علماء المسلمين في الماضي لم يقفوا من الحكام هذا الموقف ، بل كان العلماء موثّل الشعب وملاذ المظلومين .

٢ — وظائف يلوّح بها الحكام للعلماء :

ومن العيوب التي ظهرت حرص بعض العلماء والمفكرين على وظيفة مينة ، والتضحية من أجلها بكل القيم والمبادئ ، وقد عرّف الحكام هذه النقطة من الضعف في نفوس العلماء والمفكرين فأبقوا بعض المناصب الكبرى في أيديهم ، يلوّحون بها لمن يسيل عليها لعابهم ، فمنصب شيخ الأزهر في يد الحاكم وحده ، ومناصب رؤساء الجامعات في يد الحاكم ، ومناصب المصافطين كذلك ، فإذا وصل الواحد منهم سنّ المعاش لوح الحاكم له بمنصب في القطاع العام أو مكان في مجلس الشورى وهكذا . . . واستسلم عدد من العلماء لذلك ، فلم يقفوا موقف رفض أو معارضة لاتجاه الحاكم .

٣ — عدم الرغبة في مواصلة البحث :

ومن هذه العيوب عدم الرغبة أو عدم القدرة على مواصلة البحث والدرس ، وقد اتضح لى هذا الوضع عندما نشرت في صحيفة الأهرام بحثاً عن حلّ شهادات الاستثمار ، فقد اتصل بى عدد من العلماء بذكرون أنهم اقتنعوا برأى وأن أدلتى واضحة . ولو عني هؤلاء بالبحث والدرس بإخلاص ، لوصلوا بسهولة إلى النتيجة التي وصلت لها .

٤ — لتظاهر بالورع :

ومن هذه العيوب التظاهر بالتقى والورع ، فالذى يقول مثلاً إن شهادات الاستثمار حرام يتعدّد في نظر الجماهير أكثر تنقياً وورعاً من الذى يقول بحلها ، أو هكذا تتخيل هذه الطائفة من الشيوخ .

ويشهد الله أن بعض من قالوا بحرمة شهادات الاستثمار كان لهم سلوك يتنافى مع الورع في كثير من المواقف ، وكثير منا يعرفون ذلك .

وفي إحدى المرات صرخ واحد في وجهى بأن شهادات الاستثمار حرام حرام حرام ، وأن الذين يتعاملون بها آثمون ، وقلت له إن كثيرين من العلماء من أمثال فضيلة الشيخ شقّلوت وفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلافاً

وفضيلة الشيخ عبد الرحمن عيسى وفضيلة الشيخ على الخفيف وفضيلة الشيخ يس سويلم وغيرهم قالوا بطلها ، فلماذا أنت مَصِرٌ على تأييم المتعاملين بهذه الشهادات ؟ وكان عليك كمفكر إسلامي أن تفرح إذ وُجِدَ طريق يحمي هؤلاء المتعاملين من الإلثم والعذاب .

• ولم يستطع هذا الشخص أن يجيب .

والجواب في الحقيقة يكمن في سلوكه هو ، فإنه يريح ربها وفيرا لانتسابه إلى مؤسسة تنافس شهادات الاستثمار .

وعن هذه العيوب التي اشترك فيها الحكام والعلماء لا تتران معنا دراسات قدّمها بعضُ الباحثين الجديرين بالتقدير ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذي يقول إن أكبر عوامل تقهقر المسلمين هي :

١ — فساد أخلاق الأمراء والحكام الذين أعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو استبدادي على أساس مفاهيم خاطئة بأن هذه الشعوب ليست إلا خدما لهم ، وقد بلغوا في ذلك غاية الظلم والعنف ، فكانوا يقضون على أي رجل حرٍّ يحاول أن يردّهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

٢ — ضعف العلماء وتزلّثهم للأمراء ، ومحاولة تبرير تصرفاتهم ، والفتوى بقتل كل راي حرٍّ بحجة أنه خارج عن الجماعة .

٣ — الجامدون من رجال الدين الذين يقاومون التطور والتجديد بدافع الجهل أو التعصب والحسد ، والذين ينظرون إلى الإسلام على أنه دين عبادة فقط وليس نظاما ومجتمع حضارة (١) .

ومن هذه الدراسات ما كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الأستاذ بكلية اللغة العربية عن « عوائق التجديد » وهو يذكر أن تخلف العالم الإسلامي يرجع إلى الأسباب التالية :

(١) الأمير شكيب أرسلان : لماذا تاخر المسلمون ص ١٣٤ والأستاذ أنور الجندي : « الإسلام في معركة التغريب » ص ٣٢ .

١ — تمسك ملوك المسلمين وأمرائهم في العصر الحديث بحكمهم الاستبدادي ، ومن فكر منهم في الإصلاح لم يتجاوز الإصلاح العسكري دون أن يفكر في إصلاح طريقة الحكم ، وقد كان الحكم الاستبدادي أسوأ الفساد في العالم الإسلامي ، وبهذا لا يمكن أن ينجح إصلاح مع بقائه ، لأن الإصلاح حينئذ يقوم على أساس فاسد ، فالحكم الاستبدادي يباعد بين الحاكم والثرية فلا يتعاطف الحاكم مع الشعب ، ولا يقبل الشعب على الحاكم .

٢ — إن جمهور علماء الدين مضوا على جمودهم فلم يتنبه منهم إلى الإصلاح الديني إلا نفر يسعد على أصابع اليد الواحدة ، أما جمهور العلماء فقد ظلوا على جمودهم وتبعهم جمهور العامة ، فتوقف النشاط الذهني وساد الجمود .

٣ — إن ملوك المسلمين وأمرائهم قاوموا الحركات الإصلاحية الدينية ونظروا لها على أنها ثورة عليهم من القائمين بها ، وأخذوا يحاربونها بكل قسوة ، فلقى المصلحون ما لقوا من تعذيب وسجن وقتل (١) .

ذلك هو وضع بعض علماء الإسلام بين الإسرائيليات والجمود والأطماع ، فماذا حدث لى شخصيا في هذا المجال ؟

لقد قلت آنفا وأشهدت الله أنني لم أقل كلمة ولا دوّنت كلمة إلا بعد فحص ودراسة ، وإلا ابتغاء وجه الله ، ولمحاولة خدمة الفكر الإسلامي ، وشجعني القراء على ذلك إذ أقبلوا على كتبي إقبالا أسمى من أن يخطر ببالى ، وكان السر في هذا الإقبال أنني لم أدوّن ما قاله السابقون دون مراجعة ، بل فكرت في كل موضوع ، وفي كل سطر ، وبحث ،

(١) المجددون في الاسلام ص ٥٧٧ وما بعدها بايجاز .

وتدارست ، واستشرت ، وترددت ، حتى إذا استقر رأيي على شيء
دوّنته ، ورفعت به صوتي ، وصفت جماهير المثقفين لآرائي ، فقد كانت
هذه الآراء معبرة عما يدور في كل ذهن صافٍ ونفس بريئة ، وأحسّ
الكثيرون أنني أدوّن ما يدور بخاطرهم ، ولكن الذين لا يعملون ولا
يجبون أن يعمل الناس وجدوا فيما قلت فرصة للهجوم ، وكان الجهد
أو الحقدهما الدافع لهذا الهجوم ، فأنا لم أقل إلا ما يخدم الإسلام ،
وأنا دائما أهمل إلى جانب الحرص ، وأن يكون رأيي وثيق الصلة بكتاب
الله جل وعلا وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي نطاق تفكير الأفاضل
من السابقين •

لعل القارئ الكريم يريد أن يعرف نماذج من آرائي ، وهذا حق
القارئ ، وإن كنت هنا أعرض نماذج قليلة من القضايا التي تحدثت فيها ،
وأوجز الكلام عنها ، وأشير إلى كتبتي التي أوردت فيها تفاصيل هذه
الموضوعات وسواها ، ليعود لها القارئ إن أراد مزيدا من التفصيل •

١ — قضية شهادات الاستثمار :

وقد ألفتُ في شرحها من سنة ١٩٦٩ حينما كنت عضواً بوفد مصر في « كوالالمبور » عاصمة ماليزيا ثم شرحت رأيي في كتابي « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » ووضعت الفرق بين الربا وبين شهادات الاستثمار ، فالربا فيه استغلال لحاجة المحتاج ، وفيه ضياع المواساة والإحسان ، وفيه تسليط طبقة الأغنياء على الفقراء ، وفيه إضعاف الاقتصاد ... وليس هناك شيء من ذلك في شهادات الاستثمار ، واعتمدت على كبار المؤلفين كالغفر الرازي وابن تيمية وقد قالوا بذلك في مواقف تشبه « شهادات الاستثمار » كما اعتمدت على الامام محمد عبده الذي قال بذلك في صناديق التوفير ، وقال بهذا الرأي عدد كبير من الأئمة الباحثين في العصر الحديث أوردت آراءهم .

ولم يقبل رأيي عدد من الشيوخ ، فقد كانت لهم مصالح في عدم الأخذ بحل شهادات الاستثمار ، وثاروا ، ولكن كلمة الحق رجحت بعد طول جهاد ، وأعلن مفتي جمهورية مصر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي سنة ١٩٨٩ حل شهادات الاستثمار ، ولم يتركه الجامدون وإنما هاجموه ، بل هاجموا الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيده ، وقالوا عنه « إنه المحرّض الأول للفتاوى الطنطاوية » وذلك هبوط بمستوى البحث والنقد (١) .

إن الربا حرام قطعا ، بل هو من أشنع ما حرّم الله ، ولكن ما الربا ؟ لقد قال الرسول في ذلك : لا ربا إلا في النسيئة ووضح الإمام الرازي أن الربا عيوباً خلقية واجتماعية واقتصادية ، وذكر أبو الأعلى المودودي أن الربا يرتبط بالأثرة والبخل وتحجر القلب ، وقطع الأواصر في المجتمع إذ يكون فيه عوز شخص وفقره فرصة يغتتمها شخص آخر للاستغلال ... (٢) وشهادات الاستثمار لا تدخل أبداً في هذا النطاق .

(١) انظر العدد التاسع من مجلة « الاعتصام » الصادر في

ديسمبر ١٩٨٩ .

(٢) انظر كتاب « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » للمؤلف .

٢ - الإسراء والمعراج :

ذكرت في الجزء الأول من « موسوعة التاريخ الإسلامى » وفى كتابى عن « الإسراء والمعراج » أننى أومن بإيماننا كاملا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وأنه عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العلا ، إلى سدة المنتهى التى عندها جنة المأوى ، وأن القرآن الكريم جاء بذلك فى سورتى الإسراء والنجم ، وذكرت أننى أومن أن ذلك كان بالروح والجسد ، وأن الله سبحانه وتعالى تجلّى على الرسول وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة •

وهكذا أيها القارئ الكريم تجدنى شديد الاتجاه للجانب المحافظ ، فكثير من فقهاءنا يرون أن الإسراء ثابت بالقرآن الكريم ، ولكن المعراج ثابت بالحديث الشريف ، ولكنى أثبتتهما جميعا بالقرآن الكريم ، وبعض الباحثين قالوا بأنها رحلة بالروح ولكنى أكدت يقينى بأنها بالروح والجسد ، واستشهدت بانق탈 عرش بلقيس فى لمح البصر من اليمن لفلسطين •

فماذا كان موضع الخلاف بينى وبين الجامدين والراغبين فى نامش الأخطاء ؟

إن الخلاف يكمن فى قضايا جانبية نوجزها فيما يلى :

ذكر هؤلاء حديثا عن أن الرسول صعد مع جبريل عليه السلام ، وأخذ جبريل يقف مع الرسول أمام كل باب من أبواب السموات السبع ليدق جبريل الباب ، وكان الملك حارس الباب يسأل : من الذى يدق ؟ ومن معك ؟

فهؤلاء يعدّون الملك مثل البشر ، لا يَرَى من يقف خلف الأبواب ، وكان السماء بها أبواب صلبة كأبواب الدنيا ، وهى تفتح فقط عند اللزوم •

وذكر هؤلاء أن الصلوات التي فُرضت كانت خمسين صلاة في اليوم والليلة وان موسى « احتبس محمدا » (وتعبر احتبس ألح فيه روح الاسرائيليات ، وكان من الممكن أن يقال باستقبل أو واجه) واستكثر موسى الصلوات الخمسين وقال لرسولنا : أنا أعلم بالناس منك ، ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف ، وأخذ يعيده عشر مرات حتى أصبحت الصلوات خمسا فقط ، وهكذا تخيل هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى موجود في مكان معين ، وأن موسى في مكان آخر ، وأن محمدا أخذ يروح ويغدو بين المكانين .
وتخيل هؤلاء مساومةً تنزل العدد من ٥٠ إلى ٤٥ ثم إلى ٤٠ ثم إلى ٣٥ وهكذا ، تعالى الله عن ذلك .

ووضع هؤلاء الفقهاء الحل الذي تبيح أن يكون موسى أعلم بالأمة العربية من محمد العربي الذي كان آنذاك في الثانية والخمسين من العمر ، وكان قد مضى على بعثته اثنتا عشرة سنة ، وهما قاله هؤلاء الفقهاء في التعليل لذلك أن موسى عانى من بنى إسرائيل فهو أعلم بصعوبة البشر ، ونسى هؤلاء أن بنى إسرائيل لا يمكن أن يقاس عليهم ، فهم الذين قال عنهم القرآن الكريم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » (البقرة ٧٤) وتوعدهم الله جل جلاله بأنه « ليعذبن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (الأعراف ١٦٧) جزاء لما ارتكبوا من الاثم والعدوان .

وقد قرر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ^(١) أن الأموات جميعا بما فيهم الأنبياء لا يخرجون من قبورهم إلا يوم البعث ، واستشهد بقوله تعالى « ثم انكم بعد ذلك ليتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون ١٥ - ١٦) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، فكيف خرج موسى من قبره وراح يستقبل الرسول ويرشده .

(١) التحذير من البدع ص ٦ - ٧ .

وذكر الحديث الذي يتمسك به هؤلاء الفقهاء أن موسى عندما رأى محمد يرتفع عنه في السماء بكى ، فقليل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا الغلام الذي بُعثَ بعدى يسبقنى في الدرجة ... وكلمة « غلام » عن رسولنا لا تليق بمقامه ، وجو الحسد لا يليق بالأنبياء .

ولم أر أن هذه النصوص هي من الحديث الشريف ، وتأكد لى أنها من الإسرائيليات التى اندست في الفكر الإسلامى ، وأخذ الفقهاء يدافعون عنها ، وهناك دراسات أوسع عن هذا الموضوع أوردتها في المرجع السابق ، واعتمدت على رأى قوى قال به كثير من العلماء في مقدمتهم العالم الجليل الشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله ، والعالم الجليل الشيخ محمد الغزالى أطال الله في عمره .

والعجيب أنه وجد من الناس من تقولوا عنى كما شاء لهم خيالهم ، فبعضهم لم يقرأ أبداً ما كتبتنه عن هذه القضية ولا عن غيرها ، ولم يسمع منى كلمة عنها ، وكل ما سمعه هو أن للدكتور أحمد شلبى رأيا في الاسراء والمعراج ، فدفعه خياله لريض للاعتقاد بانى انكر الاسراء والمعراج ، وكتب ضدى على هذا الأساس . غفر الله له .

٣ — صحيح البخارى :

ومناقشة حديث ورد فى البخارى فتحت بابا جديدا يقول إننى أشكك فى الأحاديث ، ومعاذ الله أن أقف ضد أحاديث الرسول ﷺ ، فأنا مدين فى دراساته فى الحضارة الإسلامية لفيض من الأحاديث الشريفة ، وأحفظ منها المئات منذ نعومة الأظفار ، ولكن المسألة مسألة قول معين يراه البعض حديثا ولا أراه حديثا عن الرسول ، وصحيح البخارى موضع تقديرى . ولكن يجب ألا ننسى القول السائد عبر التاريخ وهو أن البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله ، أى ليس مثل كتاب الله الذى تفضل الله فنعهد بحفظه (انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) والتعبير « أصح كتاب بعد كتاب الله » يعطى فكرة أن من الممكن أن يكون به ما ليس صحيحا ، سواء كان ذلك خطأ من الإمام البخارى وهو ليس بمعصوم ، أو كان من دسّ الإسرائيليات على الكتاب بعد عصر البخارى فى طباعته المتعاقبة ، والدليل على الدس أن الأحاديث المطعون فيها كما يقول الإمام العاملى هى ستون حديثا ، وجميعها عن أنبياء بنى إسرائيل ، وليس بينها حديث عن التشريع أو الأخلاق ، وقد أوردت بعض هذه الأحاديث فى كتابى عن « الاسراء والمعراج » وهناك كثيرون من الأئمة ناقشوا البخارى وعلقوا على عمله ، ورفضوا عصمته ومن هؤلاء :

- ١ — الجيانى فى كتابه الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى
- ٢ — ابن عبد البر فى كتابه الأجوبة المربعة عن المسائل المستغربة من البخارى •
- ٣ — البلقينى فى كتابه الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام
- ٤ — ابن خلف فى كتابه التعديل والتجريح لرجال البخارى
- ٥ — العاملى فى كتابه الكشكول

ولكن الجامدين يريدوننا أن نعامل البخارى كما نعامل القرآن الكريم ، وهيهات أن نسوى بين الاثنين •

٤ — عمر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها :

في كتابي عن « الرسول في بيته » تحدثت عن عمر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها ، وليس في هذا الموضوع آية كريمة أو حديث شريف ، وإنما هي أفكار من صنع المسلمين والباحثين ، وهذا يجيز لي بكل تأكيد أن أذكر رأيي بين هذه الآراء ، ولكن الجامدين كانوا عبدة الأقوال السابقين ، ولم يشأ هؤلاء أن يفكروا ، وحاولوا أن يحرصونا التفكير ، فهاجم بعض منهم رأيي في هذا المجال .

ماذا قلت عن ذلك ؟

أورد فيما يلي نص كلامي من ص ٢٨ — ٣٠ من الكتاب المذكور :

تختلف الآراء حول عمر السيدة خديجة عندما تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيرى بعض المؤرخين أنها كانت في الأربعين من عمرها ، وحجتهم في ذلك أن السيدة خديجة تزوجت قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه مرتين ، فلما مات زوجها الثاني مرت على فترة كانت ترفض فيها الزواج ممن تقدموا لها .

وواضح من ذلك أن الذين قالوا بهذا الرأي لم يقدموا دليلا حاسما لقبوله ، وأن المسألة مجرد استنتاج .

أما الرأي الذي نراه فهو أن السيدة خديجة كانت في حوالي الثامنة والعشرين من عمرها ، ونعتمد في هذا الرأي على عدة عوامل :

١ — لو كانت السيدة خديجة في سن الأربعين لما سمحت لها مكانتها وشرفها أن تعرض نفسها للزواج وبخاصة من شاب لم يتزوج من قبل ، ويصغرها بحوالي خمسة عشر عاما ، أي أنه في عمر أولادها .

٢ — لو كانت في سن الأربعين لما استطاعت أن تنجب ستة من الذكور والإناث للرسول صلى الله عليه وسلم ، فالمرأة في مثل هذه السن قد لا تنجب ، أو تنجب طفلا أو طفلين وتتوقف .

٣ — ثم إن السيدة خديجة أنجبت للرسول صلى الله عليه وسلم ابنها « الطاهر » في الاسلام أى بعد أكثر من خمس عشرة سنة على الأقل من زواجها ، ومعنى هذا أنها أنجبت وهى فى السادسة والخمسين أو السابعة والخمسين ، وواضح جدا أن المرأة لا تنجب فى مثل هذه السن إلا نادرا ، لأن سن اليأس عند المرأة يبدأ قبل ذلك ، وبخاصة فى الجزيرة العربية حيث يبدأ الرشد فى سن مبكرة ، ويبدأ اليأس مبكرا كذلك .

٤ — وليس زواجها مرتين ورفضها الخطاب بعد ذلك دليلا على وصولها سن الأربعين ، فالفتيات فى الجزيرة العربية كن يتزوجن آنذاك فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وقد تزوجت حفصة بنت عمر ابن الخطاب من خنيس بن حذافة ، ولما مات زوجها تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان عمرها عند زواج الرسول بها ثمانية عشر عاما ، وتزوج الرسول صلوات الله وسلامه عليه عائشة وهى فى مطلع العقد الثانى من عمرها .

ولو فرضنا أن السيدة خديجة تزوجت زوجها الأول وهى فى الرابعة عشرة ، أو فى الخامسة عشرة وبقيت معه ثلاث سنوات ومات وهى فى الثامنة عشرة ، ثم تزوجت بعد عام من زوجها الثانى ، وبقيت معه ثلاث سنوات أيضا ، فإنها تصبح فى الثانية والعشرين من عمرها عندما مات زوجها الثانى .

٥ — أما عن الخطاب الذين تقدموا لها وردتهم فنذكر أنه كان من عادة العرب أن يسرعوا بزواج الأرامل حفظا لهن من متاعب الحياة ، فإذا كانت السيدة خديجة ردت اثنتين أو ثلاثة أو أربعة فإن ذلك يمكن أن يكون خلال عام واحد أو عامين .

وعلى هذا فالتقدير الذى نراه صحيحا هو أن السيدة خديجة كانت أسن من الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل ، وقد رحب الرسول بها فى هذه السن لأنه كان محتاجا إلى امرأة فيها حكمة ولها تجربة •

وقد قال بهذا الرأي ابن كثير (السيرة النبوية ١ : ٢٦٤) والأستاذ عباس العقاد (فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٢٠) وقد أضفتُ إلى قولهما بعض الشروح والتحقيقات كما سبق •

ماذا فى هذا الكلام حتى يثور الجامدون ويصيحوا ضده ؟

لقد فكر السابقون فقالوا ما قالوا ، فهل يحرم علينا أن نفكر كما فكروا ؟ إنه مرض الجامدين الذين وصفناهم أنهم لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس •

٥ — نهاية السيد المسيح على الأرض :

في كتابي «المسيحية» قدّمتُ دراسة طويلة موثقة المصادر عن أن السيد المسيح عليه السلام بعد أن نجا من الصلب استوفى أجله ومات كما يموت الناس ، ورفعت روحه إلى بارئها مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء .
وهبّ الجامدون يقولون إن المسيح رفع نفسه بجسده وروحه وملايسته ، وتسالهم : إلى أين ؟ إن الله سبحانه وتعالى في كل مكان أو ليس له مكان كما يقول علماء التوحيد ، « وسع كرسيه السموات والأرض » ، إلى أين رفع المسيح ؟

وما القول في قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ، عند ربهم ، يرزقون » ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم « فقولوا تعالى أحياء ، والعندية في قوله « عند ربهم » و « يرزقون » ، كلها للروح ، أما جسد الشهيد فقد وُوري التراب أو لاقى قَدْرَه إن كان قد استشهد في البحر أو وسط الحرائق .

وقال السيد رشيد رضا إن المسلمين يقلدون المسيحيين في قولهم إن المسيح رفع جسده وروحه ، فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح ابن الله ، نزل للتكفير عن خطيئة البشرية ، وبعد الصلب والدفن قام من قبره وعاد إلى أبيه .

ويحذّر السيد رشيد رضا المسلمين من هذا القول الخاطيء .

كبار المسيحيين يرون أن الذي رفع هو الروح :

وقد أتيت لي فرصة لأسأل مجموعة من كبار القسس بالفاتيكان

سؤالا مهما ، قلت لهم :

إن سؤالي يرتبط بالعقيدة المسيحية ، فأنتم تعتقدون أن المسيح ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ، ودخل رحم مريم ، وولد ، وعاش في فلسطين ، وأكل مما يأكل الناس ، وشرب مما يشرب الناس ، وقدّم دعوته للناس ، ثم صُلِبَ حتى مات ، ودفن ، ثم خرج من القبر بعد بضعة أيام وعاش مع الحواريين فترة ، ثم رفع إلى السماء .

والسؤال هو : هل الذى نزل من السماء ودخل رحم مريم كان لاهوتا أو ناسوتا ، أى هل كائنا إلهيا أو إنسانيا ؟ وبلفظة أوضح : هل كان روحا أو جسما ؟ والاجابة لابد أن تكون إنه كان روحا دخل رحم مريم وحملت به السيدة العذراء ، ثم وُلِدَ ، فهل الذى يصعد للسماء هو الذى نزل من السماء أى الروح ، أو الذى يصعد للسماء هو جسم المسيح الذى تربى في فلسطين كما يقربى الناس ؟

ولم أتلِق جوابا من هؤلاء القسوس آنذاك ، ورفُح السؤال إلى القيادات المسيحية ، ثم تلقيت بعد حين على عنوانى بالكلية نسخة من النشرة المسيحية الرسمية (IRF) .

The International Religious Foundation

عدد يناير وفبراير سنة ١٩٨٨ وعلى الصفحة رقم «٢» من هذه النشرة جاء ما يلى عن نهاية المسيح ثم عودة روحه لا جسمه للحياة بعد الدفن ، ومعنى عودة روحه للحياة هي — كما ورد في النشرة — عودة تعليماته وإرشاداته عن طريق الحواريين ، وفيما يلى هذا النص مصورا من هذه النشرة .

To Be Born Anew

Christ was "put to death in the flesh, but made alive in the spirit." (I Peter 3:18) This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth; the flesh profiteth nothing; the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life." (John 6:63)

It is obvious that Christ's resurrection was the revival of his spirit, his words, his teaching. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which had lost its life and died when he died on the cross revived among his followers on the third day, and became Christianity.

To Be Born Anew

« Christ was put to death in the flesh, but made alive the spirit, This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth, the flesh profiteth nothing : the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life.

« It is obvious that Christ's resurrection was revival of his spirit, his words, his teaching. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which had lost its light and died when he died on the cross, revived among his followers on the third day, and became Christianity.

وترجمة هذا النص هي :

عودة الحياة

« المسيح قُتِلَ جسما ولكن روحه لم تمت ، وهذا يؤكد أن بعث المسيح لم يكن إعادة الحياة لجسمه ، بل إبراز روحه للوجود والخلود .

إنها الروح التي تنشط ، أما الجسم فلا قيمة له ، وكلمات السيد المسيح نابعة من روحه التي لم يتطرق لها الفناء .

وإنه لمن الواضح أن بعث المسيح كان تجديدا لنشاط روحه ، ونشاط توجيهاته وتعليماته ، وقصة بروزه في اليوم الثالث بعد الصلب معناها عودة الحياة لتعليماته ، معناها أن التعليمات والارشادات التي مُتَقَدَّتْ بريقها عندما مات المسيح على الصليب نشطت من جديد بين حواريه بدءا من اليوم الثالث لصلبه ، وكوّنت المسيحية » .

وهكذا قنع المسيحيون بأن الذي رفع هو الروح ، وهم بذلك يعودون للعقل الذي سَخِرَ من رفع إنسان بجسمه وروحه ، والعجيب أن بعض المسلمين لا يزالون على تقليدهم للمسيحيين في موضوع رفع السيد المسيح بجسمه وروحه ، مع أن قادة المسيحية تنازلوا كما رأينا عن هذا الاتجاه المزيّف ، ولا شك أن عقلاء المسلمين قالوا بهذا الرأي السليم منذ عشرات السنين ومئات السنين ودونت آراءهم في كتابي « المسيحية » . ولكن الجامدين لم يرضهم اتجاهي في قضية نهاية المسيح على الأرض .

هل المسيح حقا هو ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ؟

ونظل مع الفكر المسيحي ، أو قل مع الإسرائيليات التي حرّفت المسيحية بواسطة « بولس » اليهودي الأصل ، نطلب مع هذه الإسرائيليات فنقول :

إن الوثيقة المسيحية التي عرضناها أثبتت أن المسيح دُفِن وأنه لم يخرج من القبر بعد ذلك ، وذلك يجيز لنا أو يحتّم علينا أن نقول إن هذا يعني ضمناً أن المسيح ليس ابن الله ، وأنه لم ينزل من أعلى ، فلو كان ابن الله حقا ونزل للتكفير عن خطيئة البشر لعاد إلى أبيه بعد قضاء الغرض من نزوله ، ولكن عدم عودته معناه عدم نزوله فليس من المعقول أن يُدفن ابن الله ، وهو شيء قررناه بالتفصيل في كتابنا « المسيحية » وهو الجزء الثالث من أجزاء سلسلة مقارنة الأديان . وليست المسألة إلا كما يقول الفكر الإسلامي : وخلاصة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى أودع في رحم السيدة مريم قوة جعلها تحمل بالسيد المسيح قال تعالى : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (التحريم الآية ١٢) وبهذا فالله واحد والمسيح عليه السلام نبي من أنبياء الله .

٦ — المسيح الدجال أو المسيح الدجال :

المسيح الدجال عكّم على شخصية ذاعت عند الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ، ويعتقد المسيحيون أنه شخص سيأتى آخر الزمان ليقود قثوى الشر ضد قوى الخير ، وقد ورد ذكره فى رسالة للقديس يوحنا الأولى (الإصحاح الثانى : الفقرة ١٨) « منشورات دار المشرق ببيروت » .

ويقول الأستاذ أحمد عطية الله (١) : إن المسيح الدجال شخصية أسطورية لا سند لها من القرآن أو الحديث الصحيح ، يقولون إنه يظهر آخر الزمان ، وينشر ضلالاته بين الناس فيتبعه خلق من الكفار والمشركين والمنافقين ، وهو رجل دميم الخلقة يثير فزع الناظر اليه ، ويمتطى حمارا يجوب به وجه الأرض ، ويعتبر ظهوره من أشراط الساعة ، وتنتهى حياته فى بيت المقدس بعد أن يعم فسادُه الأرض .

والموضوع كله خرافى وأسطورى ، ولا حقيقة له ، فيجب أن ترفضه الجماهير ولا تستمع اليه ، وإذا ادعى أحد أن هناك حديثا عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن المسيح الدجال ، فليس هذا الحديث إلا مختلقا ، وهو من وضع الإسرائيليات التى تعمل جاهدة للتضليل .

وكم من ملايين السنين يحتاجها راكب حمار ليجوب الأرض وينشر

ضلالاته ؟؟

٧ — المهدي المنتظر :

خرافة أخرى من الخرافات التي ظهرت في العالم الاسلامي ، ووقف الجامدون حيالها بين مؤيد أو صامت ، وتعرضنا لها بالتنفيذ مع العلماء الذين هاجموا هذه الخرافة .

والمهدي المنتظر خرافة أو بلغة الانحراف الذي شاع هي « الرجعة » أي أن يعود المتوفى بعد فترة للحياة ، وقد قال بها عبد الله بن سبأ ونسب للرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه سيعود بعد فترة للحياة ، فهو ليس أقل من عيسى الذي قال الجامدون إنه — كما ذكرنا من قبل — عاد للحياة ، وخرج من القبر ، ورفع بجسمه وبروحه للسماء ، وقال عبد الله بن سبأ عن علي كرم الله وجهه أنه أيضا لم يموت ، وإنما اختلف ، وسيمود لا محالة .

ولما مات محمد بن الحنفية سنة ٨١ هـ ، وهو ابن الامام علي من زوجة من بنى حنيفة ، أنكرت فرقة « الكيسانية » أنه مات ميتة تامة وقال شاعرها « كثير عزمة » شعرا يفيد أنه تغيب وعنده غسل وماء وأنه سيخرج ليستعيد مجده ويهزم أعداءه .

.....

وسبط لا تراء العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

ولما سقطت الدولة الأموية ظهر من يقول بظهور المهدي وهو رجل « سفياني » سيعيد أمجاد الدولة الأموية .

ويُنسب « المهدي » كذلك للدولة العباسية ، ويقال إن الخليفة المنصور العباسي سمى ابنه « المهدي » ليعيد أمجاد آل البيت وليقضي على أعدائهم .

هذا وللقضية جذور مسيحية ، فقد قال المسيحيون إن عيسى عليه السلام عاد للحياة بعد الصلب ، وخرج من القبر ، وعاش فترة منع الحواريين ، ثم صعد للسماء والحواريون يرونه وقد أثبتنا من قبل زيف هذه الفكرة .

على أن عقيدة « المهدي المنتظر » ذاعت وشاعت عندما لجأ لها الشيعة الإمامية ، والقصة هي أن الحسن العسكري كان الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية ، واقتب العسكري لأنه كان يعيش في سامراء مدينة العسكر ، وكان له ابن وحيد اسمه « محمد » وقد ولد هذا الابن سنة ٢٥٥ هـ وتوفي الحسن العسكري وابنه محمد في عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولم يتفق الشيعة الإمامية على إمام جديد ، فالإمامة عندهم بالوراثة ، وقد انقطع نسل الإمام موسى الكاظم زعيم الاثنى عشرية بعد وفاة الحسن العسكري وابنه الوحيد في عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولهذا لجأ زعماء الشيعة الإمامية إلى القول بأن الطفل محمد لم يميت وإنما نزل سردابا كان يصل بين بيت أبيه وبين المسجد ، واختفى الطفل منذ ذلك التاريخ ، وسيظهر يوما ليملا الأرض عدلا ونورا بعد أن مثلت ظلما وجورا ، وقد زرت ذلك السرداب وقصصت قصتي مع المشرف عليه الذي تقدم له هبات سخية لإشرافه على المكان الذي يقال إن الإمام اختفى فيه ، والذي ينقل تعليمات الإمام لأتباعه والعارفين بفضله .

وقد اعترف لي هذا المشرف عندما عرف ثقافتني بأن القضية ليست إلا خرافة ، ويمكن للقارئ أن يطلع على ما دونته عن هذه القضية في المراجع التاريخية .

وكان هذا الموقف من زعماء الشيعة الإمامية حرصا على أتباعهم أن ينفردوا عقدهم ، أو أن يتجهوا إلى طائفة أخرى من فرق الشيعة .

وحرصا من الشيعة أن يثبتوا هذه العقيدة الباطلة اختلقوا الأحاديث لتقويتها ودعّمها •

والعجيب أن القول بمهدى منتظر تسرب من الشيعة إلى أهل السنة ، وكان أهل السنة أو بعضهم متأثرين بما شاع من أحاديث حول هذا الموضوع ، وينبغي أن نقرر أن أهل السنة عندما قالوا بالمهدى المنتظر لم يقرروا أنه محمد بن الحسن العسكري ، بل اتجهوا إلى القول بمهدى منتظر دون أن يحددوا شخصه . ويقول الأستاذ عبد المتعال البصعدي^(١) إن المسلمين بعد أن انتشر فيهم انحراف الحكم ، وسعدّ عن العدالة ظهرت فيهم فكرة المهدي المنتظر ، وقد اختلط عند هؤلاء المهدي المنتظر بالمجدد المنتظر •

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر^(٢) معلقا على قول أهل السنة بأنهم ينتظرون المهدي المنتظر : إنها علوى من الشيعة أصيب بها أهل السنة معتمدين على أحاديث ثبت ضعفها وأنها موضوعة •

ويقول الأستاذ أحمد أمين^(٣) : إن فكرة المهدي المنتظر كانت مؤامرة شنيعة أفسدت عقول المسلمين •

الخميني والمهدي المنتظر وصورة من الضلال :

ولا يزال الشيعة يقولون هذا القول المنحرف ، وقد بالغ «الخميني» في الانحراف إلى درجة تهزّ الإيمان ، فقد قال في مناسبة ذكرى الامام المنتظر ما يلي :

لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم ، ولكنهم لم ينجحوا ، حتى النبي محمد خاتم الأنبياء ، والشخص

(١) المجددون في الاسلام ص ٥٨٦ •

(٢) الشيعة - المهدي - الدروز ص ١٦٩ - ١٧٠ •

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٣ •

الذى سينجح فى ذلك ويترسى قواعد العدالة فى جميع أنحاء العالم ،
ويقوّم الانحرافات هو المهدي المنتظر (١) .

• وكان هذا من الخميني صورة واضحة من الانحرافات الشيعية .

وفى الهند ظهر ميرزا غلام أحمد القادياني الذى ادعى مرة أنه
المسيح المنتظر ، وادعى أخرى أنه المهدي المنتظر ، وادعى ثالثة أنه
نبي من الأنبياء ، وما أيسر الادعاءات لمن لا يقيم وزنا لفكر ، ولا يحترم
عقله ولا عقول الناس .

وهناك كتاب مهم فى هذا الموضوع هو « لا مهدي منتظر بعد الرسول
محمد خير البشر » لفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس
المشئون الدينية والمحاكم الشرعية فى دولة قطر وهو كتاب يبرز بطلان
هذا الإدعاء الذى يضر كثيرا ولا يفيد فى شيء .

وأخيرا فليس هناك « مهدي منتظر » وليكفّ الجامدون عن هذا
القول الذى يخلق الضعف والاعتماد على خرافة ، وإذا كنا نريد نهضة
فلنعتد على أنفسنا فى وضع أسسها دون انتظار خرافة لتحقيق لنا ما
نتمنى ، إن أعداء الإسلام يهمهم أن ننام وأن تطول غفوتنا فى انتظار
هذا المهدي الذى لن يجرى .

وليت الجامدين يقرءون ما يكتبه الثقات ليكشفوا عن تخدير المسلمين
بمثل هذه الخرافات .

بقى أن أذكر حكاية حدثت لى سنة ١٩٩٠ فقد جاء إلى مكتبى بالكلية
طالب متورم الجسم ، تبدو عليه البلاهة وسألنى : هل تتكر ظهور
المهدي المنتظر ؟

(١) نقلا عن د . عبد المنعم النمر : الشيعة - المهدي - الدروز ص ١٧٧ .

فقلت : نعم إننا لسنا محتاجين لمهدي بعد القرآن الكريم واحاديث الرسول الصحيحة ، وعلينا أن نعمل ونكدح لنعيد إلى حياتنا ازدهارها ورقبها دون انتظار لن يأتى بطائل •

فقال الطالب عن نفسه : وما رأيك أننى المهدي المنتظر •

وأحسست أننى أمام شخص أبله ، فحرصت على التخلص منه ، وذكرت لسه أننى مشغول فلنتركك إلى عملى ، ولكن الشخص تشبث بكلام مضطرب ، وذكر أن ولادته لم تكن طبيعية ، وأن طفولته كانت توحى بأن له مهمة عظمى سيقوم بها •

وزحزحته عن حجرة مكتبى بكل الحيل ، وقد كان نموذجا من النماذج التى ادعت هذا الادعاء المزيّف •

٨ — وهناك عشرات أو ربما مئات من هذه النماذج دونهن فى موسوعة التاريخ الإسلامى وموسوعة الحضارة الإسلامية وسلسلة مقارنة الأديان ، فليعد لها من يشاء •

الجامدون يمثلون الدول أحيانا :

وامتدّ نفوذ الجهود إلى السلطة أحيانا ، ووقع على الضرر من السلطات الأنتى أفكر لخدمة الإسلام ، وسأقدم فيما يلى بعض ما نزل بى من أضرار بسبب هذا الجهود :

١ — أرسل لى ناشر من « دى » يطلب مائة مجموعة من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » وأرسلنا له المجموعات التى طلبها ، وعرضت الكتب على شيخ ليسمح بدخولها للبلاد ، فرفض لأن الجزء الثالث منها يتحدث عن الإسراء والمعراج على ما وصفت ، وعادت الكتب للقاهرة مع تكاليف الإرسال والعودة على حسابنا والأمر لله •

والحق أن الضرر الذى نزل بنا كان أقل جدا من الضرر الذى نزل بإخواننا فى الإمارات العربية المتحدة ، ففسد حرهم هذا الشيخ من الحصول على هذه الكتب بسهولة ، وألزمهم جهدا كبيرا ليحصلوا عليها

من خارج الإمارات ، ودخلت هذه الكتب كل بيت تقريبا ولكن بعد محاولات للحصول عليها من هنا وهناك ، بل إنى أقسم أن بعض أهل الإمارات اتصلوا بى تليفونيا يطلبون الأجزاء المائة ، ولما أخبرتهم أنها لم تكمل بعد ، طلبوا منى الإسراع فى استكمالها •

وهكذا حاول هذا الشيخ أن يمنع ضوء الشمس ولكن الشمس ملأت الكون على الرغم منه •

٢ — وتلقيت رسالة رسمية من وزارة الثقافة فى « أبو ظبى » لأزور دولة الإمارات وألقى بعض المحاضرات ، وأقرر أن المحاضرات نجحت نجاحا عظيما ووجدت إقبالا هائلا من الناس ، وكان ضمن النشاط الذى دُعيت له أن أجيب على أسئلة فى الإذاعة عن طريق « التليفون » وجلست فى الاستوديو ووضعت السماعة على أذنى وجرت أحاديث مهمة من الذين لم يتييسر لهم حضور المحاضرات فى العاصمة ، وكان ذلك بناء على طلبهم وإلحاحهم ، ولأقت هذه الفكرة كل النجاح ، وطلب الكثيرون تكرارها ، وذهبت للاستوديو يوما آخر وبدأنا العمل ، وكان بين الأسئلة سؤال عن شهادات الاستثمار ، فتبرع موظف مصرى فى « أبو ظبى » كان يهمه أن تكون له حظوة عند بعض رجال الدين الذين كانوا يرون تحريم التعامل فى شهادات الاستثمار ، فاتصل هذا المصرى الرخيص بأحد رجال الدين ، وكان لرجل الدين « الشيخ عبد العزيز » مكان فى الدولة ، فأصدر أمره بإيقاف هذه الإذاعة •

ومرّ الزمن وقال مفتى جمهورية مصر العربية بهذا رأى ، وأصبح من العبث الموقوف أمام كلمات الحق ، ويدل أن يناقشنى الإنسان المصرى الرخيص أو الشيخ عبد العزيز استعمل الشيخ سلاح القوة ضد سلاح الفكر والأمر لله •

٣ — وأنا أنشر كل كتابى عن طريق مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ولكن لظروف خاصة وافقت على نشر كتابى « الرسول فى بيته : زوج مثالى — وزوجاته — وأولاده — وأحفاده — وخدمه » فى المملكة الأردنية

الهاشمية طمعا في سعة التوزيع وسرعته ، وذلك لأهمية هذا الكتاب التي سأتشيد لها بعد قليل ، والمهم أن أصول هذا الكتاب عرضت على شيخ في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالأردن ، فرفض هذا الشيخ الموافقة على نشر هذا الكتاب من أجل ما ورد به عن عمر السيدة خديجة ، ومن أجل أنني لم أقل « صلى الله عليه وسلم » عقب كل مرة يرد فيها بالكتاب اسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مع أن الصلاة والتسليم وردتا ثلاث مرات أو أربع مرات في كل صفحة من صفحات الكتاب ، وواضح أن هذا الشيخ لا خبرة له بتأليف الكتب ، وأنه لم يكتب صفحة واحدة في حياته ، ولكن للأسف معه نفوذ على المؤلفين ، وهكذا نجد فاقداً للإبداع يسيطر على من يعملون في مجال الإبداع .

وتركنا الأردن ونشرنا هذا الكتاب أروع نشر في عاصمة عربية أخرى والأمر لله .

وهذا الكتاب له قيمة كبيرة عندي ، فقد كان وسيلتي غير المباشرة للرد على افتراءات سلمان رشدي ، وهذا الرجل لا وطن له ، فلم يعد هندياً ولا أصبح بلونه ومشاعره إنجليزياً ، وهو كذلك لا دين له ، فهم يهذّبون بهجومه وخياله المريض مسلماً ، ولا عرف المسيحية ، والرجل الذي لا وطن له ولا دين له إنسان فارغ الرأس يقول ما لا يعنى .

وقد تحدث هذا الرجل عن أسرة الرسول ، وكان كتابي هذا ردّاً غير مباشر عليه ، لأنني لم أورد آراءه وأردت عليها حتى لا يكون في ذلك إذاعة لصلواته ، وإنما تكلمت عن الموضوع كلاماً مستقلاً .

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب ، ولكن الرجل الأردني منع ظهوره هناك وكأنه كان يتخيل أن في يده مفاتيح النشر ، حسابه على الله ، وأبعد هذا الرجل بعد فترة عن وظيفته ، وجاء رجل آخر مستتر ، على الثقافة ، فقرر الترحيب بالكتاب ، ودخل الكتاب مطبوعاً إلى المملكة الأردنية الهاشمية .

٤ — وتضمنى وزارة الأوقاف بمصر بتقديم محاضرات للأئمة لترفع مستواهم الفكرى ، ولهذا نظمت الوزارة لهم برنامجا سُمى « التدريب الراقى » ونُكِدَت للقيام بهذا العمل مجموعة من العلماء والمفكرين ، وقد شرفنى أن كنت واحدا منهم ، وقد تلقيت فى هذا الشأن خطابا من الأستاذ الدكتور محمد على محبوب وزير الأوقاف يطلب منى الاشتراك فى هذه الدورات بإلقاء محاضرات عن « الحضارة الإسلامية » .

ورحبت بهذا العمل رجاء أن أخدم دينى ووطنى عن طريقه ، ثم لأسدد بعض ديونى للأزهر الذى نلت فيه جانبا كبيرا من الثقافة التى اشتغلها فى العهد الحاضر .

ورحت بكل الجهد والأمل ألقى محاضرات فى الحضارة الإسلامية التى يمكن القول بعيدا عن أى صلف أو كبر أننى الوحيد الذى كتبت فيها كتابة شاملة فى عشرة مجلدات على نسق جديد لم يشاركنى فيه كاتب آخر . وكان طبيعيا أن يسألنى بعض الأئمة عن رأى الذى شاع فى قضية الإسراء والمعراج أو فى قضية المهدي المنتظر وغيرهما من القضايا التى تكلمت فيها والتى ذكرتها أو ذكرت بعضها فى هذا الكتاب ، وكنت أجيب بما أعرف ، وأشرح وجهة نظرى تماما .

وأقرر أن كثيرين جدا من الأئمة استراحوا لكلامى وامتدحوه ، ووثقوا بى علاقاتهم ، ولكن لا يخلو الحال من أفراد جامدين لم يكونوا مستعدين للتحول عما ألفوه من الاتجاهات الإسرائيلية واتجاهات الجمود التى غذت نفوسهم ، وأصبحت فى تقديرهم هى الأساس للفكر الإسلامى ، وأن محاولة تصحيحها ليست إلا هجوما على الفكر الإسلامى ، وشكا هؤلاء للمشرفين على الدورات ، واستجاب لهم — للأسف — هؤلاء المشرفون ، فلم أَدْعَ لاستئناف المحاضرات فى الموسم التالى .

وأنا فى الحق لم أخسر شيئا نتيجة لذلك ، وإنما كَسَبْتُ وقتى

وجلست أكتب وأواصل الدراسة والتأليف ، ولكن خسر هؤلاء فكريا قد لا يجدونه في محاضراتٍ أخرى •

ليت المشرفين تحققوا من القضية ، ولكنهم استجابوا لرأى الجامدين دون فكر أو روية ، ومما يذكر أننى ظلمت ألقى هذه المحاضرات على الأئمة أكثر من خمس عشرة سنة ، وكنت — وأنا أسجل هذا — حظيّا عند الأئمة والمشرفين السابقين ، ثم جاء زمن ألقى الزمام في الإشراف إلى جماعة من الجامدين الذين لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس •

وأقرر أننى لم أشكّ للوزير أبدا ولا لغيره ، فالعلم في تقديري يُسعى إليه كما تعلمنا من شيوخنا في العصور الزاهرة •

• — هذه نماذج من الضر الذى مسّنى ، ولكن هناك ما هو أشد ، فمعلوم أن أهم المصادر المالية التى يعتمد عليها أستاذ الجامعة المصرى هى السفر للخارج معارا أو زائرا ، أما الإعارة فلم تكن لى رغبة فيها ، فقد قررت عقب عودتى من إندونيسيا — التى سافرت لها بعد أن فصلنى جمال عبد الناصر من الجامعة — أن أبقى فى القاهرة أكتب لكل العرب ولكل المسلمين ، وكنت زاهدا تماما فى الإعارة ، وفيما تجلبه من مال ، ولهذا لم أتقدم قط لها •

ولكن الأستاذ الزائر عمل استريح له ، فهو مدة قصيرة لا تؤثر على عملى العلمى بالقاهرة ، وهو فرصة لأعرض أفكارى فى التاريخ الإسلامى الذى جددت فى منهجه تجديدا واسعا ، فأصبح شاملا لكل المسلمين وليس مقصورا على العرب وحدهم كما كان من قبل ، كما أصبح ممتدا حتى الآن فلا تتوقف دراسته عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وجاء هذا العمل فى عشرة مجلدات كبيرة •

وكذلك أعرض أفكارى فى الحضارة الإسلامية التى بفضل الله لم أسبق لها والتى جاءت فى عشرة مجلدات أخرى •

وكذلك أعرض أفكارى عن مقارنة الأديان ، ذلك العلم الذى كتبت فيه أربعة مجلدات لا يكاد يوجد غيرها فى المكتبة العربية بعد ما كتبه الشهرستانى وابن حزم •

ثم فى منهج البحث الذى يتمثل فى كتابى « كيف تكتب بحثا أو رسالة » الذى ظهرت طبعته الثانية والعشرون •

كنت فعلا أرغب فى أن أكون استاذًا زائرًا من حين لآخر لهذه الأسباب ، وربما لأن هذا العمل يمنح بعض المال الذى يساعد على تغطية تكاليف الحياة لأستاذ لم يذهب قط لإعارة •

ولكن تأثير الجمود حال دون دعوتى لهذا العمل ، وكان زملائى وتلاميذى يجوبون البلاد معارين وأساتذة زائرين إلا أنا •

لقد تفضل الله فلم يجعلنى فى حاجة مالية لهذا العمل ، ولكن ماذا لو كنت محتاجا من الناحية المالية ؟ إذن كان على أن أختار بين معاناة الحاجة أو أن أتخلى عن فكرى وأعيش كما يعيش الآخرون على درب السابقين دون أية إضافة أو تجديد ، وما كان أيسر ذلك على •

إننى أعرف كثيرين يقولون ما يرضى أصحاب النفوذ ، ويطوون كل كلمة لا ترضى هؤلاء مهما كان فيها من خير للفكر أو للناس ، خشية أن تشوق تدفق الذهب إلى جيوبهم ، إننى فى الحقيقة أرى لهؤلاء •

والعجيب أن الذين يهاجموننى لما قلت فى الإسراء والمعراج ، ولراى عن عمر السيدة خديجة عندما تزوج الرسول صلوات الله عليه بها ... هؤلاء ينسون أكثر من مائة كتاب الفتها وهى جميعا تبرز روعة الإسلام ، وتقدمه بلغات مختلفة للمجتمع البشرى ، ما أقسى هؤلاء وما أشد ظلمهم أن يتركوا الخير كله ثم يهاجموننى لاختلاف فى الراى فى قضية ليست من الأصول بين مبادئ الإسلام •

وينبغي أن يكون واضحاً أن هؤلاء الجامدين لم يقفوا هذه المواقف منى وحدى ، بل إنهم يقتبعون كل مجتهد ليهاجموه ، لقد نتبوا الإمام الفذ محمد عبده وأنزلوا به الضر ، وتتبعوا الإمام العالم الشيخ محمد الغزالي ، الذى يُعَدُّ في تقديرى وتقدير الكثيرين العالم الأول في عصرنا الحاضر ، هذا الرجل العظيم تعرض — بسبب اجتهاده — لأقسى مما تعرضت له من نقد وهجوم ، وكان الذين هاجموه من الصفوف الأخيرة في موكب الفكر الإسلامى ، وقد رأينا فيما سبق أن فضيلة المفتى الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى هُوجِم لبعض آرائه ، وهُوجِم معه الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيده فيما قال .

فالجامدون — للأسف — يرون أن رأيهم هذا الرأى الوحيد ولا يسمحون لغيرهم أن يخالف رأيهم مهما كانت أدلته .

والجامدون للأسف الشديد يحاربون مَنْ خالفهم من المسلمين أكثر مما يحاربون أعداء الإسلام .

أيها القارئ الكريم :

هذا فصل جديد من فصول حياتى أضيفه للطبعة الرابعة ، وهو لا يشمل كل ما عانيتُ وإنما يشمل بعضه فقط ، ولعلنى في طبعة قادمة أضيف صوراً أخرى من العناء وأست هنا أشكو ، وإنما أصف لونا من ألوان الحياة يسود فى بلادنا الإسلامية ، وانحنى لله أن ذلك الضر الذى نزل بى كان ضعيف التأثير أو عديم التأثير ، وأن الفيض من الله كان واسعاً فى كل مجال ، والله وحده هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهدك يا رب أن هذا القلم سيظل عميق الإخلاص للعمل ، متفانياً فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وماذا بعد ؟

لقد سارت رحلة الحياة هذا الشوط الفسيح ، وقابل زورق الحياة كثيرا من العواصف والأنواء ، ولكن عناية الله أنقذت الزورق من كل ضرر ، وجعلت الريح رخاء وبركة •

وقد وصفتُ قضايا الحياة التي عشتها وصفا موضوعيا ، رجاء أن تكون هذه المرحلة ذات ثمار طيبة للقارئ بما حوت من جهد وجهاد ، ويشهد الله أن الخير كان رائدى فى كل كلمة كتبتها أو فكرة أثرتها ، فاللهم أسألك أن تنفع بما كتبت ، فإنه ذوب قلبى وعصارة عقلى •



وإذا كنتُ قد وصفت ما رأيت ، وعرضت مشاهدى وتجارب الماضى فليست أعرف شيئا عن المستقبل ؛ إنه فى طيات الغيب ، ولكن ثقتى فى الله وإخلاصى للدين والوطن تطمئنى أن أدخل بسلام غمار الأيام القادمة ، وأطوى فى أمنٍ أحداثَ المستقبل ، فكن يا رب معى وأنا أخطو هذه الخطوات ؛ إننا ندعوك ونرجوك ، فاقبل الدعاء والرجاء •

وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح •

ISLAMIC CIVILIZATION

10



دكتور أحمد شلبي

MY LIFE JOURNEY

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Fourth Edition (1990)

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج (إنجلترا)
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية وقبـد حاضـر — منتدبا وزائرا ومعارا — في جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات انديلماسية .
- مؤلفاته (غير المكتبة الإسلامية) تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :
- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة اجزاء .
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة اجزاء .
- ٣ — مقارنة الأديان في أربعة اجزاء .
- ٤ — كيف تكتب بحثا او رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الأعمار :
- ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
- ISLAM : Belief Legislation Morals
- History of Muslim Education
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .